يعقوب شريت

دولة إسرائيل زائلة



ترجمة دار الجليل

دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية

خالد علي بورحيمي

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

«دولة» اسرائيل زائلة

٣٢٢٢ر٥ع٩
شريـ   شريت ، يعقوب
دولة اسرائيل زائلة / يعقوب ، شريت ، ترجمة
دار الجليل ـ عمان: دار الجليل للنشر ، ١٩٩٠
(١٥٨) ص
ر.أ(٦٨١/١٠/١٩٩٠)
١ ـ فلسطين ـ تاريخ   ٢ ـ الاحتلال الاسرائيلي
أ ـ العنوان   ب ـ دار الجليل، مترجم
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

تصميم الغلاف : خضر نعيم

الطبعة الأولى
١٩٩١

دار الجليل للنشر
والدراسات والابحاث الفلسطينية ـ عمان
ص.ب ٨٩٧٢ ـ تلفون ٦٦٧٦٢٧

خالد علي بورقيق

«دولة» اسرائيل ـ زائلة

يعقوب شريت

ترجمة

دار الجليل

اصدار
دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية
عمان ـ ص.ب ٨٩٧٢ تلفون ٦٦٧٦٢٧ ـ ٦٧٥٦٢٧
تلكس ٢٣٠٣١ ـ فاكسميلي ٦٨٣٦٦٨

ISRAEL IS GOING TO BE VANISHED

AUTHER:
JACOB SHARIT

Translated By: Dar El-Jaleel
The First Edition
1991

Published By: Dar El-Jaleel for Publishing
and Palestinian Research and Studies
Amman - Jordan

P.O.Box 8972 - Tel. 667627
Telex. 23031 - Fax. 683668

المحتويات

الصفحة

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

تقـديم :

تقودني الذكريات، وانا اقلب صفحات هذا الكتاب، الى نيف وثلاثين سنة، حين وقعت عيناي على سؤال وضعه معلم التاريخ، المقدسي، لطلاب الصف السادس الابتدائي، يقول: «خلقت اسرائيل لتموت. اثبت ذلك بمنطق تاريخي سليم».

ومع أني اعجبت آنئذ بالسؤال، صياغة ومضمونا، الا انني حلقت في الأفق بعيداً، استعرض شريط الماضي الأليم، يوم اقتلع الفلسطينيون من أرضهم ووطنهم، ليعيشوا في ديار الغربة والشتات، وقلت للمعلم الزميل: «يظل المنطق التاريخي صورة بيانية، يحتاج الى آلية عمل نحن نفتقدها». فقال «دع هذا للتاريخ».

ومضينا، ومضت السنون، ولحقت النكسة بالنكبة، وكثيراً ما جال في خاطري، أن اتساءل: ماذا عسى هذا المعلم المقدسي الرابض على أرض فلسطين أن يقول اليوم لطلابه؟ ترى أما زال متمنطقا بالمنطق التاريخي السليم؟.

وها قد برز من بين اليهود من يقول «دولة اسرائيل زائلة»، ويوثق قوله هذا في كتاب، يحدث ضجة كبرى في الوسط الاسرائيلي، مسؤوليه وعامته، فكيف يكون ذلك، واسرائيل هي الدولة الأقوى والاكثر تسليحا، ودعما في المنطقة؟

لكن المؤلف الفيلسوف، لم يترك قراءه، يهيمون في فراغ قاتل، فقد سرد لهم اسباب سوداويته من المستقبل الذي ينتظر اسرائيل، هذه الدولة، ذات المجتمع غير المتجانس، الذي لا يجتمع الا على حرب، ولا يتفق إلا على عدوان وتوسع، ويتلذذ باستعباد غيره من الشعوب، وها هو المثل الحي القائم.. الشعب الفلسطيني، الذي ينتفض لكرامته وكبريائه الوطني.

تلك اذاً، هي اسباب يأس وقنوط يعقوب شاريت، وهي القاسم المشترك الذي يجمع بين جل المثقفين اليهود، وأهل الفكر منهم، وهذا يعني، أن المؤلف وغيره، لم يكونوا ليقولوا شيئاً، لو أن شعب فلسطين قد استكان للاستعباد، ولم ينتفض ضد الاحتلال والظلم، وقد كان أجدى للمؤلف، لو أنه عالج هذا الموضوع، برؤية لا تعتمد الاسس الفلسفية، منطلقاً لقادم الأيام.

«دولة اسرائيل.. زائلة»، شعار طالما ظل حلما عربياً عموماً، وفلسطينياً خصوصاً، وسيتحقق، بفضل سواعد ابناء فلسطين، والخلّص من ابناء العروبة

والاسلام ذلك أن كل طفل فلسطيني، خرج لتوه من رحم امه، حاملاً بيمناه الحجر، لن ينتظر ذوبان اسرائيل من الداخل، فقد تعلم، وهو ما زال علقة، أن الحق لن يعود، إلا بسواعد اصحابه، ودماء أهله.

على أن اعتـراف كاتب ومفكر مثل، يعقوب شاريت، ابن أحد آباء الحركة الصهيونية، موشيه شاريت، وزير خارجية بن غوريون، ورئيس الوزراء الثاني بأن «دولة اسرائيـل زائلة»، يبقى اضافة نوعية، ذلك انه يشكل وثيقة دامغة للبؤس الروحي المطبق، الذي يمسك بخناق المجتمع اليهودي - الاسرائيلي، جراء الواقع الرهيب الذي يعيشه...

وثمة تساؤل يطرح نفسه في هذا السياق: هل يعني هذا أن الكاتب المفكر الاسرائيلي، يفتقر الى الانتماء لدولته وبني جنسه؟ والاجابة بالقطع سلبية.. فهو يبحث عن مستقبل دولته وسط متاهات يعيشها مجتمعه، الذي أوهم بأن القوة، والقوة فقط، هي الكفيلة ببقاء الدولة.. والى الأبد، وهو استنتاج مغرق في قصر النظر.

والله الموفق

أسرة دار الجليل

أ ـ **وقت للرثاء** :

«مـاذا لديك مما هو سيىء تقوله عن الدولة اليوم؟» لقد اعتدت على هذه العبـارة الترحيبية في لقاءات أمسيات السبت في بيت أحد الاصدقاء من سكان ضواحي شمال تل ابيب.

كان جميـع الحضـور من جيل حرب ١٩٤٨، وجميعهم من ابناء الطبقة المتوسطة. وكانوا يدركون جيدا انني لست بحاجة سوى لقليل من التحدي من قبل المضيف،صاحب البيت ، حتى ينفلت لساني، وأبدأ اهاجم (الدولة) بكل ما هو سيىء، بدءً بالارهاب الديني، وحتى النزوح من اسرائيل. ومن أزمة التعليم الى أزمة الصحـة، ومن السذاجة وحتى الرجعية والاستعمار. ومن تدني مستوى اعضاء الكنيست حتى قزميّـة وزراء الحكـومـة، ومن محاولات صبغ المجتمع و(الدولة) بالصبغـة العنصرية على غرار جنوب افريقيا، ومن الخطر السكاني حتى الحرب القادمة، ومن حالة التسليم والتكيّف مع الوضع القائم حالياً، وحتى حالة فقدان الأمن والثقة في المستقبل الذي نرسمه لاولادنا، وغير ذلك كثير.

بعد ذلك، يبدأ النقاش والجدال بين الحضور. بعضهم يؤيد رأيي وبعضهم يعارضه. منهم من يتساءل هل صحيح ان كل ما في هذه (الدولة) «اسرائيل» سيىء هكذا؟! الا ترى السيارات في الشوارع؟ الا ترى ان الأمور في (الدولة) تسير احيانا نحو الأفضل؟ ثم تهدأ المناقشات. وفجأة أرى علامات اليأس تبدو على وجه هذا أو ذاك. وفي بعض الحالات كنت أبقى وحيداً في موقفي كمتشائم لا يمكن اصلاحه.

عندئذ كانت تدخل ربة البيت تقدم لنا شيئا ما، تقطع بذلك النقاش الحاد. ثم يتحول الحديث عن الامراض، والاعمال، والرحلات وغيرها.

تزول العـاصفـة، وفي الصبـاح، تشرق الشمس. وهاهي (دولة) اسرائيل المهددة، تنجو ثانية.

في إحدى الجلسات وُجّه اليّ السؤال المعهود في موعده: «ماذا لديك سيىء تقوله عن الدولة اليوم؟». هنا، خرقت الروتين وقلت لهم: اليوم، لن أقول شيئاً عن الدولة. اليوم ـ أنتم ستقولون ما هو جيد فيها. هيا تفضلوا».

لكن أياً منهم لم ينطق ببنت شفة.

ـ ماذا سيكون ؟

ـ سيكون خيرًا.

وبـدون تخـطيط أو قصد، بدأت اجتماعات ولقاءات مجموعتنا تقل شيئاً فشيئـاً. وكلمـا اجتمعنا، لم يعد السؤال المعهود يُطرح عليّ مباشرة. بل أصبح المجتمعون يبدأون الحديث فوراً عن الامراض، والاعمال، والرحلات، والاشاعات. لقد أصبحت الجلسات مملّة. ربما كان هذا الحديث يساعد زملائي، غير أنه كان ممـلاً بالنسبـة لي. فقـد أصبح الجميع يدركون جيداً بأن «الوضع الراهن» لم يتحسن، بل بالعكس، زاد سوءاً وآخذ بالتدهور اكثر، ولا يوجد بصيص أمل أو مؤشر مهما كان ضئيلاً يشير الى حدوث تغيير للافضل.

بعبارة أخرى؛ لدى نشر نتائج الانتخابات للكنيست الثانية عشرة، التي سيطر عليها المتدينون، شعر كل واحد من المجموعة بالخطر يلامس عظامه. لذلك ما الفائدة من مجادلة شخص مثلي متشائم بطبعه، ولا يمكن اصلاحه؟ جميعهم اصبحوا يشعرون ويدركون بأن هذا المتشائم الذي لا يمكن اصلاحه، كان محقاً فيما رآه دائماً وفيما كان يتنبأ من سوء. والآن، فان الشيطان وحده يمكن ان يعرف ماذا سيقول لو سُئل عن وضع (دولة) اسرائيل اليوم. لذا من الافضل عدم سؤاله عن رأيه.

لكن هذا ليس كل شيء. فالوضع سيىء. سيىء للغاية. لذا لا مناص من استبـدال السؤال: ماذا سيكون؟ بسؤالي: ماذا نفعل؟ أي المطلوب إستخلاص استنتاجات عملية. ولكن من لديه القوة والقدرة والجرأة على عمل شيء يمكن أن يغيّر هذا الوضع القائم، هذا اذا كان بالامكان عمل شيء في هذا الاتجاه أصلاً. بعد ذلك نشرب قهوة أو شاياً او حتى نرقص.

ـ إذاً ، ماذا سيكون ؟

ـ ليكن مهما يكون.

هذا ، لا يهمني. يشربون، يرقصون، يأكلون، يتفاخرون بابنائهم واحفادهم. ليس لانني لا اشرب أو لا ارقص. (حقيقة، انه في ذكرى الاربعين لقيام (دولة) اسرائيل، في السنة الاولى للانتفاضة، لم أرقص، حتى انني احتقرت في قلبي كل من رقص، ذلك نظراً لما تشهده المناطق المحتلة من بشاعة وفظائع. ولا أدري ما

اذا كان قراء هذا الكتاب يستطيعون الفصل بين جمال (دولة) اسرائيل ذات الاربعين سنة، وبين بشاعة (دولة) الاحتلال الاسرائيلية ذات الواحدة والعشرين سنة. ماذا أفعل اذا كانت البشاعة تغطي الجمال في نظري).

ليس لانه لا توجد لي حفيدات. توجد لي حفيدات فعلاً. إنني احبهن وأفخر بهن. ولكنني أيضا أفكر في مستقبلهن. إنني أفكر طويلاً طويلا. هاقد تجاوزت الستين من عمري. واصبح الماضي عندي ثلاثة اضعاف مستقبلي فما أهمية ما تبقى لي. غير أنهن في مستقبل العمر. لذا ماذا ينتظرهن؟.

في هذا الكتاب ، سأحاول شرح لماذا تبدو الدنيا سوداء في نظري، ولماذا تراودني الافكار السوداء بالنسبة للمستقبل والحاضر. ليس نتيجة لنظريات لا اساس لها، وليس نتيجة لنتائج انتخابات عام ١٩٨٨، إنما بسبب عناصر سأشير اليها واحللها واحداً واحداً، وأخرج باستنتاج هو أن كافة العناصر تؤدي الى نهاية (دولة) اسرائيل

ربما اكون مخطئا. أرجو ان اكون مخطئاً.

ولكن ماذا لو كنت غير مخطىء؟

ب ـ **بذات أيدينا** :

(الدولة) غير موجودة ـ ومن اكثر من ناحية. ـ ماذا يعني انها غير موجودة؟ فهاهي قائمة وحيّة! هذا هو، سيداتي وسادتي، ما تعتقدونه. هذا ما تتخيلونه.

قطار مسافر من نقطة (أ) الى نقطة (ب). الجسر الذي يمر القطار عليه في نقطة (ن) مقام على نهر عريض، إنهار تماماً. وإن احداً ما لا يعرف ما حدث للجسر، وما سيحدث للقطار خلال بضع ساعات اذا انطلق القطار فعلاً. لقد انطلق القطار. السؤال هنا: هل القطار موجود أم غير موجود؟ واذا كان غير موجود ـ منذ متى؟

النبي ، يرميـاهـو، تنبـأ ليهـودا الخراب والنفي، إذا لم يتصرف الشعب ورؤساؤه كما يجب، حسب مخطط مدروس موجود في ايدينا. لكن الشعب ورؤساءه لا يتصرفون حسب هذا المخطط. السؤال: هل يهودا موجودة أم لا؟ واذا كانت غير موجودة ـ منذ متى؟

لقد كتب هتلر وخطب، وبعد انتخابه رئيساً للحكومة الالمانية، أعلن على الملأ بأن اليهود ليس لهم حق في البقاء. اليهود في جميع بقاع العالم لم يردوا بما يتناسب وحجم التهديد. إحتل الجيش الالماني كل منطقة قارة اوروبا تقريباً. واصبح تحت سيطرته ما يزيد على (٦) ملايين يهودي. محاصرين، لا حول لهم ولا قوة، ينتظر، ينتـظر معظمهم مصيره. السؤال: هؤلاء اليهود موجودون أم لا؟ واذا كانوا غير موجودين ـ منذ متى؟

شخص يقفز من رأس برج. لا توجد شبكة وقاية في لحظة معينة، يصل اثناء هبوطه الى منتصف البرج. السؤال: هل هو موجود أم لا؟ واذا كان غير موجود ـ منذ متى؟

لقد قصدت إنهاء هذه السلسلة من المقارنات بفعل هذا المنتحر، لان هذا التعيس حظي بالطرفة المشهورة التالية: شخص عزم على الانتحار. قفز من رأس «إمبير ستيت بيلدنيغ»/ «مجدال هشلوم». وعندما وصل الى الطابق الاوسط، ينظر شخص ما من الشباك، ويرى فجأة هذا المنتحر وهو ساقط للأسفل ويسأل: هيه! ماذا يحدث؟ «في هذه الاثناء، كل شيء على ما يرام».

خيراً فعل الله ، مع شعبه المختار، إذ اعطاه طيلة تاريخه، هنا وهناك، «مراحل» حياتية متنوعة: «مرحلة» في اسرائيل، و«مرحلة» في يهودا، ومرحلة في بابل، ومرحلة

الهيكل الثاني. ومرحلة في اسبانيا، ومرحلة في اليمن، ومرحلة في اوروبا، ومرحلة في اسكندنافيا، وأخرى في امريكا.

يجب الاعتراف، بأن اليهود إستغلوا جيداً هذه المراحل في تاريخهم، غير انهم فعلوا احيـانـاً ما ينفعهم، واحياناً ما لا ينفعهم. وواضح ان لكل مرحلة نهاية، والنهايات لا تكون جميعها جيدة، وبخاصة في التاريخ اليهودي الحافل بالنقاط المسدودة.

سؤال: كم مرحلة بقيت لهم، لليهود ـ وبضمنهم الاسرائيليون؟ فيما تبقى لهم من تاريخ. هل هذا التاريخ غير محدود، أم أنه آخذ بالتناقص حتى يصل يوماً ما الى النهاية. وعندئذ لن تبقى هنالك «مرحلة» جديدة. وتكون النهاية الحتمية!

هنالك سؤال آخر لا يقل أهمية هو: ما هي العلاقة بين «المرحلة» وبين ما هو «قبل»، وما هو «بعد»؟.

أنا ، أقول : اذا كانت المرحلة «حصانا» (هذه طرفة اخرى) وما هو «قبل» وما هو «بعد» «دجاجة»، فليفرحوا. ولكن اذا كانت «المرحلة» «دجاجة» وما هو قبل وما هو بعد، «حصاناً»؟.

ولكن من الناحية التاريخية، ماذا نستطيع ان نفعل اذا كانت (دولة) اسرائيل هي عبارة عن إحدى الحلقات «المرحلية» من ضمن حلقات كثيرة يهودية؟ إذاً، ما نوع «المرحلة» التي تعيشها (دولة) اسرائيل الآن؟ في التاريخ اليهودي ـ مرحلة «حصان»، أم مرحلة «دجاجة»؟.

سواء كانت المرحلة «حصانا» أم «دجاجة»، هل هذه المرحلة فُرضت علينا أم اخترناها؟! هل هي مفروضة أم مشروطة بالظروف بما في ذلك ما نفعله نحن اليهود في هذه المرحلة؟! وكما يُقال: أحياناً، أعمالك تقرّبك، أو تبعدك.

اذا قلت ان «دولة اسرائيل غير موجودة». هل يجب عليّ ان اكرر ما قلته في ذكرى السنة الاربعين وهو أن دولة اسرائيل هي «مرحلة» يهودية «دجاجة»؟.

بالطبع لا. لكنني اقوله رغم ذلك. من أجل التكرار والتوضيح.

وكل ما في الأمر، ان هذا الكتاب يدل على أنني لا اكتفي بالحكم فقط. انما أريد أن أحلل واختبر وأميّز، وأشرح وربما استخلص استنتاجات. واريد ان أوضح بأن (دولة) اسرائيل غير موجودة، وان هذا الوضع محكوم فيه (للاسوأ) وكذلك وضع

مختار (للاسوأ) ايضاً، وليس فقط ان هاتين السلبيتين لا تناقضان بعضهما بعضا حتى ينتج عنهما حالة ايجابية، إنما تغذي وتعزز احداهما الأخرى (للاسوأ).

نشرع الآن في التحليل. نبدأ بالقريب وننهي بالبعيد ـ نبدأ بالاوضاع المختارة ومن ثم بالاوضاع المحكوم علينا فيها، أي «القدرية».

ولكن قبل ذلك، أود قول شيء ما: عندما أقول ان (دولة) اسرائيل ـ زائلة، لاكثر من سبب، اقرر بأن (دولة) اسرائيل هي ظاهرة «مرحلية» «دجاجة» ايضا، أي أن أيامها معدودة (أيامها هنا تعني سنوات)، وبنفس الوقت أقول أيضا أن (دولة) اسرائيل هذه، التي صلى من أجلها الاجداد الحالمون، والآباء المؤسسون، والابناء المقاتلون والمقتولون من أجل إقامتها، بصفتهم الجيل الاول للخلاص ـ غير موجودة.

هذا يعني أن (دولتي) اسرائيل غير موجودتين ـ (دولة) اسرائيل، ككيان يهودي مستقل ذو سيادة حقيقية، و(دولة) اسرائيل ككيان خيالي، وكنبوءة.

ولكن في حين أن الأولى، الحقيقية، لا تزال قائمة في وضع «مرحلة» توشك على الانتهاء (وفي هذه الحالة تعتبر الدولة غير موجودة، أو اذا اردتم في طريقها الى الزوال)، نجد أن الثانية، دولة الاحلام، المجردة، قد لفظت أنفاسها ولم يعد لها وجود.

لقد حكُم على (دولتي) اسرائيل بالحياة والموت، ولكن في حين أن (دولة) اسرائيل «الفكرة الخالصة» (شأنها شأن أي حلم أو فكرة، لم يكن بالامكان تحقيقها في الواقع، وسرعان ما أُنتزعت من الواقع، ولم يعد لها وجود، نجد وريثتها، «الدولة الحقيقية»، تسير بأقصى سرعة الى نهايتها، شأنها شأن ذلك القطار الذي ينطلق مسرعاً نحو الجسر المنهار ـ ترتدي لباس وحش مخيف، كما هو الحال في مسرحية «الدكتور جاكيل والسيد هايد»، بحيث تكون أحياناً السيد «هايد» اكثر منها الدكتور «جاكيل». أي تتضاءل باستمرار حتى أن كل من كان يذكرها في شبابها لم يعد يستطيع التعرّف عليها الآن لما فيها من عاهات جسمانية، وتشوهات في وجهها، لدرجة أن كل القدماء من أبنائها أو الغالبية العظمى منهم، قد يصحو أحدهم ذات صباح، يفرك عينيه مذهولاً ويسأل: هل هذه اسرائيل حقاً؟.

واضح أن شيئاً ما تشوش ـ كيف تقول داليا ربيكوفتش؟ «...نحن تجربة

لم تنجح، خطة شوشت» - ولكن أين بالضبط؟ ومتى بالضبط؟ وكيف بالضبط تشوش ما قد تشوش؟ ولماذا لم يُصلّح؟.

كما سبق أن قلت ، انني أميّز بين عناصر حكمها القدر وتقرير المصير، وبين عناصر مختارة (اختيارية)، بين اسباب مفهومة حكمت وتحكم سلفاً نهاية المشروع الصهيوني، وبين اسباب كانت ثمرة لظروف كان لزعماء اليهود دور في خلقها، ظروف نجمت عن قرارات بشرية أُتخذت على مرّ الايام. ليس دائماً يسهل علينا التمييز بين هؤلاء واولئك، لذلك يمكن ان تكون عملية التمييز والتشخيص قاسية.

صحيح أنه كلما ابتعد المرء زمنياً عن موعد قرار ما، سواء كان صحيحاً أم مخطوءاً، مصيرياً أم غير ذلك، يبدو أن هذا القرار، ينفصل عن دائرة ما هو إختياري، لينضم الى دائرة ما هو محكوم «قدريّ».

على الصعيد الشخصي، كما هو على الصعيد العام - القومي: القرار الذي أُتخذ اليوم أو أمس او أمس الاول، يبدو كثمرة اختيار حرّ لقرار من بين عدة بدائل، بحيث يستطيع الانسان القول ربما لو كانت الدراسة سطحية أكثر، أو عميقة اكثر، لكان القرار مختلفاً. لكن هذا لا ينطبق على القرار الذي أُتخذ منذ زمن بعيد أو طويل - مثل هذا القرار يبدو كقرار وحيد لم يكن بمقدور اصحابه اتخاذ قرار آخر غيره.

ذلك لان ذلك القرار نجمت عنه حقائق إندمجت مع الواقع، واصبحت جزءاً من «التاريخ». هناك من يقول أنه لا توجد ارادة حرّة في الحياة. كل شيء محكوم بحكم القدر. ولكن اذا كان كل شيء مقدّراً ومحكوماً سلفاً، فما حاجتنا الى النقاش والبحث والدراسة. ما هو طعم الحياة؟

لذلك أقول: توجد في الحياة الشخصية، وفي الحياة القومية، خيارات. توجد في هذه الحياة اجراءات أو خطوات، يمكن تعريفها بأنها صحيحة ومناسبة، وأخرى يمكن تعريفها بأنها خاطئة، مغلوطة، أو إجرامية. هنالك امور كثيرة يمكننا الاشارة اليها، والقول أنه كان بالامكان أن تكون غير ذلك. نبدأ لما أسلفنا، بالعناصر الاختيارية.

لقد قامت (دولة) اسرائيل من خلال الحرب التي تغلبت فيها على عرب «أرض اسرائيل» وعلى جيوش الدول العربية التي أرادت ابادتها والقضاء عليها.

ليست اسرائيل (الدولة) الوحيدة في العالم التي كانت يجب عليها خوض حرب وجودية من أجل ان تولد وان تبقى، لكنها (الدولة) الوحيدة في العالم، عالمنا اليوم، التي تحوّلت فيها الأقلية الى أغلبية، والاغلبية الى الى أقليّة، كنتيجة لتلك الحرب التي من خلالها وبفضلها قامت. لقد كان لفرحة وإنبهار الاقلية اليهودية من الانجاز المذهل نتيجة لانتصاره، وتحويله بين عشية وضحاها من اقلية الى أغلبية في دولته. الموسعّة (بالمقارنة مع المساحة التي خصصت لدولته في ارض اسرائيل من قبل الجمعية العامة للامم المتحدة في ٢٩ تشرين ثان ١٩٤٧، وشعوره العميق بعدالة طريقــه نتيجــة لموافقته على تقسيم (ارض اسرائيل) في ضوء رفض العرب قرار التقسيم). وللثمن الباهظ، (٦٠٠٠) قتيل، الذي دفعه في حرب وجودية، حياة أو موت، كان لكل ذلك تأثير نفساني كبير، أدى الى إبهار عيون الغالبية العظمى من يهود (دولة) اسرائيل لدرجة عدم قدرتهم على رؤية وفهم وادراك ما يفكر به اولئك المهزومون المسحوقون.

كانت النظرة للعرب، للفلسطينيين وغيرهم، داخل حدود (الدولة) وخارجها، باعتبــارهم أقــل مرتبــة من بني الانسان. نظرة الى بدائيين، ليس لهم حضارة، تنقصهم المشاعر القومية والوطنية، وليس لهم تاريخ ـ جماعي، واذا كانوا يفهمون لغة ما، فهي «لغة القوة». لقد احتجنا لوقت طويل، حتى أدرك الاسرائيليون ـ لا، لا، ليس جميعهم: لان هناك قسما كبيرا منهم لا يزال يعيش في عصر الجهل ـ بأن العربي انسان مثلهم، خلقه الله، وله عقل ومشاعر، وأماني شخصية وطموحات قومية شأنه شأن أي إنسان آخر، وله أيضاً ذاكرة متطورة التي بفضلها يتذكر الفلسطيني ما كان في وطنه قبل (٤٠) سنة ليس أقل مما يتذكره اليهودي بشأن ما كان في هذه (البلاد) قبل (٢٠٠٠) سنة.

كما أن اسرائيل هي الوحيدة في العالم، التي وجدت نفسها بعد قيامها محاطة برياً بدول معادية فقط، التي رغم انها غُلبت في الحرب، إلا انها لم تُهزم. وبطبيعة الأمــر، نمّى مواطنــوها وزعماؤها العرب مشاعر الانتقام التي من شأنها الحث باستمرار على خوض حرب جديدة مع اسرائيل.

أضف الى ذلك أن عملية تحويل الاقلية الى اغلبية.، والاغلبية الى أقلية في المنطقة التي قامت فيها (دولة) اسرائيل، برزت في ظاهرة الهجرة العربية «اللاجئين

العرب». لست معنياً هنا بالاجابة على السؤال كم من العرب ابناء الاغلبية هربوا من ديارهم خلال الحرب؟ وكم منهم أُرغموا على الهرب؟. المهم أن (٦٥٠ر٠٠٠) عربي غادروا بيوتهم التي أصبحت لغيرهم بعد رحيلهم وهم يقيمون الآن في اماكن أخرى. وعلى أية حال، جميعهم يطمحون ويسعون للعودة الى منازلهم. ان الاسرائيلي العادي الذي يسافر في أيامنا هذه في انحاء (بلاده)، لا يشاهد نهائيا خرائب قرى عربية كانت قائمة حتى حرب ١٩٤٨.

لقد هُدمت تلك القرى وشُطبت نهائياً، وان من «يعرف» فقط هو الذي يستطيع الاشارة الى أماكن تلك القرى، ربما لوجود سلسلة حجارة، أو صف من شجيرات العنب، او الصبر. غير ان ذلك لا يعني ان ذكريات هذه القرى قد مُحيت من قلوب سكانها، كما يمكن أن يعتقد ذلك الجاهل الاسرائيلي في هذه الايام.

على خلفية الانتصار من جهة، والهزيمة والهجرة من جهة أخرى، وجروح حرب وجـوديـة من جهـة، وعدم التسليم القوي من جانب العرب بوجود (دولة) اسرائيل، يتردد السؤال التالي: ما هي التوقعات؟! ماذا بالنسبة للغد؟! أهي حرب جديدة يبادر بها المهزومون بهدف رد الاعتبار واعادة اللاجئين الى اماكنهم، واعادة صفة الاغلبية لاصحابها، والقضاء على دولة اسرائيل، التي تشكل إسفينا في الارض العربية؟ أم سيأتي اليوم، (غداً أو بعد غد)، الذي يسلّم العرب فيه بهذا الوضع الذي نشأ نتيجة للادراك بأن هذا هو الواقع، وانه لا يمكن ان يكون غير ذلك ولا يمكن تغييره - في ضوء قبول اسرائيل في الاسرة الدولية؟.

وماذا من جانب اسرائيل الفتية، التي تلعق جراحها، المهددة - هل تتفهم الازمة النفسية، الشخصية والقومية التي أصابت الفلسطينيين، مع أنهم مسؤولون عنها هم وحدهم؟ وهل تدرك ان العرب غُلبوا لكنهم لم يُهزموا؟ وماذا يترتب على مثل هذا الفهم: محاولات للتوصل الى سلام معهم، أو مبادرات حل وسط لتخفيف حدة الكـراهيـة والعـداء العربيين، واضعاف غريزة الانتقام لديهم - أم التلويح بالسيوف والتحذير والردع واستخدام القوة للتذكير دائماً بمن هو الأعلى هنا، ومن هو الأسفل؟ وبدقة اكثر أقول: في حالة خروج أحد طرفي النزاع سواء العربي أو اليهودي، منتصراً أو مغلوباً في الحرب القادمة، هناك جانب واحد يمكن أن يكون مهزوماً، وهو الجانب اليهودي، ذلك لان العرب لا يمكن هزيمتهم، ولا يمكن إبادتهم،

بفضل كثرة عددهم وإتساع المساحات الارضية التي يتمتعون بها. وهذه معلومة ثابتة ودائمة، لا يمكننا تجاهلها أبداً. اذاً والحالة هكذا، من هو الجانب الأكثر حاجة للاوضاع الهادئة والوقت الجميل الذي يسمح له بالبناء والتطوّر الاقتصادي والاجتماعي والتربوي؟ ومن هو الجانب الذي قد يخسر اكثر في حالات عدم الهدوء وعدم ثبات الوضع الراهن على ما هو عليه أو من وضع الحروب؟.

لا شك بأنه سواء كان العرب يخططون لحرب أخرى مع اسرائيل، في اعقاب حرب ١٩٤٨، أم لا، كانوا هم، وليس اليهود، الأقل حاجة الى السلام (هذا اذا كانوا بحاجة الى السلام)، ولا زالوا أقل حاجة الى السلام من اسرائيل. انهم العرب، وليس اليهود، استطاعوا ويستطيعون المغامرة بالتهديد بالحرب، وتحمّل خسائر اكثر ودماراً أكثر، حتى انهم يستطعون تحمل احتلال اراض من اراضيهم.

علاوة على ذلك ، في عام ١٩٤٩، وعلى الرغم من انتصار اسرائيل عليهم، لم يكن العرب هم الذين عاشوا في حصار حقيقي ونفساني، بل اسرائيل.

اسرائيل الصغيرة، المحاصرة، قليلة السكان والموارد، خاوية الخزنة، التي تستوعب اعداداً كبيرة من المهاجرين الجدد، والتي تضاعف عدد سكانها اليهود في غضون سنوات معدودة، كان باستطاعتها التطوّر بشكل آخر أفضل، لو كان توجهها نحو الهدوء والسلام، لكنها رأت انه يجب عليها توظيف أفضل ما لديها من موارد وطاقات لاحتياجاتها الأمنية.

لذلك ، كانت (دولة) اسرائيل تواجه منذ ولادتها سؤالاً جوهرياً ومصيرياً: ما هو متوقع غداً؟ ما هي التوجهات؟ نحو وضع حصار دائم، أو عداء عربي أبدي، أو تهديد دائم بالحرب الذي يتحقق بين الحين والآخر، أو ضرورة عليا لضمان عدم الهزيمة لان هزيمة اسرائيل تعني خراب الهيكل الثالث، أم نحو وضع هادىء، وضع مصالحة وتسويات، وضع تعايش سلمي.

إن السؤال الذي ليس من السهل الاجابة عليه هو هل فكّر الزعماء الاسرائيليون في نهاية حرب ١٩٤٨/١٩٤٩ بهذين البديلين السياسيين ـ الأمنيين اللذين وردا أعلاه، أم لم يكن لديهم الخيار آنذاك؟

إنني أقول: انهم واجهوا وضعاً كانت لديهم البدائل ولم يكونوا في وضع لا خيار لهم فيه.

صحيح أن السلام لم يكن آنذاك قريب، وراء الجدار، لكنه لم يكن بعيد المنال ايضاً. كان السلام امكانية مستقبلية، ليس قريباً، لكنه كان جديراً بالدراسة والاخذ بعين الاعتبار وفي الحسبان في أية قرار سياسي - أمني كان من شأنه تقريب هذه الامكانية (السلام) أو إبعادها.

عندما يكون الموضوع موضوع نزاع ثنائي، يتصرف فيه كل طرف، على الأقل، حسب تقديراته لخطوات خصمه، تتكون وتنفذ إعتبارات متبادلة وردود متبادلة. إن أياً من الجانبين لا يعمل في فراغ، وكأنه هو وحده الموجود ولا أحد غيره.

لنفترض ، كما يقول أحد زعماء اسرائيل من هذا الجيل: المقصود «حرب مائة عام» بين اسرائيل والعرب - قليلاً من الصبر، ان المائة سنة كفيلة بأن تجعل السلام يأتي كالمن من السماء».

يحق لنا ويجب ان نسأل: مائة - منذ متى؟ بدءاً من تاريخ محدد إختاره هذا النبي ذو القدرة على الصبر مائة عام، أم بدءاً من اليوم الذي نستطيع فيه أن نعد مائة عام الواحد تلو الآخر بهدوء، بعيداً عن الحروب والتهديدات، بدون ان نحتاج الى البدء بعدها من جديد مرة تلو الأخرى في اعقاب كل حادث عنيف يكـون من شأنــه تجديد وإحياء مشاعر العداء ويزيد من حدة التوتر الى نقطة تستوجب إعادة العدّ من جديد؟

كان للتصرف الاسرائيلي نتيجة للاختيار بين التوجه الى الحرب، وبين البديل الآخر، التوجه الى السلام، ولا زال، تأثير شديد على تصرفات وسلوك الطرف الثاني.

كذلك الطرف الآخر، أي طرف آخر، يوجد فيه المعتدلون والمتطرفون، وهناك من هم بين هذين القطبين، لذلك دائماً يجب أن نسأل: أي من هذه المعسكرات نحن معنيّون بتقويته؟

نود هنا طرح السؤال التالي: ما الفائدة من السعي الى اقامة (دولة) اليهود، وتأسيسها والغاية من وجودها! هل نسعى لاقامة (دولة) تعيش في حصار «مائة عام متجددة»، (دولة) تعيش في نزاع عسكري دائم، (دولة) مهددة دائماً بالحرب تلو الأخرى - لان كل حرب لم تهزم اسرائيل فيها، اي تنتصر وتبقى، ولا تهزم الطرف الثاني، ستحمل وتلد الحرب القادمة، وتستلزم العدّ من جديد «مائة عام» - كان يبتهل الروّاد والمؤسسون؟

لنفترض للحظة، بأن قيام (اسرائيل ـ إسبارطة) ممكن بشكل عام طيلة مائة عام. ألا يعني هذا ان وجود (اسرائيل ـ أثينا) سيشطب من جدول أعمال التاريخ؟

اذا كان الأمر كذلك، ويبدو أنه هكذا فعلاً ـ على أية حال لديّ قناعة بذلك ـ ندرك ان دولة اسرائيل المنشودة، تلك التي من أجلها بُذل الكثير من العرق والدم والدموع ـ ليست موجودة (ولن تكون الى الأبد). إذاً ماذا يوجد؟!.

يوجد مخلوق بشع فظيع مسلّح من رأسه حتى أخمص قدميه، من العصى وحتى القنبلة النووية، يُدعى اسرائيل.

إنتبهوا الى من تجتذبهم وكم تجتذب اليها هذه (الدولة) الفظيعة من بين اليهـود وغير اليهود، وانتبهوا الى من ترفضهم من بين اليهود وغير اليهود، والى الاعداد التي تقذفهم من داخلها.

إنتبهوا هـي تشبه مَن، ولا تخافوا عندما ترون صوركم في المرآة!

هيّـا نعـود الى موضوعنا الرئيس، الى الموقف الذي كان يجب على زعماء اسرائيل اتخاذه تجاه العرب المغلوبين، غير المهزومين، الذين تلقوا صدمة لكنهم لم يفقدوا ذاكرتهم وعقلهم، في ضوء وجود بديل للاحرب أو امكانية التقدم نحو السلام، لنجد أنه كان موقفاً سلبياً في جوهره تجاه العرب، وانه قد حُدد من خلال المعرفة والتوجه الى البديل الاول بديل الحرب. لقد أُطلقت التصريحات صباح مساء بأن الحرب لا بد آتية، اسرائيل جزيرة محاصرة، اسرائيل قلعة ديمقراطية في الشرق الدكتاتوري، حصن غربي في العالم الاسلامي، وثروة استراتيجية مقابل التغلغل السوفياتي في المنطقة الحيوية بالنسبة للغرب. لم يكن توجه الزعماء الاسرائيليين نحو الحق والتسويات ونزع السلاح من المسدس وحتى التسليم مع العالم المحيط باسرائيل. بعبارة أخرى، كان التوجه الاسرائيلي نحو التصلب، نحو تعليم الطرف الثاني (العربي) درسا كي لا يرفع رأسه، وعلى هذه الخلفية تطوّرت نظرية الانتقام ـ العين بالعين، وعينان مقابل عين واحدة.

مقابل تحدي التسلل من خارج الحدود بهدف السرقة ومن ثم تنفيذ عمليات قتـل وتخريب، الذي نشأ في اعقاب انتهاء حرب ١٩٤٨، لم تتبن اسرائيل طرقاً وأساليب دفاعية لمواجهة هذا التحدي (مثل اقامة سياج أمني) بل تبنت اسلوب الارهـاب المضـاد، انتقـائي وغـير انتقائي، وبلورت نظرية «تعليم العرب درساً»

و«التحدث معهم باللغة الوحيدة التي يفهمونها» ـ نظرية القوة التوسعية التي اعتمدت أيضا على تنمية غريزة الانتقام البدائية. لقد صيغت ونفذت تلك السياسة على المستوى الميداني من قبل مجموعة من الاشقياء ضيقي الافق المتعطشين للدماء الذين تم تجميعهم من هنا وهناك ليعملوا في اطار وحدة ارهابية عُرفت باسم «الوحدة/١٠١».

أورد هنا فقرة واحدة فقط مما قاله ارئييل شارون في كتاب «القدوة والعمل» تأليف الدكتور ميخائيل بارزوهر صدر عام ١٩٨٨:

«لم يكتف المظليون بتنفيذ العمليات. كان للمظليين في تلك الايام اليد الطولى في تحديد الاهداف وفي سرعة تنفيذ العمليات. كانوا يقترحون الاهداف ويحثون على تنفيذ العمليات ضدها. يمكننا القول ان ايديولوجية عمليات الانتقام تبلورت الى درجة كبيرة في وحدة المظليين».

مهم! مهم جدا لدرجة انه ليس بالامكان عدم سرد قول آخر في هذا الموضوع:

يقول موشه شريت، رئيس الحكومة ووزير الخارجية في مذكراته اليومية يوم ١٩٥٥/٣/١٣ ما يلي:

«كان موضوع وحدة المظليين والروح المسيطرة فيها، مدار بحث بيني وبين بن غوريون. في سنوات الثلاثينات كنا قد أوقفنا غرائز الانتقام وعلّمنا الجمهور في (البلاد) عامة وفي أوساط رجال الهاغاناه خاصة، ان يروا بالانتقام مجرد عملية استفزاز مرفوضة. وفي المقابل، نبرر في هذه الايام، استخدام اسلوب الرد بالانتقام انطلاقا من اعتبارات هادفة، ولكن دون انتباه أو قصد منا أزلنا الكوابح والضوابط النفسية والاخلاقية عن هذه الغريزة (غريزة الانتقام) الموجودة في طبيعة النفس البشريـة، وبـذلك سمحنـا لكتيبة المظليين بأن تجعل من موضوع الانتقام مبدأ اخلاقيا. تلك الوحدة التي أصبحت أداة الانتقام الجماعية للدولة، لدرجة انه عندما كانوا يُمنعون من تنفيذ عملية انتقامية يغضبون ويتذمرون ويحملون على السلطة المدنية».

هل توجد ضرورة للقول من انتصر ومن غُلب في المعركة الثنائية على نفسية وروح الشباب، وعلى شخصية الجيش الاسرائيلي، مَن هزم ومَن انهزم، مَن هو هنا الدكتور جاكيل، ومن هو السيد هايد؟

أضف الى ذلك أنه بما أن ما هو متوقع كان ليس هدوءا أو اعتدالاً، إنما الحرب، أصبح موضوع الأمن «بقرة مقدسة»، وكانت في هذه الحالة يد وزارة الدفاع والجيش هي العليا، وليست يد وزارة الخارجية التي كانت طبيعة عملها واتصالاتها تفرض عليها الاعتدال. لم يجد نفعا ما توصلت اليه طواقم البحث والدراسة في وزارة الخارجية الاسرائيلية عندما أوصت في الخمسينات بأنه من خلال دراسة ميدانية وموضوعية لنتائج عمليات الانتقام الاسرائيلية، ثبت بأن هذه العمليات لا تردع العرب عن عمليات التسلل و(التخريب) بل تزيدها. كانت تلك التوصية كصوت انطلق في صحراء الفكر الامني الاسرائيلي.

لدينا الآن احدى المعاضل الاساسية للتكوين الاسرائيلي: ما هو الافضل لخدمة وجود اسرائيل وامنها ومستقبلها ـ الرد بأسلوب العين بالعين (أو عينين مقابل عين) على أي عملية عربية، أم الرد المبالغ فيه؟

يمكننا الادعاء بأن المبالغة من شأنها تعزيز مباهاة الخصم لأنها تفسر كعلامة ضعف. وبناء على ذلك يمكننا القول انه بالنسبة للعنصر الاسرائيلي الاقل عددا، توجد له مصلحة عليا ليجنب نفسه الخسائر البشرية، لأن سلسلة العمليات والرد عليها من شأنها تكبيد اسرائيل خسائر بشرية كثيرة، الامر الذي يخدم مصلحة الخصم الاكثر عددا على المدى البعيد.

في الحقيقة، إذا حاولنا وضع فرضية جريئة وقلنا ان لكل عربي يُقتل في عملية انتقام اسرائيلية، يوجد أب، وأم، وأخ أو اثنان، على الاقل، يسهل علينا القول ان واحدا من هؤلاء سينهض للاخذ بثأر القتيل ويطلب دم يهودي. كما ان مقتل كل عربي يزيد من مشاعر الانتقام والكراهية التي قد تعقبها أعمال انتقامية ضد اسرائيل وهكذا. لذلك اذا حاولنا خلق توازن في هذا المجال بمقارنة عددية مع الدول العربية المعادية لاسرائيل، يجب ان نقتل مقابل كل يهودي (٢٠) عربيا. وهذا يعني ان مقتل (٢٠) عربيا سيخلق (٦٠) منتقما يطلب الثأر، على الاقل. واذا قتل كل واحد منهم يهوديا واحدا فقط، يستوجب الامر من الاسرائيليين قتل (١٢٠٠) عربي، الامر الذي لا بد ان يؤدي بنا الى حرب جديدة، واعادة العدّ من جديد «مائة عام».

سادتي، لا تصرخوا، «بأنهم هم الذين بدأوا وليس نحن» ولذا فهم يتحملون المسؤولية. ما العمل، لكن نحن الذين بدأنا. نحن الذين جئنا الى بلاد ليست خالية.

نحن الذين خرقنا الوضع الراهن. نحن الذين خلقنا التهديد ضد الاغلبية. هذا ما يجب ان نفهمه وندركه. لا يكفي ان نكون صادقين أو عادلين في نظرنا نحن. فالجانب الآخر يحق له الادعاء بعدالة وصدق موقفه. وماذا يحدث عندما يصطدم اثنان كل منهما يدعي صدق ادعائه؟

يبدأ النزاع، وتندلع اعمال العنف، عندئذ تبدأ حسابات القوة. بعد ذلك لا يُعرف مـن كان البادىء بهذه الاعمال. (ناهيك عن القول أن العرب سكان هذه البلاد يعتبرون دخول اليهود اليها وغزوهم في عقر دارهم، صورة من صور العنف، بغض النظر عن ما لبسته من أقنعة، انقاذ شعب وأرض وغير ذلك).

السؤال هو لمن توجد قدرة أكثر على امتصاص الضربات وتحمّل الخسائر على محور الزمن، ولمن مصلحة أكثر في منع سفك الدماء.

هناك حقيقة تاريخية هي أن جزءا كبيرا جدا من اعمال العنف العربية كانت تأتي ردا على اعمال عدائية يهودية. نورد هنا نموذجين فقط: (المذبحة في مصافي التكرير، جاءت بعد عملية منظمة ايتسل ضد العمال العرب هناك، ومذبحة دير ياسين، جاءت قبل مذبحة كفارعصيون). انني اطلب من اولئك الذين لا يميلون الى الاقتنـاع بأقـوالي هذه، التفكير بالسؤال التالي: هل وضعنا اليوم، في أواخر ١٩٨٨، بعد كل تلك العمليات الانتقامية التي نفذها اليهود ضد الاغراب، وبعد العمليات التي نفذها اليهود ضد العرب في وحدة (١٠١)، هو مضمون اكثر ام اقل؟ هل نحن نتمتع بهدوء اكثر أم أقل؟ هل نحن خائفون وقلقون أكثر أم أقل، نتحدث عن حرب محتملة أكثر أم أقل، نشعر بالمشكلة السكانية اليهودية ـ العربية أكثر أم أقل؟

قولوا، لم يحدث شيء، لأن العمليات الانتقامية في النصف الاول من عقد الخمسينـات لم يكن هدفهـا الردع أو المنع أو حتى الانتقام، بل كانت غايتها الحقيقية غير ذلك، كانت هدفا مزدوجا: لتشجيع سكان المستوطنات المضروبة كي لا يهجروها وينتقلوا الى تل ابيب، واكثر من ذلك لتصعيد النزاع من اجل التمهيد في (البلاد) وفي العالم للحرب القادمة، التي ستبادر اسرائيل بها؟

اذا كان الامر كذلك، يتأكد الادعاء بأن وجهة حكومات اسرائيل لم تكن نحو السلام ـ وهنا نسأل من مُنح صلاحية فرض مثل هذه السياسة على مواطني هذه

البلاد بدون أخذ رأيهم؟ غير أنه ليس أن موضوع الامن اصبح «بقرة مقدسة» نُفذت باسمها جميع الاعمال الاجرامية والمصيرية، ولفظ انفاسهم اشخاص على جانبي الحدود بدون مقابل، بل بدأت في الجهاز الامني بالذات مسيرة سرية أو علنية أوصلت مؤيـدي القبضة الحديدية (بدءا بيغئال يدين ومردخاي مكليف، وحتى رفائيل ايتان ودان شومرون).

اذاً منهم اولئـك الذين لديهم الفـرص الجيدة للتقدم والترقية في صفوف الجيش، اذا لم يكونوا اولئك الذين يملؤهم الحقد والشوق لاستخدام العنف كوسيلة وحيدة مثلى لحل مشاكل الامن. اولئك الذين لديهم غرائز الخراب والتدمير وسفك الدماء، يجدون في قيادة الوحدات المقاتلة ما يفرغ شحنات حقدهم وهمجيتهم في ميدان المعركة. هؤلاء هم فقط الذين يتقدمون في سلك الجيش حتى يصلوا الى المناصب العالية التي يكون لها نفوذ سياسي، وهذه المسيرة تنجم لا شك عن سياسة التوجه نحو الحرب.

في ضوء هذا الوضع، ألا يجدر بناء الاستغراب والدهشة عندما نرى أن الكثيرين من اولئك المحترفين في القتال والتدمير والقتل المنفلتين من كل الضوابط النفسانية والاخلاقية، يتراكضون ويتسابقون بعد خروجهم من الجيش لسبب ما، ليتسلقوا السلم السياسي ويصلوا الى قمته؟

ومثل اولئك رجال الجيش الذين يعرفون كيف يحلّون النزاعات الدولية على مختلف انـواعهـا الخبـراء في استخـدام اسلوب الضربـة القـاضية الحديدية، المتعـطشون لسفك الدماء والسكارى بالقوة المتوفرة لديهم، الذين يعرفون كيف يضللون القيادة السياسية في (الدولة)، موجودون بكثرة في صفوف الجيش والشعب الاسرائيليين.

ان افعالهم مبعثرة على طول تاريخ (الدولة) بدءا بمذابح سعسع في حرب ١٩٤٨ ومرورا بمذبحة قبية في عام ١٩٥٣، وكفرقاسم في ١٩٥٦، وانتهاء بقتل اثنين او ثلاثة من العرب يوميا في مناطق الانتفاضة، ولا يزال الحبل على الجرار، كي لا يبقى منهم احد.

لكنني لا أريد التحدث هنا فقط عن المذابح، إنما عن عمليات عسكرية ذات مغزى سياسي. وهكذا في سلسلة الاعمال الانتقامية جاء دور «عملية غزة» (عملية

السهم الاسود) في ٢٨ شباط ١٩٥٥ التي بدأت بتضليل الزعامة السياسية التي انتخبها الشعب، وانتهت بحث الرئيس المصري آنذاك جمال عبدالناصر على عقد صفقة الاسلحة التشيكية - المصرية (السوفياتية) التي كانت احد اسباب حرب ١٩٥٦. وهكذا ايضا نُسجت عملية الاجرام الدولية المقيتة والغبية،قضية لافون، داخل أروقة وزارة الدفاع ورئاسة هيئة الاركان العامة للجيش الاسرائيلي، بدون علم رئيس الحكومة انذاك موشه شريت، وظاهريا بدون علم رئيس الاركان آنذاك موشه ديان، الذي لم يعلم، ولم ير، ولم يسمع.

هنالك سؤال لا زال قائما بهذا الشأن هو: ما الذي عرفه وما الذي لم يعرفه دافيد بن غوريون بشأن هذه الخطط التي رسمها خليفته في وزارة الدفاع بنحاس لافون؟ على اية حال ما هو المناخ الذي تمت فيه خطط الاستفزاز الاسرائيلية داخل مصر الناصرية في بداية طريقها، اذا لم يكن المناخ البنغوريوني؟

وهكذا، في نفس ذلك المناخ الفكري نضجت ايضا المؤامرة الفرنسية - البريطانية - الاسرائيلية لاسقاط جمال عبدالناصر عن كرسي الرئاسة، ومنعه من تأميم قناة السويس المشروع. أبعد كل هذا، يجب أن نستغرب فضائح حرب لبنان؟

بالطبع، اذا كان توجه اسرائيل نحو الحرب الى الابد، وعدم التوصل الى تسوية أو سلام مع العالم العربي الذي يحيط بها من ثلاث جهات الى ابد الآبدين، لا بد لها عندئذ من البحث عن حلفاء اعداء للعالم العربي.

وهكذا سقط كبير ساسة اسرائيل، دافيد بن غوريون، في الفخ الذي نصبته فرنسا لرئيس هيئة الاركان العامة موشه ديان، ولمدير عام وزارة الدفاع شمعون بيرس، اللذين قاداه من أنفه الى حرب ١٩٥٦، تلك الحرب الاجرامية «الحرب المختارة» الأولى التي خاضتها اسرائيل بعد ست سنوات فقط من قيامها، تلك الحرب التي رغم تسميتها «حربا وقائية» لم تمنع أية حرب قيل ان العرب يخططون لها ضد اسرائيل، بل بالعكس، أدت الى نشوب حرب ١٩٦٧، التي أدت بدورها الى حرب ١٩٧٣،والتي أدت هذه الأخرى الى حرب لبنان في ١٩٨٢ - ولا زال السيف مرفوعا.

لقد أثبتت تلك الحرب ١٩٥٦ للعرب جميعهم، وليس لمصر فقط، بأن اسرائيل تتبع نفسها للغرب، وللغرب الاستعماري، وانها هي نفسها ترى بنفسها غرسة غريبة في الشرق الاوسط، توجهها ليس نحو الدول العربية المجاورة لها، بل ضدها - مع

كل خصم محتمل للعرب.

ثانيا، أثبتت تلك الحرب أن اسرائيل ترى أن حل مشاكلها الوجودية التي تتعلق ببقائها، لا يكمن في التوصل الى تفاهم مع القوى الاقليمية المحلية، بل بابرام الاحلاف العسكرية مع قوى أجنبية، ولا في التوصل الى تسويات مع خصومها في الشرق الاوسـط، بل بتحقيق التفـوق العسكري عليهم وباستخدام هذا التفوق لاخضاعهم بالقوة.

ثالثا: اثبتت هذه الحرب للعرب جميعا ان لاسرائيل اهدافا توسعية، (عندما أعادت اسرائيل سيناء وقطاع غزة للمصريين، وصف مؤيدو بن غوريون هذه الخطوة بأنها من فعل سياسي بعيد النظر (بن غوريون) الذي امتنع عن الاحتفاظ بأراض محتلة - وكأن اسرائيل أعادت تلك الاراضي عن طيب خاطر، وليس رغم أنفها نتيجة لضغوط الدولتين العظميين. وهنا يأتي السؤال: اذا كان بن غوريون سياسيا بعيد النظر، لماذا، ومن أجل ماذا، أعلن بعد احتلال سيناء عن اقامة مملكة اسرائيل الثالثة؟).

لا شك في انه اذا كان هنالك شخص ما يمكننا اتهامه بوضع اسرائيل على طريق اللاسلام او الحرب الى الابد مع جيرانها، سيكون دافيد بن غوريون، رئيس الحكومة ووزير الدفاع في (دولة) اسرائيل، الذي لم يتوان عن الاعلام باستمرار على الملأ بأنه على استعداد للقاء جمال عبدالناصر في أي وقت وفي اي مكان ليبحث معه موضوع السلام، لكنه كان عمليا يفعل العكس تماما، وشن الحرب الاختيارية في ١٩٥٦ ضد مصر الناصرية ومنح الشرعية لاحتلال الاراضي المصرية وضمها الى اسرائيل، اضافة الى الخطيئة التي ارتكبها بتعاونه مع فرنسا التي بادرت بالعملية لاعتبارات استعمارية شمال افريقية، ومع بريطانيا التي ارادت ان تعيد بدم الجنود الاسرائيليين جوهرة السويس الساقطة، الى التاج البريطاني.

ماذا كانت نظرة هذا الزعيم الكبير (بن غوريون) بالنسبة لقيام وبقاء (دولة) اسرائيل، (كدولة) نور لليهود ولغيرهم، دولة أثينا؟

كانت نظرته تتلخص في القوة، القوة فقط، أي من أجل إنشاء وإدامة دولة أثينا، يجب أن تتحول اسرائيل الى دولة اسبارطة، دولة عسكرية محاربة، لا ينفصل اصبعها عن الزناد، ويدها دائما تمسك بقبضة السيف، لأن حياتها على حد السيف

(لذلك ظل بن غوريون يرتدي دائما ملابس الخاكي حتى في جلسات الكنيست).

علاوة على كل ما سلف أدت الحرب الى تغذية الجيش والشعب كله بحب القوة وسفك الدماء، بدون الأخذ في الحسبان ان الحرب تولد حربا جديدة مع جباية ثمن باهظ جديد الى درجة تجعل هذه السلسلة من الحروب تصل في النهاية الى ارغام اسرائيل على دفع ثمن باهظ يفوق بكثير طاقة اسرائيل الصغيرة على دفعه. ناهيك عن الحديث عن الفكرة الفاشية بشأن توحيد الشعب عن طريق سفك دمه ودم الآخرين. وهكذا قُدّمت اسرائيل قربانا لاله القوة والأمن: نمت في الشعب - وبخاصة الجيش - غرائز الاحتلال والتوسع الاقليمي. وتعززت مكانة الجيش الى درجة جعلت منه المنظمة القادرة على فعل كل شيء، في حين أن اصحاب المدرسة المعتدلة التي تسعى الى تحقيق السلام وليس الحرب، ضُربوا وأُبعدوا عن المستوى السياسي الكبير حتى يومنا هذا.

لقد برز هذا التوجه بشكل جيد في إبعاد أول وزير خارجية (لدولة) اسرائيل موشه شريت من الحكومة بصورة دكتاتورية من جانب دافيد بن غوريون عندما قال - «إما أنا أو هو» - ، ولا يعنينا هنا الجانب الشخصي في الأمر، بل الجانب السياسي - التاريخي. لقد أبعد بن غوريون موشه شريت من الحكومة الاسرائيلية، وبإجرائه هذا أبعد في الواقع العنصر المعتدل والمتزن والمراقب، من المستوى السياسي الى الابد، إذ من تلك اللحظة - حتى لو لم يعترف بذلك في البداية - بدأت اسرائيل تتدهور في المنحدر السياسي اليميني - تلك المسيرة التي أدت مع مرور السنوات الى نقل دفة الحكم من حركة العمل الاسرائيلية الى اليمين السياسي، ومن يد الاشتراكي دافيد بن غوريون وخلفائه، ليفي اشكول (الذي احتل المناطق وصاحب فكرة الاستيطان والضم)، وغولدا مئير (صاحبة التقصير في حرب ١٩٧٣)، واسحق رابين (الذي أصبح جنديا لعبة بأيدي شامير وبيرس في المناطق المحتلة، وصاحب فكرة الترحيل الصغير، «الابعاد»)، الى أيدي الارهابي مناحيم بيغن (زعيم منظمة ايتسل الارهابية) ومن ثم الى أيدي السطحي وضيق الافق الارهابي، اسحق شامير (زعيم منظمة ليحي الارهابية).

عندما شنت اسرائيل حرب ١٩٥٦، وضعت نفسها، في الواقع، على طريق القوة وأوضحت بذلك لجيرانها بأنها تبنت اللعبة التي تكون فيها ورقة الانتصار

العسكري دائما في يدها.

وعلاوة على ذلك، اوضحت اسرائيل بأنها من الآن فصاعدا، كلما شعرت وقدّرت بأن هجوما عربيا يهددها، ستقوم بإجراء عسكري وقائي تخضع فيه الخصم أو الخصوم، لكي تهدأ المنطقة لبضع سنوات قادمة - وهكذا.

هل هنالك مغامرة مصيرية كهذه؟ هل يوجد استفزاز وتحدٍ تاريخي اجرامي، غبي، اكثر من هذا؟ هل هناك حالة عدم مسؤولية أكبر من هذه بشأن مصير شعب بأكمله، من الطفل الرضيع حتى الشيخ المسن، في اسرائيل؟

هل يمكن ان نتخيل ان صمود هذا الشعب الصغير والممزق، الى الابد نفسانيا وعمليا، اجتماعيا واقتصاديا، في وجه متطلبات وضغوطات الحروب الوقائية المتكررة، بكل ما يتعلق فيها من ضريبة الدم، وتشويه السمعة، وتسميم العلاقات الدولية؟

هل نستطيع ان نتخيل بأن العرب في ضوء ما لديهم من تفوق في العدد والمساحات والموارد، الذي يعني قدرة كبيرة على امتصاص الضربات وتحمل الخسائر اكثر من الاسرائيليين - وبخاصة فيما يتعلق بالحروب طويلة الامد - لن يصحوا ذات يوم ويقوموا بنفس المغامرة الاسرائيلية، ولتكن خسائرهم مهما تكن عندئذ؟

ان الجريمة تجر الجريمة، فمن اجل المحافظة على روح المغامرة وضمان الامساك بورقة النصر، او من خلال عدم الثقة في قدرة اسرائيل على الخروج منتصرة في اية حرب قادمة على مدى الاجيال، توجه بن غوريون مرة ثانية، وبدون ان يسأل عن رأي الحكومة، او الكنيست او الشعب، الى تطوير السلاح الديموني (السلاح النووي، نسبة الى ديموناه).

ان هذا التوجه، كلف الاموال، بالطبع، هنا يمكننا السؤال، لو ان اسرائيل استثمرت هذه الاموال الطائلة في اشكال متنوعة من مجالات التقدم لسكانها، وفي استيعاب المهاجرين، وفي رفع مستوى المعيشة ونوعية الحياة في القرى النامية، وفي التعليم وتحصين البنية الاقتصادية والصناعية، ألم يكن ليؤدي ذلك الى قدوم اعداد اكبر من المهاجرين، والى تقليل عدد اليهود المهاجرين من اسرائيل، والى جعل المجتمع الاسرائيلي اكثر تماسكا وقوة، واصبح الاغراء بالهجوم عليها أقل؟

لكن لا. المشروع الديموني، أُقيم. ولم يحدث جدال جماهيري حوله. فيما بعد

حدث أن ترددت أصـوات معـارضـة احتجاجية على انشاء المشروع النووي في ديموناه، لكنها سرعان ما خبت وسكتت وكأنها لم تكن. وسرعان ما ادرك الاسرائيلي البسيـط بأن وجـوده مرهـون بامتلاك السلاح النووي؟ هذا المواطن الاسرائيلي الساذج الغبي وضع امواله ومصيره على قرن الغزال الديموني (النووي) المتأرجح الذي يهتز نتيجة لمسير دولته على حافة الهاوية.

أي نوع من الشعوب هذا الشعب الذي يتخلى عن عقله وحكمته الذاتية، ليتركهما لأولئك الحفنة من الزعماء الذين يعتمدون على عقائد خيالية وعلى أوهام القوة «أنا فقط، وغيري لا وجود له، ليظل يدفع بدمه ثمن اخطائهم المتكررة؟

ربما لم يكن هذا شعب؟ ربما يكون هذا الشعب نوعا معاديا للشعوب؟

ربما يكون من لم يتخل عن عقله وحكمته الذاتية هم اولئك الذين لم يفتروا بالوهم الصهيوني، أو اولئك الذين يئسوا وهاجروا من اسرائيل الى الخارج، الى البلدان التي فيها يستطيعون الاعتماد على غيرهم الذين لا يسكتون على الاخطاء والتقصيرات. ان اولئك الذين بقوا في اسرائيل ما هم سوى قطيع يقبل بكل حُكم بخنوع، ويتحمل كل مصيبة وكارثة وضربة جديدة منتظرا الخلاص؟

كم من الشخصيات في هذه (البلاد) «البقرة المقدسة» تجرأوا واحتجوا علانية على اقامة مشروع ديموناه؟ ومشروع قناة البحار؟ ومشروع طائرة لافي؟ ومشروع صاروخ أوفق؟ ورغم ذلك لا نستطيع الا ان نسأل الآن: هل يُعقل بأن تُلقى قنبلة ذرية (ديمونية) على عمان أو القاهرة، أو دمشق أو بغداد أو على بعض أو كل هذه المدن معا كإجراء وقائي، قبل أن تُطلق طلقة واحدة؟

اذا كان الجواب كلا، في اية مرحلة تُلقى - بعد تلقي ضربة صواريخ أولية على القدس، تل ابيب، حيفا، بئر السبع؟ ام في أعقاب فشل ما على الجبهة؟ أو ربما في اليوم الذي يحقق فيه الانتفاضيون نجاحا في عملية اجرامية؟

ومـاذا سيحدث بعد القاء القنبلة؟ هل سيرفع العدو أيديه ويستسلم، أم سيجلس مكتوف الايدي، أم ستكون لديه إمكانية ما أعدها لتوجيه ضربة ثانية ضد اسرائيل سواء ذرية أو كيماوية، أو بيولوجية، أو تقليدية؟

وهل الضربة الأولى التي يوجهها العدو، والتي تستوجب الرد الاسرائيلي بمحو دمشق، أو القاهرة، أو بغداد عن وجه الارض، لن تجلب لاسرائيل الخراب والدمار

لدرجة تجعل الشعب الاسرائيلي يهرب بشكل جماعي من اسرائيل بعد ان يكونوا قد يئسوا من العيش بهدوء ومن تأمين حياة هادئة ايضا لأبنائهم من بعدهم، ويكون هدفهم فقط عدم البقاء في الشرق الاوسط البربري ـ هذا الجزء من العالم الذي تطارده الحروب والاحتلال والمذابح والتهجير، ناهيك عن انه مهدد دائما بمصير يشبه مصير هيروشيما؟

ان الاتحـاد السـوفيـاتي قادر على التعايش مع عدة حوادث مثل حادث تشيرنوبل ـ ولكن اسرائيل، هل تستطيع تحمّل ولو حادثة تشيرنوبل، واحدة تقع داخلها أو بقربها؟

مَن سيستفيد من تدمير عمان أو دمشق في مثل هذه الحالة؟ بعبارة أخرى: اذا أُلقيت القنبلة الذرية على العدو فقط بعد ان تلحق باسرائيل اضرار جسيمة لدرجة تجعلها على حافة كارثة الهزيمة ـ تكون الاضرار خطيرة لدرجة تبرر استخدام القنبلة الذرية ـ فماذا ستكون الفائدة التي ستجنيها اسرائيل من هذه القنبلة بعد ان تكون قد تكبدت هذه الخسارة الجسيمة؟ هل ستمحو القنبلة الاضرار وتعيدها الى ما كانت عليه؟ هل ستحيي القتلى، وتشفي المشوهين؟ هل تُعيد بناء ما دُمّر؟

هل تمنع الاضرار التي ستلحقها القنبلة النووية بعاصمة عربية أو أكثر، الجماهير الاسرائيلية من التوصل الى استنتاج نهائي، بأنه رغم نجاتهم في هذه المرة، فانهم يعيشون في ارض تأكل سكانها، توجد في منطقة تأكل سكانها، واذا كانوا يحبّون الحياة، عليهم الاقامة في مكان آخر؟

هل سيمنح الانتقام النووي، الشيطاني، العزاء لأي كان مهما عاش؟ وكيف ستكون نظرة «العالم» ـ وعلى رأسه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ـ للدولة التي ستستخدم القنبلة الذرية كسلاح حربي لأول مرة منذ كارثة هيروشيما؟

هل سيدرك العالم أو يسلّم بحقيقة أمر واقع آخر يتمثل بضربة «قاضية» اسرائيلية، أم أنه سيقاطع اسرائيل النووية، ويفرض عليها حصارا، ويمنع عنها أية مساعدة مهما كانت لدرجة أنه حتى لو نجحت في انقاذ نفسها من أيدي اعدائها المباشرين، ستختنق، وتنهار، وتموت؟

من هنا، نجد أن على اسرائيل ان تُلقي القنبلة النووية على اعدائها قبل ان تتكبد الخسائر الجسيمة التي أشرنا اليها ـ قبل الاضرار التي تبرر القاء القنبلة

ـ اي في مرحلة مبكرة جدا من الحرب، وذلك حتى تظل اسرائيل، المقاطعة والمنبوذة والمحاصرة بشكل محكم «كدولة إيدن» قادرة على الوقوف على رجليها بقوتها الذاتية.

سؤال: متى بالضبط، يجب أن تُلقى القنبلة النووية؟

سؤال: مَن هو الذي سيقرر متى ستلقى بالضبط؟

سؤال: مَن سيوافق على أن يتخذ قرار بموعد القائها بالضبط؟

من المشكـوك فيه جدا، ان تُلقى القنبلة قبل اللحظة الاخيرة، لحظة عدم الاختيار، لحظة حافة الكارثة، اللحظة التي تصبح اسرائيل فيها نصف مدمرة، اذا لم يكن الوضع حتى أسوأ من ذلك بكثير. ولكننا أوضحنا فيما أسلفنا بأنه حتى لو أُلقيت القنبلة في اللحظة «الصحيحة فإن إلقاءها سيكون عبثا. إذ أنها لن تمنع نهاية اسرائيل. إن أيا كان في العالم، صديق، أو عدو، أو حتى غير مبال، لن يغفر لاسرائيل استخدامها هذا السلاح النووي، ولن يسلم بنظرية «لا خيار»، وكيف اذا جاء هذا الاستخدام من قبل اسرائيل بالذات (الدولة) التي تتميز ومعروفة طيلة حياتها حتى الآن بأنها تتبنى نظرية «تموت نفسي مع الفلسطينيين».

يبقى فقط الانتقام على صورة الخراب النووي مرفوعا كعلامة اجرام على قبر اسرائيل، (تجدر الاشارة الى مدى تردد كلمة «إنتقام» في الكتب المقدسة للشعب اليهودي، والى مدى تأثير هذه الكلمة في نفس اليهودي حتى يومنا هذا).

أليس جديرا بمصير من هذا النوع، الذي قرر شخص ما بحكمته الشديدة، ان يحكم به على كل مواطن في اسرائيل، أن يكون حافزا للمواطنين الذين ينتظرهم هذا المصير، وان يحتجوا ضد هذا المصير المنتظر ليس بأيديهم فقط، بل وبأرجلهم ايضا؟

ما فائدة القنبلة الذرية إذاً؟

القنبلة، علاوة على كونها توفر أيام عمل لجيش من العلماء، ما هي سوى عبـارة عن فيل أبيض ضخم، وخرق كبير في جيب كل مواطن اسرائيلي، وعنصر تصعيد للنزاع العربي ـ الاسرائيلي، وعنصر مســرّع لسباق التسلح التقليدي وغير التقليدي العربي في جميع المجالات. هذا هو الصحيح، وليس غيره.

إن القنبلة لا تشكل عنصرا لردع الدول العربية عن السعي الى جولة حربية جديدة. والقنبلة لن تنقذ اسرائيل بعد اندلاع الحرب من الدمار بشكل أو بآخر.

القنبلة لا تجعل العرب يتوقفون عن التكاثر، ولن تحملهم على الهجرة والهرب من المنطقة المضروبة، (خلافا للاسرائيليين اليهود)، ولن تمنع القنبلة، بالطبع، العرب في الظروف التي يرونها مناسبة لهم، من البدء في حرب تقليدية، ناهيك عن الحديث عن تصعيد اعمال الانتفاضة (هل سترد اسرائيل على القاء الحجارة والقنابل المحرقة، بقنبلة ذرية؟ واذا ردّت بهذه الطريقة، أين ستلقي قنبلتها بالضبط ـ في شوارع غزة، أم في أزقة نابلس؟).

سيداتي، سادتي، ربما أكون مخطئا. أرجو أن أكون مخطئا. ولكن ماذا لو كنت لست مخطئا؟

ألا تدل حقيقة قيام اسرائيل قبل ايام باطلاق مئات آلاف الدولارات الى السماء على شكل القمر الاصطناعي «أوفق»، على أن القنبلة النووية لا تشكل ضمانا لعدم نشوب حرب جديدة؟

ألا يدل هذا الامر على الشعور السائد لدى المؤسسة الأمنية في اسرائيل بأن العرب وجدوا الرد المناسب على القنبلة النووية الاسرائيلية، بهذه الوسيلة أو تلك، سواء تقليدية أو غيرها، ربما تكون أشد خطرا على اسرائيل؟

اذا كان الامر هكذا، أعود واسأل: ما الفائدة المرجوة من القنبلة النووية التي تعتبر هي نفسها غير مفيدة وناجعة وزائدة عن الحاجة ووسيلة تبذير، وعنصر تسريع لسباق التسلح، وتتطلب تبذيرا آخر عل شكل سلسلة لا نهاية لها من أقمار «أوفق»؟

هذه الأقمار الصناعية التي ستملأ الفضاء بمليارات الدولارات، هذه الدولارات التي لا تأتي من السماء، إنما تؤخذ مباشرة من مستوى معيشة المواطن الاسرائيلي، لن تضمن الحياة للشعب الاسرائيلي، بل ستقوّضها، أو على الأقل تجعلها أقل أمنا.

هل نحن بحاجة فعلا الى اقمار صناعية مثل «أوفق» لكي تكشف لنا عن الحجارة التي ستُرمى والقنابل والزجاجات المحرقة التي توشك على الاشتعال في شوارع الخليل ونابلس وغزة، وحتى تبشرنا بأن اطفالا جدد انضموا في الاربع والعشرين ساعة الاخيرة الى سكان المناطق المحتلة، وحتى تشير الى فيروس «فوليو» العنيف في برك المجاري في اسرائيل التي رأسها يطاول النجوم، ورجلاها تغوص في الوحل؟

لكن هذا هو ما يحدث في اسرائيل حاليا، في هذه (الدولة) التي تأكل فيها البقرة المقدسة (الأمن) كل شيء حتى العقل السليم. وهكذا تحوّلت اسرائيل من (دولة) لها مؤسسة أمنية، الى مؤسسة أمنية لها (دولة)، ومن (دولة) لديها قنبلة نووية الى قنبلة توجد لها (دولة)، ومن (دولة) لها قمر اصطناعي الى قمر اصطناعي له (دولة).

أشياء كثيرة تنجم عن مثل هذا الوضع، الا شيء واحد فقط: أمن البقاء، الشعور بالهدوء والسكينة، والراحة.

وحتى يشعر الاسرائيلي بأن مثل هذه الاوضاع الانسانية موجودة في هذه الحياة فعلا، وليست مجرد أحلام، لا بد له من الخروج في رحلة خارج اسرائيل الى بلاد اخرى، ليفاجأ بأن الشوارع في تلك البلاد الاجنبية ينقصها شيء، فيها عيب فظيع: لا يوجد جنود في الشوارع.

وهـذه ليست نهاية الحساب: إن حساسية اسرائيل فيما يتعلق بموضوع القنبلة النووية يبرز بوضوح في عدم انضمامها الى الميثاق الدولي بشأن عدم انتشار الاسلحة النووية، وبتدميرها الفرن النووي العراقي.

ان عدم انضمام اسرائيل للدول الموقعة على ميثاق عدم انتشار الاسلحة النووية، يتبعها في الواقع ـ ليس من وجهة نظرنا، بل من وجهة نظر دول العالم ـ الى مجموعة الدول المجنونة التي حكامها على استعداد لاتخاذ خطوات ذات ابعاد دوليـة مخيفـة، على غرار استخدام القنبلة النووية ضد السكان المدنيين ـ تلك الجريمة التي لا تغتفر، بقعة دم فظيعة، التي لن تتنظف الامة الامريكية منها الى الابد، مثلما لن تنظف الأمة الالمانية من استخدام آلة الحرب المنظمة لابادة شعب. غير ان الامة الامريكية التي تعد ١٢٠ مليون نسمة، والامة الالمانية التي تعد الآن على جانبي الستار الحديدي حوالي ٧٥ مليون نسمة، تستطيعان النوم بهدوء ـ لأن أيـة قوة في العـالم لن تحـاسبهما على جرائمهما ضد الانسانية عقابا حقيقيا، وبالتأكيد ليس عقابا يمكن أن يخفيهما عن الوجود.

كذلك الاتحاد السوفياتي والصين والهند التي تعد كل واحدة منها عدة مئات من ملايين الانفس، تستطيع ان تسمح لأنفسها بفعل اي عمل بغيض شاذ دون الخوف من العقاب،وكل ما يمكن ان تتعرض له من انتقادات في وسائل الاعلام وفي

أروقة الامم المتحدة، مع ذلك لا تسمح لنفسها وتتحاشى فعل ذلك. أما اسرائيل قليلة السكان والارض ـ هدف نقطة تماما لصاروخ ذو رأس تقليدي كبير أو اثنين ـ تستطيع السماح لنفسها الخروج على هذا المنطق. ولكن ماذا ستكون النتيجة؟

قبل كل شيء، ان الشروع في سباق تسلح نووي خاصة وفي تطوير أسلحة غير تقليدية عامة في الشرق الاوسط يعتبر امرا خطيرا جدا، اذ انه حتى في نادي المجانين، توجد درجات للجنون، ومن يضمن عدم انضمام دولة عربية الى جانب اسرائيل في نادي المجانين، لا تكون اكثر منها جنونا؟

ما هو الاضمن بالنسبة لاسرائيل الصغيرة: تكبيل الشرق الاوسط كله بقيود معاهدة عدم انتشار الاسلحة النووية ـ أم فتح أبواب الشرق الاوسط لسباق تسلح نووي مجنون؟ وإذا لم يكن نوويا، سيكون كيماويا. وها هي اسرائيل التي طوّرت أسلحة نووية تحتج على العراق وسوريا ومصر لأنها تزودت بأسلحة كيماوية وجرثومية؟

ثانيـا، إن سير اسرائيـل في الطريق النـووي الجنوني، وعدم توقيعها على المعاهدة المعقولة التي تمنع ذلك، يغلق في وجهها امكانية وفرصة انشاء فرن طاقة نووي، طالما ظلت سائرة في هذا الطريق التعس.

حتى لو نجح علماء الذرة الاسرائيليون في بناء فرن طاقة نووي بقوتهم الذاتية وبدون ان يستوردوا ولو قطعة واحدة، من أين لاسرائيل الاموال اللازمة لمثل هذا المشروع المكلف؟ من اموال العم سام؟ فها هي الولايات المتحدة تقف على رأس أولئك الذين أغلقوا الطريق في وجه اسرائيل الى بناء الفرن الذري طالما لم توقع على معاهدة عدم انتشار الاسلحة النووية. ان فكرة فرن الطاقة النووي الاسرائيلي هي عبارة عن وهْم اسرائيلي جديد؛ وهي ليست بحاجة لمثل هذا الفرن أصلا. وفي هذا المجال ايضا، نرى ان امكانية تخليص اسرائيل من الارتباط باستيراد النفط والفحم كمصادر للطاقة مشكوك فيها بعد ان توجهت اسرائيل الى انتاج القنبلة النووية.

لقد استبعد الأمن الحقيقي بسبب تفضيل الأمن المزيف. لقد استبعدت سياسة التوجه الى السلام لصالح تفضيل سياسة التوجه الى الحرب الأبدية.

ربما أكون مخطئا، أرجو أن أكون مخطئا. ولكن ماذا لو لم أكن مخطئا؟

ان توجه اسرائيل نحو الانتاج النووي يدل على عدم الثقة العميقة، وتبرره

عدم قدرتها على الصمود والانتصار في جميع الحروب المستقبلية. ولكن كلما كانت القنبلة النووية الاسرائيلية تشكل عنصر ردع، تكون بنفس الوقت عنصرا محفزا للعدو لتجميع القوة.

ان اسرائيل بتوجهها النووي، تؤكد للعالم بأن تقديراتها تقول إن السلام لن يسود بينها وبين جيرانها الى الابد. وإلا ما الذي يدعوها الى مثل هذه المغامرة السياسية، الأمنية، الاقتصادية والعلمية؟

ما معنى ذلك، اذا لم يكن يأسا اسرائيليا عميقا من امكانية اختراق حاجز العداء والكراهية والحروب المتكررة؟

ما هي الاستنتاجات التي يمكن للمواطن الاسرائيلي الذي يريد التوصل الى استنتاج من هذا الوضع الذي تعيشه اسرائيل حاليا، غير ان حياته وحياة ذريته من بعده توجد على فوهة بركان حي، او على الاقل بجانب بركان؟

هل لو علم ساسة اسرائيل «الافذاذ» بن غوريون وبيرس وغيرهم من اولئك الذين وضعوا حجر الاساس لمشروع القنبلة النووية في ديموناه في الخمسينات، أنه في السبعينات سيوقع اتفاق سلام بين اسرائيل ومصر، وتنشأ ديناميكية جديدة في الشرق الأوسط، هل كانوا سيسلكون هذا الطريق الجنوني؟ اذا حاول احد القول إن مصر لم تكن لتوقع على سلام مع اسرائيل لولا علمها بوجود السلاح النووي بأيدي اسرائيل، فانني أرد عليه بالقول:

اذا كان الامر هكذا، لماذا لم تسارع دول عربية أخرى لابرام معاهدات سلام مع اسرائيل - ألا تعرف هذه الدول ما عرفته مصر؟

ثانيا، اذا كان الامر هكذا، فان السلام مع مصر سينتهي امره عندما تتغلب مصر على خوفها بامتلاكها سلاحا يشكل ردا على سلاح اسرائيل، ان مصر لا تستطيع التسليم على مدى الايام بتفوق نووي اسرائيلي.

ماذا يجب على الجانب الذي يتعرض للتهديد بالسلاح النووي أن يفعل - لا شيء؟ نحن نعلم جميعنا أن العراق أنشأت فرنا نوويا، ذلك الذي دمرته اسرائيل، لا شك بأن الاسرائيليين شربوا نخب الانتصار. ولكن هل انتهت هذه القصة؟

هل تلك العقول التي فكرت ونفذت مشروع المفاعل النووي العراقي، توقفت عن التفكير بعد تدمير مفاعلهم؟ أم أنهم نشطوا في التفكير وأصبح تدمير المفاعل

حافزا جديدا لهم على التفكير؟

ماذا يفكرون، وماذا يخططون، وماذا يفعلون؟ واذا كانوا ادركوا بأنهم لا يستطيعون انشاء مفاعلهم النووي بقدرتهم الذاتية، ألم يفكروا بالحصول عليه من الخارج أو بمساعدة من جهة ما؟ واذا لم يحصلوا عليه، ألم يفكروا ببديل له يكون سلاحا مدمرا نفسانيا وماديا، مثل تركيب رؤوس كيماوية على صواريخ بعيدة المدى؟

ألا ينشغل العراقيون الآن بهذه الاسئلة أو مثيلاتها؟

ان العقول التي نسجت خدعة حرب ١٩٧٣، والتي أنشأت المفاعل النووي العراقي، والتي تبني صواريخ بعيدة المدى مزودة برؤوس كيماوية ـ من طبيعتها عدم السكوت. ولا شك بأن لديها الوقت الكافي، أكثر مما لدى اسرائيل.

واجمالا لما تقدم نستطيع القول أن اسرائيل غير قادرة عل البقاء والعيش كفيتو نووي، ويجب الاعتراف بضرورة العيش بسلام مع جيرانها الاكبر والاكثر عددا منها.

لقد وضع مستقبل اسرائيل بأيدي رجال عسكريين الذين من طبعهم التفكير باسلوب عسكري وأمني آني، اليوم وغدا، خلافا لطبع رجال السياسة الذين يفكرون على المدى الابعد، ويدركون نتائج النتائج (بأسلوب لعبة الشطرنج)، ويدركون بأن مستقبل اسرائيل ستظل صغيرة من حيث السكان والمساحة، ولن يكون لها النفس الطويل، ويجب ان تعتمد في حياتها على واقع سلام حقيقي تكون له ضمانات حقيقية من جانب الدولتين العظميين على الاقل، وكما قال الحكماء: «كلما كان اسرع كان أفضل».

ولكن هل هذا هو التوجه الاسرائيلي؟ هل تقدير الوضع القومي الاسرائيلي يشير الى هذا الاتجاه؟ لا سمح الله! ان الواقع عكس ذلك تماما.

فاعتماد اسرائيل ليس على نفسها بل على الولايات المتحدة. وتوقعاتها مجابهة أبدية مع جيرانها تكون يد اسرائيل فيها هي العليا.

انني أكفر بصحة هذين الموقفين ـ فهما بمثابة مغامرة يفوق خطرها أية مغـامرة تنجم عن سياسة السلام والهدوء ـ لكن اربعين سنة من المراهنة على الحروب، تشكل وضع اسرائيل الوجودي المعروف والروتيني.

ان حربـا فظيعة فقط قد تكون كفيلة بفتح أعين الاسرائيلي الاعمى، لكن

الحرب الفظيعة لن تشكل عقابا لأولئك الذين يستحقونها فقط. بل ستكون شاملة. لهذا أعرب عن يأسي. لهذا انا اعتقد بأن اسرائيل اقرت مصيرها. لذلك اقول ان اسرائيل غير موجودة، زائلة، وليس في المستقبل الذي يقاس بالسنوات الضوئية.

ليس هناك زعيم اسرائيلي رحل الى العالم الآخر ولم يترك وراءه قولا مأثورا استوعبه الشعب الاسرائيلي وسيظل على مرّ الاجيال. فها هو دافيد بن غوريون يقول: «لا يهمنا ما يقوله الاغراب، بل ما يفعله اليهود». و«الامم المتحدة، خراب!». هذه أقوال زعيم دولة صغيرة الحجم من حيث السكان والمساحة، وقليلة الموارد، أُقيمت بفضل قرار دولي صادر عن تلك الهيئة نفسها التي يسميها بن غوريون «الامم المتحدة، خراب» وهي قائمة حتى يومنا هذا بفضل دعم ومساعدات اليهود وغير اليهود، من لقمة الخبز وكأس الحليب وحتى السلاح، بما في ذلك «محركات» دبابة مركبا.

لم يكن دافيد بن غوريون يولي أي اهتمام برأي الامم المتحدة، ولم يفكر بموقفها عندما قرر الانضمام الى حرب ١٩٥٦ الى جانب فرنسا وبريطانيا ضد مصر. وفي عهده قلل من دور وزارة الخارجية وذلك بابعاده الشخص المعتدل والذي يمثل الخط المعتدل في القيادة الاسرائيلية (موشه شريت) عن هذه الوزارة وجاء ببديل غير مستقل هو غولدا مائير. وفي عهد بن غوريون نمت ايضا نظرية تنمية العلاقات مع عناصر هامشية في الشرق الاوسط (مثل الاكراد او الدروز او المارونيين) أو مع دول تقع على هامش الشرق الاوسط مثل (تركيا، ايران، اثيوبيا)، تلك الدول التي تخشى العالم العربي أو لديها نزاع مع احدى دوله.

حتى هذه النظرية، تدل على تطلعات اسرائيل القريبة والبعيدة: عدم الانضمام الى الاغلبية المجاورة لها في الشرق الاوسط ـ العرب ودولهم ـ بل مع اعدائهم، هذه سياسة اسرائيل، سياسة الاعتماد على الركيزة الواهنة، سياسة التوجه الى العداء الدائم مع الاغلبية الحاسمة في المنطقة.

لقد قدمت اسرائيل الدعم والمساندة الفعلية للاقليات (العناصر الهامشية) في الشرق الاوسط ضد العالم العربي، مثل دعمها لأكراد مصطفى البرزاني، وللمارونيين في لبنان، ولايران ضد العراق، لكنها مع كل ذلك لم تجن ثمارا وخرجت مكسورة الجناح. ورغم كل ذلك، لم تتعلم اسرائيل الدرس من فشلها في هذا المجال.

واكبر دليل على ذلك موقفها من قضية النزاع الايراني ـ العراقي.

أولاً: لقد ابتهج بنو شعبي لتورط دولة عربية معادية لاسرائيل في حرب في المنطقة، وها هو دمها ينزف، ومواردها تتضاءل ـ هل هذا جيد بالنسبة لليهود أم سيىء؟

بالطبع جيد! هناك من يتذكر التدخل العسكري المصري في اليمن في النصف الاول من عقد الستينات وابتهاج اسرائيل به، على مبدأ «ليضرب محمد، محمدا، وسلام على اسرائيل؟

أية نظرية سطحية هذه؟ واية نظرية قصيرة النظر هذه، التي ليست سوى نظريــة يهودية رسمية، نظرية منطق البقاء اليهودية: «سواء مات اللص أو مات الكلب، المهم أن أبقى سالما».

هل أضعف التدخل المصري في اليمن مصر في نهاية المطاف، أم زاد من قوتها وقدرتها على استخدام القوة العسكرية؟ وكذلك بالنسبة للعراق، بماذا تختلف عن مصر؟

اسرائيل الصغيرة، التي بعد ١٨ يوم حرب في ١٩٧٣ مع دولتين عربيتين، اوشكت على الانكسار نفسانيا والانهيار عسكريا، واستغاثت بمساعدة العم سام، ما الذي يبهجها ـ أمن قدرة دولة عربية معادية، عدد سكانها حوالي (١٥) مليون نسمة (دولة اشتركت قواتها في حروب ١٩٤٨، و١٩٧٣، ضد اسرائيل وستشترك حتما في الحرب القادمة) على محاربة ايران ذات الـ(٤٠) مليون نسمة وعلى حدود طولها ٧٠٠كم، لمدة ثماني سنوات؟

ان الرسالة التي توجهها اسرائيل للعراق وللعالم العربي أجمع، عندما تشمت بالعراق وتفرح لتورطها بحرب دامية مع ايران، من شأنها فقط تعميق العداء، وتبرير الكراهية وحب الانتقام، وتعتبر كذلك تحديا صارخا للعراقيين لكي يطلقوا غدا او بعد غد صواريخهم او طائراتهم ويحمّلون دباباتهم ويحركون فرقهم وجحافلهم نحو اسرائيل، الى الاردن.

ولكن بدلاً من تقديم المساعدات العسكرية الاسرائيلية الى ايران ضد العراق، كان الاجــدر باسرائيــل ان تستغل اية فرصة يمكن ان تسنح لها خلال الحرب العراقية ـ الايرانية قد يكون من شأنها تخفيف حدة العداء العراقي لها، وذلك

عن طريق تقديم الدعم للعراقيين بدلا من الايرانيين، حتى ولو من اجل ان يُسجل لاسرائيل موقف واحد، بادرة حسن نية واحدة على الاقل تجاه العراقيين الذين في حالة المحنة، ربما يتغاضون او يتناسون عداءهم لاسرائيل.

كلا، وألف كلا. لن تفعلهـا اسرائيل التي تؤمن بالقوة. وبالقوة فقط. لقد اعتادت المراهنة على العداء والكراهية. فكيف تستطيع المراهنة على السلام؟ ما الذي يجعلها تتخلى عن الطريق المعروفة جيدا لها، وتحاول سلوك طريق لم تمهد بعد ولم تختبرها؟ ما الذي يدعوها الى التخلي عن التاريخ اليهودي المعروف: من دمار الى نهضة، ومن نهضة الى دمار، وهكذا دواليك؟

هذه هي على أية حال، تركة دافيد بن غوريون المجنون، الذي أصبح في حياته ومماته، رغم نزوله التعس المخزي عن المنصة السياسية، رمزا اسرائيليا مقدسا الى درجة، ربط اسمه باسم (دولة) اسرائيل.

إن ما أود قوله هنا في إجمال قضية الاخطاء المختارة التي حدثت في الايام الأولى لقيام (الدولة) هو ان لزعماء وشخصيات سياسية كثيرة في اسرائيل، من شمعـون بيرس، وشلومـو هليل، واسحق نافون، وحتى اريئيل شارون، ورحبعام زئيفي، واسرائيل الداد، مصلحة واضحة بتأليه دافيد بن غوريون، لأنهم من ذلك يستمدون الشرعية لأنفسهم، كمن كانوا يصبّون الماء على يديه، أو كانوا مرتبطين به في مرحلة من مراحل حياتهم بشكل أو بآخر، ورضعوا فكرة من أفكاره.

لهذا السبب نجد أنه من الصعب جدا انتقاد اية خطوة، او غلطة سياسية ـ أمنية ارتكبها دافيد بن غوريون، لأن انتقاد أو رفض سياسته وطريقه، يعني رفض سياسة (دولة) اسرائيل، وربما أكثر من ذلك، اي رفض وجود (دولة) اسرائيل، حيث ان اسرائيل القائمة حاليا هي ثمرة لهذه الطريق وهذه السياسة.

من هنا، نجد ان تغيير الطريق الذي تسلكه اسرائيل، من طريق القوة الى طريق غير القوة، اي من سياسة المراهنة على القوة، الى سياسة المراهنة على التسويات والسلام، وان ترى اسرائيل نفسها (كدولة) تعيش في الشرق الاوسط في سلام مع محيطها العربي ـ المسلم، وليس كإسفين، أو كجسم غريب، وكقلعة محاصرة الى الابد التي لا بد أن تكون نهايتها التآكل، الاستنزاف، ثم الانهيار والسقوط، لن يكون ممكنا هذا التغير قبل تحطيم تمثال دافيد بن غوريون بصفته أب (دولة)

اسرائيل، ربّها وصانعها، وتقزيم حجمه الى حجم إنسان عادي، يمكن ان يخطىء وكما يجب احترام قراراته الصائبة، يجب تحدي قراراته المغلوطة. والتحقيق فيها وتحليلها بلا هوادة، حيث ان اخطاءه رافقت وترافق (دولة) وشعب اسرائيل الى الابد. ذلك لأن الامر يتعلق بكيان لم يُخلق ليكون (دولة) قصيرة الأجل، انما (دولة) تعيش اجيالا متعاقبة في محيط لا توجد قوة في العالم تستطيع تغيير طابعه العربي ـ المسلم الابدي، ولم يخلق ليكون دولة تعيش حياتها كلها على حد السيف. عندئذ فقط، بعد التحرر من المناخ البنغوريوني الذي تعيشه (الدولة) منذ قيامها، يمكننا البحث عن طريق جديـدة، طريق يتم فيها تكريس معظم الطاقة القومية (لدولة) اسرائيل في سبيل التعايش السلمي مع المحيط الذي تعيش فيه.

إن شخصية دافيد بن غوريون كشخصية نموذجية مقدسة (لدولة) اسرائيل التي تتأثر بها كل شخصية سياسية في اسرائيل كبيرة كانت أم صغيرة، تتعزز باستمرار، «صقور» أو «حمائم» زعماء «عمل» أو «ليكود» لا زالوا يترددون على قبر بن غوريون ويطلقون تصريحاتهم القومية الرنانة.

كثيرون هم الاسرائيليون الذين رأوا بحرب سيناء ١٩٥٦ مشعلا على الطريق الرئيسة (لدولة) اسرائيل، ولم يروها بمثابة زلّة قدم (لدولة) «رضيعة» تتحسس طريقها في بداية عمرها، وانحراف مصيري عن الطريق الصحيحة التي كان عليها أن تسلكها، نحو سلوك طريق القوة، وإثارة شهوة الاستيطان والاحتلال والتوسع، نحو العداء الدائم والحروب المتكررة. ان من شأن هذا الامر وهذا التوجه ان يجرّ اسرائيل الى سلسلة من الحروب التي لا بد ان تنتهي في نهاية المطاف بحرب مدمرة. يسهل على البعض الصاق تهمة العلاقات العدائية بين العرب والاسرائيليين، بالعرب وحـدهم. صحيح ان دورهم في النزاع ليس موضع شك. ونستطيع ايضا نسج مجموعة متراصة من الادعاءات التي تثبت ان النزاع بين القوميتين على هذه القطعة من الارض كان حتميـا، وان اسرائيـل الصغيرة وجدت نفسها رغم انفها تنتهج سياسة القوة مع كل ما ترتب عنها فيما بعد، لدرجة ان طلائع حركة «هشومير» رفعوا في حينه شعار «بالدم والنار، سقطت يهودا، وبالدم والنار، تنهض يهودا»، ونقشوا هذا الشعار على علمهم. هذا الشعار الذي أصبح رغم أنف اليهود شعارا يقول، بالدم والنار، تبقى اسرائيل».

إن السؤال هنا هو: ماذا فعلت اسرائيل من اجل ابطاء واعتدال هذه المسيرة، وماذا فعلت من اجل اسراعها وزيادة حدتها؟

ما هو دور اسرائيل في الديناميكية التي تصعّد حدة النزاع، وماذا كان باستطاعتها ان تفعل لتمنح هذه الديناميكية املا او فرصة ولو ضئيلة لتسير في اتجاه آخر؟ ألم تكن اسرائيل قاصدة ومتعمدة تصعيد حدة المجابهة مع العرب؟

ان اجابتي على هذه الاسئلة قاطعة كما سبق ان اوضحت. ان اسرائيل لا تستطيع تبرئة نفسها من مسؤولية تطور النزاع بالشكل الذي تسلسلت فيه الاحداث منذ عام ١٩٤٨، التي أوصلت اسرائيل في عيدها الاربعين الى ازمة امنية، سياسية، واخلاقية خطيرة بشكل لم تعرفه من قبل، التي تتمثل في مجابهتها ظاهرة الانتفاضة الفلسطينية التي ستؤدي حتما الى حرب اسرائيل السادسة.

ان الشعوب الكبيرة القوية، يمكن ان تذوب نتيجة لأخطاء زعماء سواء كانوا دكتاتوريين او ديمقراطيين. فكيف بشعب صغير مثل يهود اسرائيل الذي ليست لديه مقومات الصمود في ازمات عادية. ناهيك عن الازمات المتعلقة ببقائه، هذا الشعب الذي لا يدرك اين يقف، بل بالعكس، مصاب بالعمل بحيث لا يرى الواقع الحقيقي اسير تصوراته الاخلاقية والتقليدية التي تدفع به الى الفشل المرة تلو المرة.

سيداتي سادتي. ألا استطيع القول: ان (دولة) اسرائيل زائلة لا محالة؟

هيا، إسألوا أنفسكم: إلى أين تتجه هذه الطريق؟ الى اين تسير العربة الاسرائيلية والى اي شيء يسعى فرسانها؟

ان اجابتي على هذه الاسئلة هي: الى حرب فظيعة، لن تنتهي على خير. اذاً من هنا يأتي الخوف واليأس والبلادة التي تسمح للاغلبية بعدم التفكير او الاحساس والتي تجعلها تعيش هذا الواقع، او ربما أكون مخطئا، وان الاغلبية في اسرائيل بدأت تفكر وتحس بأنه اصبح لا يمكن الاستمرار في هذا الواقع. غير ان مثل هذا الوعي وهذه اليقظة بطيئان جدا.

في عام ١٩٦٧، من كان يتوقع نشوب حرب في صيف ذلك العام؟

فجأة، يقع حادث جوي في الشمال، لم يكن واضحا بمبادرة من وقع. يوجه اسحق رابين رئيس هيئة الاركان العامة الاسرائيلي خطابا حربيا ويهدد دمشق. عندئذ ثار عبدالناصر، سواء بتحريض من الروس ام بدونهم، واغلق مضايق تيران

في خليج ايلات، وادخل قوات عسكرية الى سيناء. هكذا خلال لحظة حدثت ازمة كبيرة ـ لماذا، ومن اجل ماذا؟ مَن المستفيد منها؟ هل كانت هنالك مصلحة للسوريين أو المصريين بمحاربة اسرائيل؟ هل كانت لاسرائيل مصلحة في الحرب؟ هل سعى الاسرائيليون لخوض حرب حقيقية مع جيرانهم؟

ظاهريا، في ضوء النتائج المدهشة لحرب الايام الستة، كانت هنالك مثل هذه المصلحة للاسرائيليين. ولكن أليس مثل هذا التقدير يعتبر بمثابة الحكمة بعد فوات الأوان؟

ألم يكن الرئيس المصري جمال عبدالناصر قادرا في مرحلة ما من الازمة على السيطرة على الاحداث؟

هل كان باستطاعة اسرائيل الخروج سالمة من الازمة لو انها سلّمت باغلاق مضيق تيران بأيدي المصريين، ولو انها تحلت بضبط النفس وانتظرت قيام عناصر أجنبية، دول عظمى، بانقاذها من الوضع الصعب الذي زجها فيه الرئيس عبدالناصر؟

لو كان هناك شخص ما في اسرائيل فكّر وقال: كل شيء ما عدا الحرب، الحرب، ولا بأي حال من الاحوال، ذلك لأن الحرب ليس بمقدورها حل النزاع وتسويته، كل ما من شأنها هو إذكاء نار الحقد والعداء والكراهية بين العرب واليهود. الحرب من شأنها فقط زيادة الخراب والدمار، وتعزيز غرائز الانتقام التي لا بد أن تؤدي الى حرب أخرى. ألم يفكر أحد ما بأن بذور الحروب الاسرائيلية ـ العربية المتكررة قد زرعت في حرب ١٩٥٦؟

غير أن الظروف خنقت مثل هذا العاقل لو وُجد، ولكن من المشكوك فيه ان كان لمثل هذا الشخص وجود في اسرائيل.

اما قيادة الجيش الاسرائيلي فقد كانت حتما ابعد عن مثل هذا التفكير، بُعد المشرق عن المغرب. بل العكس هو الصحيح، اذ كان قادة الجيش الاسرائيلي واثقين تمام الثقة بقدرة الجيش الاسرائيلي على إلحاق هزيمة ساحقة بالمصريين والسوريين والاردنيين. وكانوا يسعون الى ذلك باعتباره المخرج الوحيد من الازمة في نظرهم، وكان موقفهم هو الاقوى، ذلك لأن رئيس الحكومة ليفي اشكول لم يرفض هذه الطريق، مع انه لم يكن متحمسا لها.

ان القادة العسكريين، هم وحدهم فقط، مع وزير الدفاع موشه ديان، الذين خططوا سير الاحداث بحيث يُستخدم الجيش الاسرائيلي ليس فقط ضد مصر الناصرية التي أغلقت مضائق تيران، بل لاستغلال الفرصة ومهاجمة الاردن وسوريا ايضا.

لم تكن القوات الاسرائيلية في تلك الحرب مخيبة للآمال، كان النصر باهرا، كانت الهزيمة العربية ساحقة لدرجة جعلت المرء يتساءل: هل كان عبدالناصر يستعد للحرب فعلا؟ هل كانت اسرائيل تواجه خطرا يبرر خروجها لحرب وقائية؟

احتلت القوات الاسرائيلية مناطق شاسعة من مصر والاردن وسوريا، بحيث أصبحت هذه المناطق كفيلة بإزالة الخطر والتهديد عن اسرائيل، وازالت الشعور بالخوف من حرب مستقبلية، ووقف العالم مذهولا أمام هذا الانتصار.

أما اليهود في جميع انحاء العالم فقد فقدوا اعصابهم من شدة الفرحة، وهبت عليهم رياح النشوة التي افقدتهم توازنهم، وجاءتهم بالبشرى: ها هي اسرائيل أصبحت على عتبة عهد جديد، عهد كله أمان. غير أن ذلك الشعور بقدوم عهد جديد من الامان بالنسبة (لدولة) اسرائيل كان كاذبا وسرعان ما عرف الشعب الاسرائيلي بأن العهد الجديد لم يكن يبشر بالخير والاطمئنان لهذا الشعب، ولم يكن نهاية لسلسلة الحروب الاسرائيلية المتكررة.

إن غريزة الاحتلال والتوسع الاسرائيلية ثارت من جديد بكل قوة في حرب ١٩٦٧، ولم تكن في هذه المرة تتغذى، كما في المرات السابقة (في حربي ١٩٤٨، و١٩٥٦) من أطماع إستعمارية، وليس فقط من اعتبارات استراتيجية هدفها ضمان الامن للمؤخرة، انما من خلال ايمان ديني بتحقيق حدود الارض الموعودة كما وردت في الكتاب المقدس. اذ بعد احتلال الاراضي العربية في هذه المرة بدأ رجال يهود يصيحون: «الله موجود».

ها هو «إله اسرائيل» بذاته ـ إله اسرائيل العسكري، إله الأمان والضمان، إله الانتخابات ـ «يندمج في الصورة». كانت تلك لحظة فظيعة، مصيرية، في تاريخ اسرائيل.

ومثلما كانت حرب ١٩٥٦ قضية مياه سياسية ـ عسكرية في حياة (دولة) اسرائيل الفتية، وكانت بمثابة نقطة انطلاق نحو الحرب أو الحروب القادمة، كذلك

كانت حرب ١٩٦٧، قضية مياه في تاريخ التشوهات الروحية ـ الفكرية الاسرائيلية، لقد ادى التعصب الاسرائيلي الى احراق البيت الصهيوني، رغم ادعاء المدعي غير هذا.

ان الصهيونية العلمانية، لم تأت لتجديد وضع قديم، لا جغرافيا ولا دينيا. جاءت لاقامة (دولة) حديثة، مكان يعيش اليهود فيه، وحققت ما حققته في حرب قاسية طويلة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ واكتفت بذلك. في ١٩٦٧، نشأ وضع جديد: أدى الانتصار الباهر الذي نجم عنه احتلال اراض واسعة الى احياء الشعور الديني لدى المتدينين اليهود وغير المتدينين واعاد الى الاذهان فكرة (ارض اسرائيل الكاملة)، «ارض الميعاد». ربما كان ذلك يعود الى ضرورة تبرير إجراء الاحتلال، الامر الذي خلق الى نوع من «التوبة» القومية العامة مما ادى الى تنحية النظرية الصهيونية العلمانية جانبا. لا حاجة لوصف الفرحة العظيمة التي غمرت المتدينين اليهود وهم يرون ان الله ظهر لهم من جديد على أسنة حراب الجيش الاسرائيلي.

ان رئيس الحكومة ليفي اشكول الذي لم يعرف عنه ان متدينا او زاهدا، لم يكن باستطاعته، بالطبع، الصمود في وجه هذا التيار الديني المتعصب الذي جرف اسرائيل. لقد خضع اشكول للهوية الجديدة التي منحتها حرب ١٩٦٧ (حرب احتلال المناطق) "لدولة" اسرائيل، التي بدأت تسجد للشجر والحجر، وتقدس القبور القديمة (الاثرية). لقد أُستبدل العلم الاسرائيلي برداء المتدينين.

لقد برز رجال «غوش ايمونيم» المتعصبون الذين اقاموا حركة استيطانية في المناطق العربية المحتلة متحالفين مع «علمانيين» حركة «ارض اسرائيل الكاملة»، التي سرعان ما نهضت هي الاخرى.

ماذا كان المغزى العميق، مع انه غير واضح تماما، بدءا بدخول الله للسياسة الاسرائيلية القطرية، الاقليمية، وابرام الحلف بين «ممثليه» وبين العلمانيين مؤيدي الاستيطان، الذين أصبح عددهم في زعامة حزب العمل الحاكم وفي الحكومة لا بأس به، من اسحق تفنكين، واسرائيل جليلي، ويغئال ألون، وليفي اشكول، وغولدا مائير، وحتى موشه ديان وشمعون بيرس؟

لقد كان مغزى ذلك كله، خطوة أخرى ومصيرية في تحريك الجهاز السياسي الاسرائيلي برمته يمينا نحو التعصب القومي، والى الاسفل نحو الرجعية، ومن ثم

الى التعصب الديني. ذلك التحرك الذي رضع من ثدي التغييرات السكانية التي شهدها الاستيطان اليهودي من جهة (صعود جيل القبعات المنسوجة «المتدينين» وتعزيز مكانة القطاع الطائفي ـ الديني)، ومسيرة ضعف الحركة العمالية من جهة ثانية.

لا شك أن هذه الحـركـة فقدت ضميرها الاجتماعي الأخلاقي. إن جميع رؤساء الحكومات من الحركة العمالية (حزب العمل) منذ حرب ١٩٦٧ وحتى يومنا هذا ـ ليفي اشكول، غولدا مائير، اسحق رابين، شمعون بيرس (ومعهم موشه ديان ويغئـال ألون، ويسرائيل جليلي) أبرموا حلفا مع إله الاستيطان من كتسرين عبر قدوميم والخليل وحتى يميت وشرم الشيخ.

لم تكن في حركة العمل، قوى وشخصيات تحتج وتمنع أو توقف تلك المسيرة التي غايتهـا ضم المناطق العربية المحتلة وإلغاء «الخط الأخضر» بقوة السلاح العلماني وبخاتم «الإله الديني».

إن الاعتقاد أو الافتراض الساذج بأن المناطق التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧، ستكون بمثابة وديعة حقيقية، مؤقتة، تمهيدا للتفاوض من أجل السلام ـ تبخر ولم يعد له وجود.

لقد أعلنت اسرائيل فورا بأن المناطق المحتلة ليست وديعة، إنما ثروة سيتم ضمها لاسرائيل، وسرعان ما أوضحت بأن وجهتها ليست نحو السلام إنما الى القوة، والاعتماد عليها فقط بعد ان اصبح لدى اسرائيل عمق استراتيجي يضمن لها الامن الى الابد.

ان صدمة الانتصار الاسرائيلي، والكبوة العربية في ١٩٦٧ ـ وليس الهزيمة العربية، لأنه كما أشرت سابقا، الهزيمة العسكرية في حرب عربية ـ يهودية قد تكون من نصيب اسرائيل وحدها، وليس من نصيب العرب ـ كان لها مفهوم يختلف عنه لدى العرب. فبالنسبة لليهود، كان لصدمة الانتصار أثر سلبي مشوه، سياسيا وعسكريا وفكريا وأخلاقيا ودينيا. أما بالنسبة للعرب فكان أثرها موقظا ومحفزا. وقد أثبتت حرب ١٩٧٣ ذلك، بما فيها من تخطيط وتنسيق بين مصر وسوريا، وبما انطوت عليه من خطر كاد يودي باسرائيل الى الهزيمة والخراب والدمار.

ماذا يُفهم من هذه الحرب، حرب ١٩٧٣ ـ الرابعة من حيث العدد في تاريخ

اسرائيل الحديث؟

بالنسبة للطرفين: لم يُخرق قانون الحروب المتكررة وبقي على حاله قائما.

بالنسبة للجانب العربي:

أ ـ لم ينس العرب خسارتهم في الحروب السابقة، ودوافعهم لمحو مكاسب اسرائيل التي حققتها في حرب ١٩٦٧، إن لم تكن مكاسبها في حرب ١٩٤٨، أي وجودها برمته، لم تضعف، بل تقوّت.

ب ـ قوة العرب وقدرتهم على شن حرب على اسرائيل زادت وتطورت في جميع النواحي.

بالنسبة للجانب الاسرائيلي:

أ ـ رغم ان العرب نجحوا في مفاجأة اسرائيل واوشكوا على إلحاق الهزيمة بهـا، تمكن الاسرائيليـون من استعادة وعيهم والتغلب على جيشي مصر وسوريا ودحرهما، ولكن ليس التسبب في إنهيارهما.

ب ـ يواجه الاسرائيليون صعوبة في القتال على جبهتين في آن واحد ـ تستطيع اسرائيل استعادة زمام المبادرة بفضل قدرتها على حشد القوة في الشمال أولا ومن ثم في الجنوب، ولكن من يستطيع أن يضمن لها نجاح مثل هذه المناورة في ساعات الاختبار على غرار حرب ١٩٧٣، أو في حالات أشد وأخطر منها بكثير؟

ج ـ أضطر الاسرائيليون لوقف القتال نتيجة لضغوط الدول العظمى، وأظهروا بذلك قدراتهم المحدودة.

د ـ تآكلت ثقة الاسرائيليين بأنفسهم لدرجة أنهم لم يتخذوا أي إجراء وقائيا حتى عندما علموا بوضوح، ولو كان متأخرا، بأن الحرب توشك أن تندلع في غضون وقت قصير على جبهتين.

هـ ـ فقد الاسرائيليون أمنهم الاساسي وثقتهم المطلقة والشاملة في تفوقهم على العرب في جميع النواحي، بما في ذلك المجال الاستخباري.

و ـ فقد الاسرائيليون ثقتهم بالمناطق المحتلة، كعنصر مانع للحرب.

ز ـ نسبة الخسائر البشرية الاسرائيلية، التي لم تكن كما كانت عليه في حربي ١٩٥٦، و١٩٦٧، بلغت الآلاف وتسببت في إضعاف الروح المعنوية القومية وعقيدة القتال الاسرائيلية.

ح ـ فُتحت في جدار الشعور الأمني الاسرائيلي المحكم ثغرة، بعد ان برهنت الحرب من حيث التخطيط والتنفيذ والقتال نفسه، أن العرب ليسوا «عناكب».

ط ـ الخسائر الجسيمة التي مُنيت اسرائيل بها في هذه الحرب، أثارت في قلب كل اسرائيلي السؤال الكبير وهو ألم يمح قيام (الدولة) وبقاؤها حتى عام ١٩٧٣ من الوعي اليهودي مسألة الثمن، مسألة الربح والخسارة، مسألة جدوى المشروع الصهيوني؟!هذا السؤال «اليهودي» الذي ربما كان ساكنا أو ربما كان يحتضر، نهض من قوة الصدمة، ووجد تعبيرا له في موجة النزوح الكبيرة الى خارج اسرائيل في عام ١٩٧٤.

ي ـ إتضح أنه مقابل إله الجيوش، يعمل إله السيف الذي يصلي أتباعه بإخلاص لا يقل عن إخلاص اليهود لإله القوة العسكرية، والشيء المهم هو أنهم أكثر من اليهود في هذه المنطقة من العالم.

إن الانتصار الاستراتيجي المصري في حرب ١٩٧٣، الذي نبع بالذات، من المبادرة بشن الحرب، ومن نجاح مصر في كسر جمود السيطرة الاسرائيلية المضمونة، ليس بالمناطق المحتلة، إنما في «اكبر قناة مضادة للدبابات في العالم»، ومن نجاحها في انهاء الحرب بعد ان حصلت على جزء من أرض سيناء واصبحت ضفتا القناة (قناة السويس) بأيديها، أدى هذا الانتصار الاستراتيجي فيما بعد الى مبادرة السلام المنفرد الذي أبرمه السادات مع اسرائيل.

ماذا منح السلام لمصر؟ ثلاثة أشياء هامة جدا: جميع الاراضي التي احتلتها اسرائيل من مصر في عام ١٩٦٧؛ إنتقال سهل ومضمون من الرعاية الروسية الى الرعاية الامريكية، بكل ما في ذلك من مغزى سياسي وعسكري واقتصادي، بضع سنوات من الهدوء والسكون (١٥ سنة حتى الآن) للعق الجراح ولاعادة البناء ومعالجة المشاكل الداخلية المتنوعة. ولكن فوق هذا كله ساد في المناخ المصري الشعور بأن مصر سوّت حسابها التاريخي مع اسرائيل ومحت العار الذي لحق بها نتيجة لهزائمها السابقة، أي شعور الافتخار القومي.

أود القول لك أيها الاسرائيلي؛ إن المصريين، أو العرب عامة هم مثلهم مثل بقية شعوب الارض ـ ليسوا أعلى ولا أدنى من غيرهم، لديهم لحظات انحطاط، ولديهم لحظات فخار ورفعة، وهم قادرون على اخراج الزعماء الكبار والقادة

العسكريين الاكفياء والجنود الممتازين، حتى انهم قادرون على استغلال الفرص والظروف الدولية لصالحهم.

لقد كان السلام مناسبا للسادات بالطبع، وإلا لما كان قد أقدم عليه. ولكن مصر تستطيع عندما ترى الظروف مناسبة لها، كسر وخرق معاهدة السلام مع اسرائيل، سواء على فترات أو دفعة واحدة. ألا تستطيع مصر ذلك؟

إن اسرائيل لا تستطيع التجاهل أو النظر باللامبالاة تجاه مثل هذا الاحتمال. ليس من السهل علينا الاجابة على السؤال، هل تسهل اسرائيل على مصر التقيد باتفاقية السلام بين الطرفين، بالايجاب؟ ولكن من الاكثر سهولة الاجابة بنعم على السؤال: هل تثقل اسرائيل على مصر في هذا الموضوع، كما حدث في التصرف الطفولي الذي انتهجته اسرائيل في قضية طابا؟ واكثر من ذلك في معالجة الانتفاضة في المناطق المحتلة، اذ ان مصر لا تستطيع الوقوف موقف المتفرج في ضوء التصرف الاسرائيلي البربري والهمجي في المناطق المحتلة.

لقد دفعت مصر ثمنا باهظا مقابل ابرام معاهدة السلام مع اسرائيل، الذي رغم انه كان منذ البداية مبنيا على الخداع والتضليل، الا انه شكّل بداية لمسيرة جديدة في علاقات اسرائيل مع جاراتها.

هل توجد لاسرائيل مصلحة في تقوية وتعزيز هذه الديناميكية الجديدة أم لا؟ إن التصرف الاسرائيلي المتصلب الوقح لا يدل على هذا التوجه، حيث أن ديناميكية السلام تتوقف على تصرفات اسرائيل فيما يتعلق بمستقبل الاراضي المحتلة، وهذه التصرفات لا تشير الى استعداد اسرائيلي للتنازل عنها، حتى مقابل السلام.

كل هذه الامور، في جوهرها ومبدئها، كانت واضحة تماما بالنسبة لمناحيم بيغن، رئيس حكومة اسرائيل الذي وقع باسم (دولته) على اتفاقية السلام مع مصر، حتى انه لهذا السبب وقّع.

لقد كان البديل خطيرا للغاية ـ فقدان فترة الهدوء اللازمة والضرورية لاعادة بناء الروح المعنوية القومية والجيش الاسرائيلي، وفقدان الرعاية الامريكية ـ سياسيا وعسكريا واقتصاديا ـ التي زادت حاجة اسرائيل لها خلال الحرب وبعدها. اذ ان حرب ١٩٧٣ أثبتت أن قدرة اسرائيل القتالية جيدة بالنسبة لحرب خاطفة قصيرة، وان الانتقال الى فوضى حرب طويلة، او حرب استنزاف، يحكم عليها الارتباط الوثيق

بدولة عظمى ترعاها وتدعمها. لذا كان السلام الاسرائيلي ـ المصري حيويا جدا بالنسبة لاسرائيل، وكان امرا حتميا بالنسبة لها. والا هل يعقل بأن شخصا مثل مناحيم بيغن، المتعصب، المتطرف الذي ليس لديه أي شعور بالذنب فيما يتعلق بالتقصير الاسرائيلي في حرب ١٩٧٣، يمكن ان يوقّع اتفاق سلام مع مصر؟ لقد كان ذلك سلاما مفروضا، وليس السلام الذي تنشده اسرائيل التي أملت لسذاجتها، بأن تحقق في يوم من الايام، التفوق المطلق على العالم العربي برمته، وترغمه على الاعتـراف بتفوقها هذا على مدى الاجيال القادمة. لقد كان سلاما مرّا بالنسبة لاسرائيل، لأن معناه كان بداية مسيرة سلمية جديدة يمكن ان ينجم عنها توقيع اتفاقيات سلام بين اسرائيل والدول العربية الاخرى المجاورة لها، على غرار السلام مع مصر وليس اقل منه ـ اي اعادة الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧، الى اصحابها حتى آخر سنتمتر واحد.

لقد أصبح اتفاق السلام الاسرائيلي ـ المصري سابقة ثابتة وواضحة، وان اي تنكر لهذه السابقة سيؤدي بالضرورة الى استئناف الحرب.

ان في تنمية هذه السابقة، التي تعني الاعتراف بمبدأ مناطق ـ جميع المناطق ـ مقابل السلام، تكمن الفرصة والامل الوحيدان لوجود اسرائيل وبقائها (كدولة). وبما ان اسرائيل لا تشجع ولا تتبنى هذه السابقة، بل تتنكر لها، فإلى أين تتجه: نحو النموذج المعروف، المعتاد «المضمون» نموذج الامن والقتال، نموذج مبدأ «بالدم والنار». ان البقرة المقدسة (الامن) هي العجل الذهبي للشعب الاسرائيلي في عصرنا هذا.

بالطبع، «تنازل» مناحيم بيغن عن بضاعة لم تكن له في يوم من الايام، اعاد متاعا مسروقا مسلوبا، حتى ان إله الجيوش لم يشمله ضمن وعوده لشعبه الذي اختاره للخراب والدمار والكوارث.

بالطبـع، كان باستـطاعة مناحيم بيغن الاعتماد على أن أغلبية «المعراخ» ستؤيد خطوته السلمية، لذلك كان الافتراض بأن «الليكود» وحده يستطيع جلب اتفاقية سلام اخرى ـ بتأييد المعراخ ثانية ـ في حين ان المعراخ لا يستطيع جلب السلام لاسرائيل لأن الليكود الذي يشكل نصف الشعب الاسرائيلي، لن يمتنع عن تأييد المعراخ فحسب، بل سيعمل على تشويش وتخريب مساعيه وجهوده، سواء في

الكنيست او في الشارع، ذلك لأن «التنازل» عن المناطق المحتلة في الضفة الغربية وغزة وهضبة الجولان لن يكون بمثابة التنازل عن «ما هو ليس لنا» كما هو الحال بالنسبة لسيناء، انما عن شيىء ورد بوضوح في ضمن الخرائط الموعودة من الله لشعب اسرائيل، ناهيك عن ان اسحق شامير (الذي عارض التوقيع على اتفاقية السلام مع مصر) ليس مناحيم بيغن، وتحيط به مجموعة متطرفة متعصبة، ليست من أمثال موشه ديان او عيزر وايزمن. هنا يجدر بنا التحدث بكلمة عن موشيه ديان وعيزر وايزمن. ديان تلك الشخصية المغامرة ذات الاخطاء المتكررة، سيسجل التاريخ له وقوفه الى يمين مبادرة السلام التي قام بها انور السادات، غير انه ليس واضحـا لماذا نزلت عليه حكمة السلام هكذا فجأة بعد ان قدم ٣٠٠٠ ضحية اسرائيلية على مذبح حرب ١٩٧٣، ومن يعلم كم عدد الضحايا المصريين والسوريين ـ وليس قبلها. واذا كانت طريق السلام غالية وعزيزة عليه الى هذه الدرجة قبل حرب ١٩٧٣، فلماذا لم يستقل من حكومة غولدا مائير الرافضة المتصلبة، عندما اقترح عليها سحب الجيش الاسرائيلي من منطقة قناة السويس، مثلما استقال فيما بعد من حكومة مناحيم بيغن عندما اتضح له انها تسعى لضم الضفة الغربية؟ صحيح انه يصعب على المرء وصف شخصية هذا الرجل.

وعيزر وايزمن ايضا، هذا الرجل الحكيم الذي تحول من «صقر» الى «حمامة» في مرحلة متأخرة جدا من حياته فقط، وكذلك الامر بالنسبة لشمعون بيرس واسحق نافون، وغيرهم. يجب عدم الاستهانة بمثل هذا التطور الايجابي الذي تميز به هؤلاء الرجال وكثيرون غيرهم. ليس هنالك وقت متأخر للنضوج، مع ان هؤلاء لم يفعلوا شيئا ملموسا حتى الآن.

ان المجتمع والدولة لا يسمحان لنفسيهما بانتظار نضوج زعمائهما المتأخر، لأن هذا من شأنه تحميلهما اعباء وتدفيعهما ثمنا باهظا، حتى يحين وقت نضوج هؤلاء الزعمـاء. واسرائيل بالذات لا تستطيع المرور بمثل هذه التجربة كونها لا تستطيع ان تتحمل التقصيرات والضربات القوية.

المصيبة، هي ان للزعماء الشباب الطموحين قوة ليست متوفرة لدى المتقدمين في السن ومنهم (وينستـون تشرتشـل الكبير الذي قبر في شبابه أفضل الشباب البريطانيين في مغامرة جليبولي، وجون كندي، إله الشباب، الذي فشل فشلا ذريعا

مخزيا في كارثة خليج الخنازير في كوبا، وهو الذي ورّط بلاده في مصيبة فيتنام).

علاوة على ذلك، ان الجيل الصاعد الشاب، مصيره السير وراء زعماء مجانين، متطرفين، مقاتلين، مؤمنين بالقوة فقط، يقحمون هؤلاء الشباب في مغامرات غير محسوبة. ومرة ثانية ان (دولة) كإسرائيل صغيرة وضعيفة ليس لها ما تحمي به عظامها الواهنة، يجب عليها ان تحذر من حماس الشباب، ومن سطحية التفكير لأولئك الذين ليست لديهم خبرة في الحياة، وبخاصة ان تحذر من اولئك الزعماء الذين لا ينضجون ابدا امثال اريئيل شارون، وغيئولا كوهين.

ولكن، لنعد الى موضوعنا: كان من الممكن اظهار معارضة للسلام الاسرائيلي - المصري، تلك المعارضة التي كانت ربما اكدت حقيقة فرضه على اسرائيل. لذلك، سواء كان مخططا له ام لا، صوّت عدد من اعضاء الكنيست من الحزبين الكبيرين في الدولة «العمل والليكود» ضد السلام مع علمهم الاكيد بأن الاغلبية المؤيدة للسلام كانت مضمونة. لكن هذا التصرف لم يكن بوسعه عدم جعل اتفاقية السلام مع مصر سابقة. انها سابقة موجودة وتحلّق فوق رأس اسرائيل كالسيف ذي حدين، في الشمال والشرق.

ماذا في الشمال، وماذا في الشرق؟

في الشمال سوريا، التي استفادت شيئا ما من الانتصار العربي الاستراتيجي في حرب ١٩٧٣، ذلك بأن حصلت من اسرائيل على كل الاراضي التي احتلها الجيش الاسرائيلي الى الشرق من هضبة الجولان، وعلى جزء معين من هضبة الجولان التي احتلتها اسرائيل في ١٩٦٧، بما فيها بلدة القنيطرة، واعلنت صراحة انها لن توقع على سلام مع اسرائيل طالما لم تسترجع كافة اراضيها التي احتلتها اسرائيل في ١٩٦٧، وحتى تقام دولة فلسطينية في الاراضي التي احتلتها اسرائيل من الاردن في تلك الحرب، وفي قطاع غزة.

كان الرد الاسرائيلي على هذا الموقف السوري المتشدد هو اعتبار هضبة الجولان جزءا من اسرائيل ومن ثم ضمها رسميا (لدولة) اسرائيل، اي ترسيخ وادامة حالة الحرب بين اسرائيل وسوريا.

هذا الامر، لم يزعج على المدى القصير، لا مصر ولا سوريا. لأن مصر انتهجت سياسة سلام منفرد واتخذت موقف الانتظار بصبر. اما سوريا، فلأنها أدركت بأنها

لن تحصل على شبر من أراضيها المحتلة بدون حرب اخرى تتلقى اسرائيل فيها ضربة قاسية او تُهزم، وان ساعة هذه الحرب، التي يجب عليها الاستعداد لها، لا بد ان تأتي في يوم ما، لكنها غير قريبة.

إن هذا الموقف السوري، الذي لا يخفى بالطبع على اسرائيل، يلزمها باستغلال اية فرصة لضرب سوريا، من اجل اضعافها وابعاد اليوم الذي ستقع فيه المجابهة العسكرية معها، وهذا الامر يجعل اسرائيل تعيش حالة عصبية دائمة.

وكلما ارادت اسرائيل ان تبرر في نظرها ونظر غيرها في العالم، ضم هضبة الجولان متذرعة بأسباب أمنية، تعرف هي ويعرف أي عنصر آخر ايضًا بأن هضبة الجولان هي ارض سورية، منذ ان وضعت الحدود في تاريخنا المعاصر في منطقة الشرق الاوسط، وانه لا يوجد سبب في العالم يجعل سوريا تتنازل عن هذه الارض.

عندما ستشن سوريا حربا على اسرائيل من اجل استعادة هضبة الجولان، سيكون من الصعب جدا على اسرائيل ان تجند لنفسها تأييدا عالميا، لأن العالم كله سوف يتساءل مندهشا: لماذا لا تطبق اسرائيل سابقة «ارض مقابل سلام»، التي جلبت ما جلبته على صعيد العلاقات المصرية ـ الاسرائيلية، في مجال علاقاتها مع سوريا؟ من هنا ينبع الشعور بعدم الامن والقلق والعصبية والتوتر، ومن هنا يأتي الانذار ويجب الخوف «من أن يأتي البلاء من الشمال»، ولهذا السبب يصيح قادة الجيش الاسرائيلي صباح مساء: الذئب، الذئب.

إن السوريين، ولسبب ما، ليسوا مصابين بمثل العصبية الاسرائيلية هذه، انهم يبنون بهدوء وبصورة متواصلة قوتهم العسكرية ويخططون لانزال ضربة قاسية باسرائيل وينتظرون الفرصة المناسبة، والانتقام باسلوب الثأر البدوي. لديهم الوقت، والاستفزازات الاسرائيلية لا توقظهم من نومهم الآن.

أما من جهة الشرق، في المناطق الواقعة بين الخط الاخضر ونهر الاردن ـ وكذلك في قطاع غزة ـ ليس الامر كما هو في سيناء الخالية، وفي هضبة الجولان قليلة السكان التي أُفرغت من سكانها السوريين في منطقتي الجنوب والوسط، فقد بقي تحت الحكم الاسرائيلي بعد الاحتلال ما يزيد على مليون ونصف مليون مواطن فلسطيني في الضفة وغزة. ليس لأن اسرائيل لم تحاول طرد هؤلاء السكان الى ما وراء نهر الاردن أثناء الحرب، بل لأنها استطاعت فقط طرد ـ على الاقل ـ (١٠٠)

ألف، وهناك من يقول ٢٥٠ الفا، (طُرد سكان عدة قرى عربية تقع في أطراف سهل إيلون، وقد دُمرت هذه القرى نهائيا، كما طُرد سكان مخيمات اللاجئين التي كانت قائمة في غور الاردن).

على اية حال، لم تتكرر عملية تهجير الفلسطينيين التي نفذتها اسرائيل في حرب ١٩٤٨، في هذه المرة، سواء لأن الفلسطينيين تعلموا الدرس، او لأن الحرب هذه المرة كانت قصيرة، أو لهذين السببين معاً؛ (لم يكن بالامكان طرد اكثر من حوالي نصف مليون فلسطيني من قطاع غزة).

الاحتلال الاسرائيلي في الجنوب، والشمال، والشرق ـ من خطط له، من قرر تنفيذه على هذا النطاق؟ لماذا لم تكتف اسرائيل في حزيران ١٩٦٧ بتوجيه ضربة عسكرية لمصر فقط، واستغلت الفرصة لضرب السوريين والاردنيين؟ لماذا لم تكتف بنصر عسكري فقط، بل احتلت الاراضي؟

وعندما لم تنسحب من الاراضي المحتلة فورا، لماذا لم تعلن جهارا على انها تحتفظ في هذه الاراضي كوديعة على استعداد ان تردها الى اصحابها الشرعيين مقابل الدخول في مفاوضات من اجل تحقيق سلام نهائي؟ لماذا لم تعلن ان هذه الاراضي عربية ليس لنا بها شأن، هذه اسرائيل لنا فقط التي رُسمت حدودها في حرب ١٩٤٨، وليست لنا أطماع بأي شبر آخر، ونحن نرفض أي ادعاء يقول ان اسرائيل (دولة) امبريالية تسعى الى التوسع؟ ما هو الخطأ الاساسي والجوهري في نظرية: «كلما زادت الاراضي، كلما اصبح الامن اكثر ضمانا»؟ ان الخطأ يكمن في تجاوز مبدأ «حدود القوة». توجد حدود لقوة دولة ما ـ كل دولة في العالم ـ على السيطرة بصورة دائمة على مناطق اخرى تضمها الى اراضيها الاصلية، وعلى سكان يخضعون للاحتلال لن تستطيع الدولة المحتلة تذويبهم وارغامهم على قبول الاحتلال. وهناك امثلة واضحة للعيان: (الولايات المتحدة في فيتنام، والاتحاد السوفياتي في افغانستان).

اسرائيل، الصغيرة التي تعيش فيها اقلية فلسطينية كبيرة التي تشكل اغلبية في معظم التجمعات السكانية فيها، فهي حتما ينطبق عليها مبدأ «حدود القوة».

ولكن أين تقع حدود القوة هذه بالنسبة لاسرائيل؟ هل يمكن رسمها بدقة علميا، طبوغرافيا، دينيا؟ بالطبع لا. ورغم ذلك أستطيع التأكيد بأن هذه الحدود

بالنسبة لاسرائيل تبلغ اقصى مدى لها، في حدود خطوط الهدنة في حرب ١٩٤٨.
لماذا؟

اولا: إنها تلامس (الحدود اللبنانية والسورية والمصرية والاردنية)، الحدود الدولية.

ثانيا: لأن الدول العربية اعترفت بهذه الخطوط بعد توقيع هذه الدول على اتفاقية الهدنة في نهاية حرب ١٩٤٨.

ثالثا: لأن معظم دول العالم اعترفت بهذه الحدود.

رابعا: وهو الاهم، ان حكومة اسرائيل اعلنت على الملأ، بأن هذه حدودها النهائية، وذلك في اطار ردها على الادعاءات العربية بأن (دولة) اسرائيل لن تكتفي بهذه الحدود نظرا للطابع التوسعي للحركة الصهيونية.

ولكن، ربما يسأل سائل: ما هو الفرق بين هذه الحدود او تلك، اذا كانت الدول العربية تسعى للقضاء على اسرائيل والقائها في البحر؟

يوجد فرق هائل، ولن يكون من الصعب ادراكه لمن اراد ان يفهمه ويدركه.

«حدود القوة» لأية أمة، هي مصطلح عملي لكنه معقد جدا، حقيقي جدا، لكنه ليس علميا وكميا. ان مركباته وعناصره بالنسبة لكل دولة، هي عبارة عن مجموعة متغيرة من العناصر الطبيعية والمجردة: مقاييس ومساحات ارض، سكان، موارد، طوبوغرافيا، مستوى صناعي واتصالات، حجم الجيش ونوعية تسليحه، أحلاف، نوعية العدو أو الاعداء وقوتهم، وحدود قوتهم، وغير ذلك. ثم نوعية الجيش والمعنويات ودوافع القتال لدى كل فرد من الجندي وحتى القائد الاعلى، ومدى الاستعداد للتضحية من اجل ما هو حيوي ومصيري في نظر الجنود وقادتهم، وما هو غير حيوي ومصيري بنظرهم ايضا. وهنا يكمن مصدر التناقض في الدافع القتالي للجيوش الذي سبق ان اشار اليه في حينه اللواء اسرائيل تال - الذي لم يكن صدفة عدم تعيينه رئيسا لهيئة الاركان العامة - حيث قال:

«ان قوة الدافع لها علاقة مباشرة مع مدى حيوية المصلحة الفردية والقومية. ان مدى حيوية المصلحة هو الذي يحدد مستوى الثمن الذي يكون الفرد والجماعة على استعداد لدفعه من أجل المحافظة على هذه المصلحة. يوجد بيننا من يدعو الى استخدام القوة بصورة غير محدودة في سبيل خدمة اهداف قومية بعيدة المدى.

انهم يناشدون جيلنا ليدفع اي ثمن في سبيل تحقيق الاهداف المنشودة للاجيال القادمة. واحيانا، يجرون مقارنة احصائية بين عدد الضحايا في حروبنا وبين عدد ضحايا حوادث الطرق، او بين عدد ضحايانا وبين عدد ضحايا فنلندا ؟في حربها ضد الاتحاد السوفياتي).

إن هذه النظرة لا تكون موضوعية عندما نتحدث أو نبحث موضوع «الدافع». فالدافع ليس حسابا احصائيا مجردا، انما هو عنصر اساسي يوجه الانسان في قراراته بشأن ما هو مناسب وجدير بالتضحية بحياته او بحياة ابنائه.

إن بني الانسان على استعداد لدفع أبهظ ثمن من أجل المحافظة على بقائهم ووجودهم الطبيعي (الجسدي) والقومي. لكنهم لا يكونون على استعداد لدفع ثمن باهظ من أجل أخطاء، او تقصيرات او سياسة غير مقبولة لديهم. ان قوة الدافع ترتبط ارتباطا وثيقا جدا بمستوى الاتفاق العام او الاجماع العام على الاهداف المتعلقة ببقاء الامة، ان بني الانسان، يشعرون بأنه لا يجوز لهم ابدا المجازفة بحياتهم او التضحية بها، من اجل الدفاع عن الحياة والحرية فقط. طالما بقينا نحارب في سبيل تحقيق هذه الاهداف (المتعلقة بوجودنا) سيكون لدينا احتمال كبير في بقاء دافعنا للقتال اعلى بكثير من دافع اعدائنا.

مناظرة بسيطة: ان توسيع مجمل الاهداف، يؤدي الى انخفاض في الدافع، وبنفس الوقت الى تقليص حدود القـوة، في حين ان التمسـك بالاهداف المتعلقة بالبقاء، من شأنه توسيع دائرة حدود القوة، يستفاد من هذا كله ان الاستعداد لاستخدام القوة بصورة مفرطة، يؤدي الى تحديد حدود القوة».

(معرخوت)، اكتوبر ١٩٧٩، العدد ٢٧٠/٢٧١

في كل فترة زمنية تتراوح ما بين ٨ ـ ١٠ سنوات ينشأ جيل جديد، متعطش للمغامرات العسكرية، فماذا يعنيه مبدأ «حدود القوة»؟ ماله ولهذا المبدأ. لقد تحدث موشه شريت بشأن هذا الجيل وبشأن زعمائه الذين يستنزفـون دمه، بقوله: «انهم كما القرد في المثل العربي القائل: «وجد قرد مبردا، وبدأ يلعقه، حتى بدأ لسانه ينزف دما، اخذ يبلع دمه وهو يعتقد انه يلعق الدم عن المبرد، حتى تآكل لسانه ومات...».

نجد هنا، ان احد العناصر الرئيسية للقوة بالنسبة (لدولة) صغيرة وقليلة

الموارد كإسرائيل، هو عنصر النظرة الخارجية اليها، اي ما هو معروف «بالرأي العام الدولي».

يصعب علينـا التسليم بوجـود هذا العنصر، لأنـه يمس بالكرامة الذاتية القومية. ان اي ارتباط بجهة اجنبية لا يكون مشرفا للجهة المرتبطة سواء كان المرتبط فردا، او جماعة، او دولة بكاملها. ولكن ما العمل اذا كان مثل هذا الارتباط يشكل عنصرا طبيعيـا حيويا بالنسبة لاسرائيل، التي قامت بمساعدة أجنبية، وموجودة بمساعدة أجنبية، ولن تكون قادرة على البقاء بدون مساعدة أجنبية الى الابد؟

إن الوجود اليهودي في (أرض اسرائيل)، لم يكن ليصبح دولة الى الآبد لولا الانتداب الذي حصلت عليه بريطانيا على (أرض اسرائيل) في اعقاب الحرب العالمية الاولى التي احتلت اثناءها الجيوش البريطانية هذه الارض ولولا وعد بلفور البريطاني.

ولم تكن (دولة) اسرائيل لتقوم وتبقى لولا الضغط الامريكي في اعقاب الحرب العـالمية الثانية من اجل السماح بدخول ١٠٠ الف ناج من الكارثة الى (ارض اسرائيل)، ولولا الضغط العالمي على بريطانيا التي جعلت من قبرص معسكرا لحشد وتجميـع النـاجين من الكارثة النازية الذين ارادوا الهجرة الى (ارض اسرائيل) والاقامة فيها، ذلك الضغط الذي جعلها تكره انتدابها على (ارض اسرائيل)، ولولا قرار التقسيم الذي نص على تقسيم (ارض اسرائيل) الى دولتين، يهودية وفلسطينية الذي اتخـذتـه الامم المتحـدة، ولولا المساعدة الحيوية التي تلقتها من الاتحاد السوفياتي في حرب ١٩٤٨.

إن (دولة) اسرائيل لم تكن لتبقى على وجه البسيطة لولا المساعدات والمنح والقروض التي تلقتها ولا زالت تحصل عليها من الولايات المتحدة، ولولا التعويضات المالية التي تحصل عليها من المانيا الغربية، ولولا الاسلحة التي اشترتها من فرنسا وبريطانيا ودول غيرها مقابل الدفع، وبخاصة الولايات المتحدة التي تحصل اسرائيل منها على الكثير من الاسلحة والمساعدات مجانا.

ان حدوث تحـوّل شديـد في الرأي العـام العالمي الذي قد يحدث نتيجة للتصرفات الاسرائيلية الفاشية والامبريالية، او نتيجة للابتعاد عن سنوات الكارثة أو نتيجة لانخفاض عدد الاقليات اليهودية في المهجر، وبخاصة اولئك اليهود في

الولايات المتحدة، من شأنه جعل اسرائيل تواجه وضعا نفسانيا، سياسيا، اقتصاديا، وعسكريا اصعب من ان تتحمله، وسيجعل منها فريسة سهلة تغري اعداءها ويجعلها عرضة للخراب ولدمار بيتها الثالث، على شكل «متساداه جديدة».

قد تتساءل الزعامة الاسرائيلية الحالية: «لماذا مسموح للآخرين، ولنا غير مسموح؟». لماذا يُسمح للروس باحتلال أراض، ولنا لا؟

«ما مدى وقاحة الامريكيين الذين يحتفظون بقواعد لهم في جميع ارجاء العالم، ويطلبون منا الانسحاب من مواقعنا في (أرض اسرائيل؟)»، «ولماذا يُسمح للجزائريين حصد الانتفاضيين لديهم بالمئات، ولا احد يفتح فمه؟».

إن الجواب على كل هذه التساؤلات، بسيط للغاية مع انه عنيف لدرجة الاحباط وهو: لأن اسرائيل ليست الولايات المتحدة، ولا الاتحاد السوفياتي، ولا حتى الجزائر.

إن شخصية الاسرائيلي كصاحب حضارة تلزمه بالتعرف بصورة ملائمة لهذه الصفة، وان ثمن الشذوذ والخروج على هذه الصفة، يجب أن نأخذه في الاعتبار لدى مقارنة حدود القوة بالنسبة لاسرائيل. وان عدم الاهتمام بهذه المقارنة بصورة واقعية ـ وليس كما يريدها البعض ان تكون ـ من شأنه فقط تخفيض اسهم اسرائيل في بورصة الرأي العام الدولي التي لا يكثر فيها مؤيدو اسرائيل اصلا.

انتم، ايها الداعون الى محاكاة الروس، بما يفعلونه بالافغانيين، والعراقيين بالاكراد، والجزائريين بالجزائريين، لماذا لا تفعلون مثلهم؟ لماذا لا تذبحون المنتفضين الفلسطينيين بالمئات، لماذا لا ترحّلونهم وتطردونهم من أراضيهم؟ ماذا تنتظرون؟ لماذا تترددون؟..

هل تترددون في تنفيذ اهدافكم وغاياتكم هذه، لأنكم تخشون فقدان الشخصية اليهودية الايجابية ذات الآلاف من السنين؟ ام لأن تنفيذ ذلك غير ممكن من الناحية العملية، لأنكم شعب صغير، يراوح مكانه من حيث التكاثر السكاني، هذا اذا لم يكن في تناقص مستمر؟ هل لأن مساحة دولتكم مع كل ما احتللتم وضممتم، يعتبر لا شيء، وان مواردكم محدودة؟ أم أنكم ربما تخشون أن يبدأ العالم ينظر إليكم كما ينظر للعراقيين أو الجزائريين، وهذا بنظركم لا يجوز، أو خطير؟

إذاً، إجلسوا بهدوء، إلزموا السكينة، ولا تلعبوا لعبة تحريك الشعوب والحدود.

في الواقع، اعترفت اسرائيل مرغمة بشرعية الحدود الدولية بينها وبين مصر، في اعقاب الانتصار الاستراتيجي المصري في حرب ١٩٧٣، وبعد فقدان ٣٠٠٠ قتيل وحوالي ٩٠٠٠ جريح ومشوه، وبعد فقدان مليارات الدولارات فقط. وكل هذه الخسائر لم تكن كافية لحمل اسرائيل على الاعتراف بشرعية الحدود الدولية بينها وبين سوريا، وفق معاهدة سلام، وان تفضل ذلك على الحرب القادمة التي لا بد أن تندلع عاجلا أم آجلا.

إن نظرية موشه ديان القائلة: «شرم الشيخ بدون سلام، أفضل من سلام بدون شرم الشيخ»، التي قُبرت ليس في رمال سيناء فقط، إنما في المقابر العسكرية الاسرائيلية من دان وحتى ايلات، ودفنت معها ايضا موشه ديان نفسه، على الرغم من كل ما حاول التكفير به عن خطاياه عندما حاول اقناع رئيس حكومته مناحيم بيغن باتخاذ موقف ايجابي تجاه مبادرة السادات.

لا زالت هذه النظرية قائمة بالنسبة لهضبة الجولان، أضف الى ذلك ان اسرائيل اضافت هنا خطأ الى جريمتها بالنسبة لهضبة الجولان، بأن ضمتها رسميا الى (دولة) اسرائيل.

«لا تخف يا عبدي يعقوب!». هذا بعض ما كان يردده موشه ديان ايضا. لماذا لا يخاف؟ هل تبرر المقابر العسكرية الاسرائيلية، والمساحات القريبة منها المعدة لاستقبال القتلى الجدد، الدعوة الى عدم الخوف؟ هل يوجد في اسرائيل جندي واحد لا يخاف أن يسقط يوما ما هكذا عبثا؟ هل هناك والد لا يخاف على ابنه؟ هل توجد امرأة لا تخاف على زوجها، أو ابن على نفسه أو على أخيه أو أبيه، أو إبنة لا تخاف على أبيها أو أخيها؟

هل تنقصنا الارامل، والايتام والأُسر الثكلى؟ هل ينقصنا مشوهون، أو معاقون؟ ألسنا بحاجة فعلاً، لأولئك الـ ١٤,٥٠٠ ضحية الذين سقطوا حتى الآن على مذبح أمن اسرائيل ـ ومن يدري كم من هؤلاء سقطوا هكذا عبثا، ومن يدري ما اذا كان غياب هؤلاء هو الذي جعل المجتمع الاسرائيلي، و(دولة) اسرائيل ذات عاهة لدرجة لا يمكن اصلاحها؟

كم من الآباء والأبناء والاخوة، يجب ان يسقطوا على ارض ليست لهم، وفي سبيل ادامة النزاع والعداء، في حرب قادمة؟

إن المجتمع الاسرائيلي الذي أبدى تحفظه تجاه موشه ديان لدرجة التنديد به، رغم خدماته الحميدة، هنا وهناك، لم يستنكر نظريته التي أورثها لمن بعده، «شرم الشيخ بدون سلام افضل من سلام بدون شرم الشيخ».

هذا المجتمـع لا يزال يطبق وينـادي بتطبيق هذه النظرية وعلى استعداد للمراهنة. المجتمع الاسرائيلي يتنكر للخطر الفظيع الناجم عن تنكره للحدود الدولية والحقوق الوطنية للفلسطينيين، الذي قد يؤدي حتما في نهاية المطاف الى تنكر العالم لادعاء اسرائيل بالشرعية الدولية لوجودها ذاته.

ان هذا المجتمع المخمور لا يدرك، ولا يريد ان يفهم ويتعلم، لأنه هكذا أراده زعماؤه، بأن رفض هذه الشرعية معناه سحب بساط البقاء من تحت أرجل (دولة) اسرائيل.

لقد تعلّم هذا المجتمع على أيدي زعمائه بأن الامم المتحدة «جدباء» لا فائدة ترجى منها، وأنه ليس المهم ما يقوله «الغرباء»، بل ما يفعله اليهود».

بالطبـع، لم يبـدأ هذا مع قيام (الدولة)، بل سبقها بكثير. حركة هشومير (الحارس) نقشت على علمها «بالدم والنار، سقطت يهودا، وبالدم والنار تقوم يهودا».

كما ان الشبيبة اليهودية الشمشونية كانت تنشد بفخر واعتزاز: «ليس هناك شبر من أرضنا، لا يُفتدى بالدم».

وها هو البلماخ، بدأ تقليد الصعود الى متسادا، وتقديس مبدأ الموت كحل إيجابي جماعي. اذ ان مجتمعا محاربا، محتلا، يتوجه نحو الحرب دائما وابدا، بحاجة ماسة جدا لإله يقدس الموت. غير أنه يجب ان نعرف بأن دفع ثمن باهظ في سبيل نهضة الشعب اليهودي وحياته، شيء، واستغلال حماس الشباب اليهودي وتضحياته لتحقيق اهداف الاحتلال والتوسع، شيء آخر تماما.

في مثل هذا الوضع، لا بد أن تبرز مسألة الربح والخسارة، الانجاز والثمن. وليس من المعقول أن لا ينهار الاجماع الوطني ـ القومي لشعب يحارب من أجل البقاء مدافعا عن وجوده بالذات، عندما تكون الحرب المفروضة عليه لا تهدف الى الدفاع عن هذا الوجود، انما تهدف الى تحقيق اوهام واحلام «اسرائيل الكبرى»،

و«أرض اسرائيل الكاملة»، التي تبعد كثيرا عن قاعدة البقاء.

هذا التوجه، من شأنه احداث هجرة معاكسة، ويطرد من اسرائيل كل من يقول: «عسلك يا نحلة ولا تقرصيني»: أستطيع العيش بشكل آخر، في بلاد أخرى، حسب قائمة أخرى من الربح والخسارة، ومقاييس أخرى للمكسب والثمن - ليس في جنة عدن، لأنه لا توجد مثل هذه الجنة على الارض - ولكن ليس في مواقع حربية.

هل من الغريب، ان توجه الانتقادات للحرب بين كل حرب واخرى في اسرائيل، هل من الغريب ان يدرك الشعب الاسرائيلي ويتعمق لديه الوعي للثمن الذي يتكدس نتيجة لهذه السلسلة الطويلة من الحروب، ليتساءل: هل هذا الثمن مناسب لهذه الحروب واهدافها او هل هو ممكن دفعه؟

شيىء واحد على الاقل، يجب على دعاة الحرب ومؤيديها أن يفهموه ويأخذوه بنظر الاعتبار عندما يخططون ويرسمون خطواتهم القادمة على الخريطة وهو: ان الايمان بالحرب القادمة - التي ستدار ليس في المختبر، انما في ساحة دامية تشكل الحل لجميع المشاكل - يوجد في الحضيض؛ وان الافتراض بأن الحرب القادمة ستكون اسوأ الحروب الاسرائيلية التي سبقتها، هو السائد الآن. يجب ان يعرف اولئك المخططون للحرب القادمة، ان مثل هذه الحرب لن تحظى بإجماع وطني بشأنها. وليفهم هؤلاء ايضا ان نظرية كل ٨ - ١٠ سنوات ينشأ في اسرائيل جيل جديد لا يبالي بالموت على مذبح أمن (الدولة)، اصبحت اضعف بكثير مما كانت عليه.

لقد أصبح عدد الجنود الذين لا يؤيدون العمل (القتال) خارج حدود اسرائيل اكبر بكثير، وفي زيادة مستمرة. في الحرب القادمة لن تجد الكثير منهم، يدقون ابواب السفارات الاسرائيلية والقنصليات للالتحاق بوحداتهم عندما تندلع الحرب.

إن أي زعيم اسرائيلي يحترم نفسه وله مكانة سياسية وشأن في الحياة السياسية في اسرائيل، لم ينهض ليحارب علانية بكل شجاعة، هذه الكذبة المخيفة والخطيرة المتمثلة بمبدأ وعقيدة «الحروب الاسرائيلية العادلة».

لهذا السبب، المجتمع الاسرائيلي هو مجتمع كذاب، وسيظل كذابا، ولهذا ايضا فهو يحفر بهذا الشكل قبره الحقيقي، ذلك لأن الكذب له فم واسع للبلع، وله أسنان للقطع، وايد للخطف، وربما معدة للخزن. لكنه ليست له امعاء طويلة

كافية للهضم. وليست له ارجل لحمل هذا الجسم السمين الذي يزداد سمنة باستمرار.

ألم يحن الوقت الذي تتحول فيه المقابر العسكرية في اسرائيل الى ساحات وميادين لمظاهرات الاحتجاج، التي من شأنها اسقاط حكومات، وتغيير سياسات؟ المقبرة العسكرية الاسرائيلية، بدلا من أن تكون مدرسة للحياة، ولمحاسبة النفس القومية التي من شأنها أن تؤدي الى تغيير مسار الحروب، تستخدم معهدا لغسل الدماغ القومي لتبرير حكم الموت الذي يصدر على ابناء اسرائيل بقرارات سياسية، تلك القرارات التي كان قد رفضها الكثيرون من هؤلاء الضحايا الراقدين في هذه المقبرة، قبل موتهم..

لا شك، انه بسبب عدم رغبتها وعدم استعدادها للاعتراف بكون الفلسطينيين شعبا ككل الشعوب مع كل ما يترتب على هذا الاعتراف بالضرورة، ليس لاسرائيل شأن في حل هذه المشكلة بشكل يخلق الاستقرار ويقلل من خطر اندلاع مجابهة عسكرية جديدة في المنطقة.

علاوة على ذلك، أي شأن لاسرائيل في التقارب الامريكي - الروسي، وفي الهدوء الدولي، اذا كان سيؤدي حتما الى توسع نطاق هذا الهدوء الى مناطق أخرى من ضمنها الشرق الاوسط، وستكون من نتائجه الحتمية سلام اسرائيلي - عربي مفروض مبني على اساس اعادة جميع الاراضي المحتلة؟

لذا، فاسرائيل تقف الآن خارج اطار مسيرة السلام العالمية، وهي عمليا ترفضها، اذ ان السعي الى تحقيق سلام اقليمي وعالمي معناه بالنسبة لاسرائيل السير نحو التسوية، والاعتراف بالفلسطينيين وبحقهم في تقرير مصيرهم في اطار المسيرة العالمية، مسيرة التسليم والمصالحة..

وبدلا من فهم هذه المسيرة السلمية الشاملة، العالمية، على أنها تستطيع تحديد وتقييد الطموحات القومية والوطنية المتطرفة للفلسطينيين، ومن شأنها فرض تسوية حل وسط على الطرفين (اسرائيل والفلسطينيين) التي ستكون لمصلحة ورفاهية الطرفين في نهاية الامر، ظلت اسرائيل متمسكة بادعائها: «انهم يريدون حيفا ويافا ايضا»، الامر الذي يجعلها تتبع سياسة سلبية التي ستؤدي في النهاية الى حرب فظيعة.

في مثل هذا الوضع، لا بد أن يسأل اسرائيليون كثيرون أنفسهم، ما اذا كان من الاجدر والافضل لهم هجر القطار التاريخي الشرق اوسطي، المضطرب الذي يشهد الحرب تلو الاخرى، والصعود الى قطار تاريخي آخر، الذي لا يخلو من هزات متنوعة، لكنها بدون شك اكثر نعومة وسكونا، ولن ينته في آخر الامر الى جسر مهدوم.

ان اسرائيل الصغيرة التي تحتاج الى السلام حاجتها الى الهواء كي تستطيع حشد طاقاتها ومواردها لتحقيق التقدم الاجتماعي والاقتصادي، عزلت نفسها عن مسيرة الاعتدال العالمية.

«شعب يعيش معزولا، ولا يهتم بالغرباء» الذي دفع خلال مسيرته التاريخية المرة تلو الاخرى ثمن «العزلة»، وثمن عدم الاهتمام بالواقع الذي يحيط به، ها هو يفعل ذلك مرة أخرى.

إنه الغباء. كيف يمكن تفسير هذا؟

على اية حال لنعد الى السؤال الساذج: انتم ايها الروس، انكم مراؤون، تطلبون منا ان لا نعمل ما تسمحون انتم لأنفسكم عمله، ألا تخجلون؟

هذا السؤال، سؤال غبي. فموسكو، بكل بساطة، لا تتأثر، ولا تخجل بمثل هذه التساؤلات الساذجة، لسبب بسيط وهو ان حدود قوتها التي تختلف من حيث الكم والكيف عن حدود قوة (دولة) اسرائيل، تسمح لها بذلك، تسمح لها بعدم التأثر وعدم الخجل، وحتى تجاهل الانتقادات مهما كان نوعها طالما ظلت الامور تنسجم مع المصلحة القومية الروسية. بالطبع، توجد لموسكو حدود قوة، وبالطبع توجد لها مصالح حساسة ومصالح اقل حساسية، وقد تخطىء في حساباتها في هذا المجال (كما حدث لها في القضية الافغانية)، ولكن موسكو تستطيع أن تسمح لنفسها بارتكاب «غلطة افغانية» ثانية وثالثة، في حين ان غلطة واحدة بحجم «غلطة افغانستان» او اقل من ذلك، قد تكلف اسرائيل وجودها برمته.

ان اسرائيل هي من الدول الاكثر شذوذا بين دول العالم:

- إنها (الدولة) الوحيدة في العالم التي قامت من خلال القفز فوق خرائب سيادة ضاعت قبل ٢٠٠٠ سنة في هذا الاقليم من العالم.
- ليس لها دولة شقيقة، ليس فقط في القومية انما ولا في الدين واللغة ايضا.
- زاد عدد سكانها اليهود منذ قيامها في ايار ١٩٤٨ وحتى ١٩٨٧ ستة

اضعاف تقريبا، ورغم ذلك، نجد اغلبية الشعب اليهودي (حوالي ٧٥٪)، التي قامت هذه (الدولة) باسمه ومن أجله، تعيش خارجها ولا تفكر في الاستيطان والعيش داخلها.

- قسم كبير - حوالي ٥٠٪ من مواطني اسرائيل اليهود هم مهاجرون داخليون.

- حوالي ١٠ - ١٥٪ من مواطنيها هاجروا منها الى الخارج خلال الاربعين سنة الماضية، وبخاصة الى الولايات المتحدة الامريكية.

- انها الدولة الوحيدة في العالم التي قامت بفضل قرار من الامم المتحدة، رغم معارضة عدد من الدول الاعضاء في هذه المنظمة، تلك الدول التي غزت جيوشها ارض (دولة) اسرائيل غداة الاعلان عن استقلالها، من اجل منع قيامها وبقائها.

- انها ترى في كل يهودي يعيش في اية زاوية من زوايا العالم، بدون أخذ رأيه، مواطنا اسرائيليا وتمنحه الجنسية بصورة اوتوماتيكية، فور ان تطأ رجله ارضها، ويعلن عن نفسه «مهاجرا» لها.

- منذ يوم ولادتها وحتى ١٩٧٨ - عندما وقعت على اتفاقية سلام مع مصر

- أي طيلة ٣٠ سنة متواصلة، كانت اسرائيل محاطة من جميع جوانبها بدول معادية.

- خلال اربعين سنة من عمرها، كانت اسرائيل متورطة في خمس حروب، وبمصادمات عسكرية، لا تعد ولا تحصى، على طول حدودها، وفي عمليات ارهابية متنوعة داخل اراضيها، وضد مواطنيها في جميع ارجاء العالم.

- توجد فيها اقلية فلسطينية كبيرة، زاد عددها منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٨٨ من حوالي ١٦٠,٠٠٠ نسمة الى ٧٥٠,٠٠٠ نسمة، وتشكل أغلبية في منطقتي الجليل الاوسط، والجليل الغربي.

- ليس لها دستور.

- ليس فيها فصل بين الدين و(الدولة).

- من بين الدول المعترفة بها، توجد دولتان فقط تعترفان بالقدس كعاصمة لاسرائيل، وتوجد سفارات الدول المعترفة بها، في تل ابيب.

- الاتحاد السوفياتي، وهو اول دولة في العالم اعترفت بوجود اسرائيل، قطعت

علاقـاتهـا الدبلوماسية معها مرتين، في عام ١٩٥٢، وعام ١٩٦٧، ولم تستأنف علاقاتها حتى الآن..

- حدود اسرائيل ليست نهائية.

ها نحن نجد امامنا نموذجا شاذا اضعافا مضاعفة، لدرجة يجعل صاحبته (اسرائيل) جديرة بادراج اسمها في «كتاب الارقام القياسية» كتاب «جينس».

ان السؤال هل هذه الدرجة من الشذوذ هي «لمصلحة اليهود أم «ليست لمصلحة اليهود» سيناقش من تلقاء نفسه في الصفحات التالية من هذا الكتاب.

وسنبحث الآن مسألة الحدود غير النهائية، التي انتهت بها قائمة الشواذ، وبها بدأ في الواقع انحرافي عن الموضوع الرئيسي.

أدولف هتلر، ويوسف ستالين، كانا آخر الزعماء العظام في العالم الذين نظروا الى اطلس العالم امامهم ورسموا فيه، على مزاجهم، تغييرات على الحدود والسيادة، ثم نفذوا ذلك عمليا.

غير ان زعماء اصغر منهم، هنا وهناك، في عالمنا، وبخاصة في الدول الصغيرة التي ينقصها التكوين النهائي، اي التي لم تكتمل بعد، او تلك التي ورثت اراضيها من مخلفات الدول الاستعمارية المتنافسة فيما بينها، فقد وضعوا ولا زالوا نصب أعينهم مطامع واهدافا لتغيير ما هو في نظرهم تشوهات او ظلم في الحدود السياسية، أمن الغريب ان تكون (دولة) اسرائيل قد حباها الله بمثل هذا النوع من الزعماء؟

ماذا قصد بن غوريون في قوله المأثور: «وصمة عار» بشأن عدم احتلال جبل الخليل في حرب ١٩٤٨؟

هل أراد أن يؤكد بأنه ليس من المتوقع ان يُصحح هذا التقصير في المستقبل المنظور، ام انه اراد التلميح بأنه يجب التغلب على هذه المصيبة الفظيعة في اقرب فرصة ممكنة لمصلحة «الاجيال القادمة»؟

ألم تكن حدود تدحرج القوات العسكرية الاسرائيلية الى لبنان وسيناء في حرب ١٩٤٨، وبعد ذلك الى سيناء في حرب ١٩٥٦، وبعدها في كل اتجاه في حرب ١٩٦٧، وبعدها في حرب ١٩٨٢ في لبنان تعبيرا صادقا لهذه الاطماع التي تهدف الى تعديل وتـوسيـع الحـدود الاسرائيليـة بحجة المبادىء التكتيكية والاستراتيجية والموارد القومية، والاعتبارات التاريخية والدينية؟

هل يُعقل، على سبيل المثال، بأن ضابطا كبيرا في الجيش الاسرائيلي كان في صباه قد تجول ابان عهد الانتداب البريطاني، وتعرف جيدا على جبل يهودا، وصحراء يهودا، وجبال نابلس، وغور الاردن، بينما كان يحرث هذه الاراضي وهو يحمل في يده كتاب «التناخ» في اطار حركات الشبيبة، وجولات الهاغاناه، والبلماخ، واصبح الآن تحت امرته قوة عسكرية محترمة، «سيكتفي» اذا سنحت له «فرصة تاريخية» من شأنها ان تؤدي الى حرب مع الاردن فقط بتحقيق حرية الوصول الى حائط المبكى من اجل اليهود المتدينين المعنيين بذلك، والحصول على طريق حر للوصول الى الجامعة العبرية ومستشفى هداسا فقط؟

هل سيكون من الغريب ان يطمح مثل هذا الضابط الى احتلال غوش عصيون، الذي سبق ان سقط فيه أفضل زملائه في حرب ١٩٤٨، وان يستولي على كل منطقة ظهر الجبل من أجل مد خط حدود مستقيم على نهر الاردن بصفته حدودا «طبيعية»؟..

وهل قول دافيد بن غوريون «وصمة عار» لن يشكل حافزا لمثل هذا الضابط الاحتلال اراض جديدة؟ ونفس الشيء ينطبق على هضبة الجولان وسيناء وعلى طول الحدود الاسرائيلية.

هل من الممكن أن يفكر مثل هذا الاسرائيلي اذا سنحت له مثل هذه «الفرصة التاريخية» قبل ان يتخذ قراره ويسأل نفسه: ماذا افعل؟ ما الذي سأجلبه في خطواتي هذه على (دولة) اسرائيل؟ ما الذي سأحمله اليوم او غدا او بعد غد، لشعبي وأولادي واحفادي؟ ما نوع العفاريت التي قد أُطلقها من قماقمها بفعلتي هذه؟ ما هي المشاكل الاقليمية والدولية التي قد أُثيرها؟ وماذا سيكون مصير السكان المحليين والفلسطينيين سكان المناطق التي سأحتلها؟ كلا..

هل في مثل هذه اللحظة التاريخية النادرة التي يمكن لهذا الضابط الاسرائيلي ان يرسم خريطة شرق اوسطية جديدة، سيخطر على بال مثل هذا الضباط ان يفكر بالفرق بين احتلال اراض اخرى جديدة وضمها (لدولة) اسرائيل في عام ١٩٦٧، وبين احتلال الجليل الاوسط في ١٩٤٨؟ وما هي اوجه الشبه والاختلاف بين الحالتين؟ وما هو الممكن وغير الممكن؟ وما المناسب وغير المناسب؟ وما هو مسموح وما هو ممنوع؟

ان مثل هذه الفرصة التاريخية، لا بد ان تمر كلمح البصر. وماذا بعد ذلك «وصمة عار جديدة»؟ أليس التاريخ البشري هو في نهاية الامر مجرد ثمرة صراع عنيف بين شعوب على أراض، وثمرة تجارب واخطاء؟

انه من المؤكد حتما بأن مثل هذه التساؤلات لم تكن لتخطر على بال احد من القادة الاسرائيليين سواء العسكريين أو السياسيين، ذلك لأن تفكيرهم تركز باستمرار على اطماعهم بشأن تعديل الحدود وتوسيعها، وضم أراض جديدة (لدولة) اسرائيل. والا ما تفسيرنا لتدفق الجماهير الاسرائيلية، وليس العسكريين فقط، الى شوارع ومدن الضفة الغربية فور احتلالها في حرب ١٩٦٧؟

إن ميزان الايجاب والسلب، فيما يتعلق بضم الجليل الاوسط، الذي يشكل الفلسطينيون اغلبية فيه، في (دولة) اسرائيل، لم يُحسم بعد. ولم يتضح مصيره نهائيا، هل هو «سويسري» ام «شمال ايرلندي» ـ ونفس الشيء ينطبق على ضم المنطقة الواقعة الى الغرب من وادي عيرون ـ عاره بما فيها مدينة ام الفحم الفلسطينية. وليس من قبيل الصدفة ابدا ان الاتحاد السوفياتي الذي اول من سارع للاعتراف باسرائيل قبل اندلاع حرب ١٩٤٨، لم يسبق ان اعترف ابدا بضم الجليل الاوسط لاسرائيل، الذي خُصص من قبل الجمعية العامة للامم المتحدة للدولة الفلسطينية التي كانت من المقرر ان تقام في «ارض اسرائيل» الى جانب (دولة) اسرائيل.

يزيد عدد الفلسطينيين في المناطق التي احتلتها اسرائيل من الاردن على ٥٥٠ الف نسمة، وفي قطاع غزة الذي احتلته اسرائيل من مصر على ٣٥٠ الفا. هذا العدد الهائل من السكان الفلسطينيين، لم يشعر بوجودهم احد من القادة الاسرائيليين، ولم يعترفوا بوجودهم ولم يفكروا بمصيرهم ومستقبلهم ابدا.

صحيح انه شُكلت لجان متنوعة لبحث موضوع الفلسطينيين، ولا شك بأنه كُتبت مذكرات ذكية مثل مذكرة «لجنة رحوفوت» التي اوصت في حينه على تطوير وتصنيع «الضفة الغربية» وتحويلها الى «هونغ كونغ» الشرق الاوسط، بواسطة صناديق مالية دولية، وذلك من اجل حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. ولكن ما شأن الزعامة السياسية الاسرائيلية بمثل هذه الاجراءات؟ تلك الزعامة التي تجاهلت تماما هذه التوصية، مثلها مثل غيرها من التوصيات، ذلك لأن مثل هذه

الزعامة مشغولة دائما باطفاء الحرائق، ولا تمتد بنظرها الى بعيد.

يوجد بالفعل اسرائيليون كثيرون رفضوا ويرفضون حتى هذا اليوم الاعتراف بحق الفلسطينيين بتقرير مصيرهم كشعب.

هل هناك ضرورة للتحدث اليوم عن السذاجة والغباء او الوقاحة - لا ادري ايهما أنسب هنا - التي تنطوي عليها المباهاة بقدرة ابناء احد الشعوب على تحديد مصير شعب آخر، والقرار فيما اذا كان هذا الشعب يحق له او لا يحق تقرير مصيره كشعب؟

صحيح ان هنالك بعض الاسرائيليين الذين حاولوا ويحاولون الادعاء بكل وقاحة وصلف تجاه الفلسطينيين قائلين: ما العمل، حتى لو كنتم شعبا، لقد تأخرتم وفاتكم قطار التاريخ، لقد أضعتم فرصتكم في الاستفادة من اقامة دولة خاصة بكم، لقد فُتحت هذه الدولة لكم، لكنكم انتم بأيديكم رفضتم قبولها، حتى أنكم خرجتم في حرب مقدسة ضدنا خسرتم بها، والتي فقدنا نحن فيها اكثر من ١٠٪ من مجموع السكان اليهود، لذا تخلوا عن فكرتكم الفاشلة، الزموا الهدوء، او انصرفوا من هنا.

ولكن، هل صحيح انه يوجد مبكر ومتأخر في التاريخ؟ هل الذي خلق العالم، وضع او حدد تاريخا معينا قال فيه انه في سنة ما من عقد الاربعينات في القرن العشرين، من لا يحقق استقلاله - فقده الى الابد؟

المرة، تلو المرة، يقف الاسرائيلي أمام الخارطة، يأخذ عصا التاريخ والجغرافيا السياسية بيده، ويشير الى «الاخطاء» و«التشوهات» التي تحتاج الى تعديل وتصحيح، ويرسم من جديد حدودا «منطقية» «طبيعية» لدول وشعوب، هذا الاسرائيلي، الحكيم الذكي، الذي يقف امام الطبق - الخارطة وعليها مجموعة من الحقن في كل واحدة منها مصل سياسي مختلف من حيث قوته (مصل للضم العلني، مصل للضم التدريجي، مصل لفلسطنة الاردن، مصل مضاد للفلسطينيين، مصل للقمع، مصل لنسف البيوت، ومصل لاغلاق البيوت، ومصل للاعتقال في معسكرات الاعتقال، مصل للطلقات المطاطية والبلاستيكية، مصل لطلقة طائشة، ومصل آخر للطرد أو الترحيل) - وفي القفص، وراء القضبان توجد جماهير متراصة من أرانب التجارب الفلسطينيين، انه الاسرائيلي، هو ذاته، الذي ينتمي الى اليهود الذين أُستخدموا ككرة بأيدي حكام قساة القلوب، جيلا بعد جيل، لكنه ها هو يخرج

للخلاص واصبح يقف الآن على ذروة التاريخ، يقرر ويحدد مصائر افراد وشعوب، ومناطق، ودول!

هذا الاسرائيلي، قام في الامس يثير النزاع بين مصر والدول الغربية لكي يمنع خروج البريطانيين من قناة السويس والاطاحة بعبدالناصر ومنع تأميم القناة، ولترسيخ المستعمرين الفرنسيين في الجزائر في اطار مؤامرة ١٩٥٦، وفي الصباح عدّل حدود اسرائيل ووسعها من شرم الشيخ حتى القنيطرة، وفي المساء استغل اكراد البرزاني عندما كان في حاجة لهم، وتخلى عنهم في محنتهم، ومرة اخرى بنفس المنطق، ظهر في عام ١٩٨٢ الثلاثي المقدس المكون من: الاب، وزير الدفاع، والابن رئيس هيئة الاركان العامة، والروح القدس رئيس الحكومة مناحيم بيغن، ليتفق هذا الثلاثي ويدفع بقوات اسرائيلية الى لبنان بحجة مساعدة اصدقائهم «المسيحيين» في لبنان، لكن هدفهم كان اخراج اولئك الفلسطينيين اللاجئين المقيمين في لبنان وترحيلهم. لقد أرادوا ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد، الفلسطينيون في لبنان والسوريون في لبنان،كان الثمن ٦٠٠ قبر في اسرائيل. غير ان العصافير بقيت في أماكنها على الشجرة، واتضحت «التصرفات المنطقية» لهذا الثلاثي المقدس. وبعد اتضحت تماما نتائج «حرب سلامة الجليل» ادرك مناحيم بيغن كيف ضلل من قبل وزير دفاعه ورئيس هيئة الاركان، وكيف اصبح لعبة بأيدي اثنين من المغامرين العسكريين، اريئيل شارون، ورفائيل ايتان. والاسوأ من هذا كله، كيف تحول مناحيم بيغن، الناجي من الكارثة النازية، الى زعيم يرسم حدودا ويصحح خرائط ويقتل ٦٠٠ نسمة من اسرائيل ويهجر شعبا لاجئا من مكان الى آخر حسب رغبته هو... وكأنهم الغجر... أو التتار... ونتيجة للخزي والعار الذي لحق به واحس به حتى العظم، ونتيجة لفشله في تحقيق اهداف هذه الحرب المختارة، تحوّل مناحيم بيغن الى مومياء تتنفس، منطوية على نفسها معزولة عن العالم.

لقد كان مناحيم بيغن، رئيس الحكومة الاسرائيلية الثاني الذي ينزوي بنفسه من فرط يأسه السياسي ـ الامني، والتاريخي ـ البقائي، والشخصي ـ الاخلاقي، ويقبع في هامش الحياة.

كان رئيس الحكومة الاول هو دافيد بن غوريون ـ هذا الذي خرج مناحيم

بيغن لتقليده.

لم يعد الشعب الاسرائيلي يحترم دافيد بن غوريون عندما كان حيا بعد ان اجلى نفسه في سديه بوكير. فبعد ان كان زعيما مبجلا، تحول في سديه بوكير الى موقع سياحي حي. وبعد موته تمكن مؤيدوه ـ ورثته من تحويله الى ثروة قومية اكثر مما يستحق ـ وكأن هرم الذكريات القومي بقي فارغا، ولا بد من تعبئة هذا الفراغ، وكان بن غوريون، هو الشخص المناسب لذلك ـ هكذا بكل بساطة.

اما بالنسبة لزعيم منظمة «ايتسل» مناحيم بيغن، رئيس الحكومة، نرى ان مؤيديه نجحوا هم ايضا في عرضه على الجمهور الاسرائيلي ليس بصفته مومياء حية، انما بكذبهم وخداعهم، نجحوا في خداع وتضليل الشعب الاسرائيلي، بأن بيغن لا يزال قويا، وربما يأتي يوم ما يظهر فيه بيغن على المسرح السياسي، اذا اراد هو ذلك.

ان كل شعب مناسب لزعيمه. و«الشعب» الاسرائيلي لا يختلف عن غيره من الشعوب: غير انني اضع هنا كلمة «شعب» بين قوسين، اذ ان شعبا يختلف عن «شعب» بين قوسين. لأن الشعب الذي يستحق الحياة كان يجب عليه الانقضاض فورا على رئيس حكومته الذي تحول هكذا فجأة الى مومياء بعد فشله في حرب فاشلة اصلا، ويطالبه بتقرير مخلص، صادق وصريح، وبتبرير معقول منه شخصيا، يفسر فيه سبب استقالته وتهربه الجبان المدهش، من رئاسة الحكومة. هذا «الشعب» الاسرائيلي لم ينهض ولم ينقض على مناحيم بيغن الذي يخفي وجهه. لماذا؟

الجواب بسيط: انه لم يُرد، ولا يزال غير راغب في معاقبة مناحيم بيغن على محاولته الفاشلة «لحل» المشكلة الفلسطينية مرة والى الابد، ذلك لأنه يسعى لمثل هذا الحل،ويتمنى لو تسنح له الفرصة ـ انه يتمنى لو يوجد مسحوق سحري مضاد للفلسطينيين يرشه في ليلة ما، في سماء القرى العربية على جانبي الخط الاخضر، لكي تختفي الحشرات الفلسطينية، هكذا وكأنها لم تكن.

ان ما سُمي بـ«حرب سلامة الجليل» على ألسنة مهندسي الخارطة الشرق اوسطية الجديدة من مدرسة شارون ـ بيغن ـ ايتان، مبادري الحرب الخامسة حرب ١٩٨٢، كان من المقرر ان يكون الفرصة التاريخية لرش المسحوق السحري الذي يقضي على الفلسطينيين نهائيا. لكن المحاولة فشلت, وقُتل ٦٠٠ جندي اسرائيلي وآلاف الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين، ومع ذلك لا يوجد خلاف بين «الشعب»

الاسرائيلي وبين مناحيم بيغن وشركائه وورثته، على اسلوب الحل هذا.

لقد تربى هذا «الشعب» في احضان غسيل الدماغ الامني، التاريخي، التقليدي، الديني، بأن المناطق المحتلة له، لذلك فهو يسلّم ويرضى بوضع الاحتلال، ويرضى بأن يسيطر على شعب آخر.

علاوة على ذلك، من ناحية نفسانية، ابعد المواطن الاسرائيلي، طيلة ٢٠ سنة من الاحتلال عن نفسه ما يُعرف بـ«المشكلة السكانية» في المناطق المحتلة. فهو عندما ينظر في خارطة هذه المناطق كما تُنشر بين الحين والآخر في الصحف أو تُعرض على شاشة التلفزيون الاسرائيلي، يشاهد في معظم الحالات، اذا لم يكن في جميعها، خرائط فارغة تخلو من اسماء القرى الفلسطينية، اذ مؤشرة عليها فقط المستوطنات اليهودية والمدن العربية الكبيرة. انه من غير الممكن ابدا ان نتعرف من خلال هذه الخرائط على وجود ٤٠٠ قرية فلسطينية منتشرة في انحاء الضفة الغربية. ومن غير الممكن ايضا ان نفهم من خلال هذه الخرائط ان الفلسطينيين يشكلون في المناطق المحتلة اغلبية ساحقة.

بالنسبة للاسرائيليين المتدينين، تعتبر هذه المناطق المحتلة تركة لشعب اسرائيل فقط. ويجب ان نضيف لهؤلاء المتدينين نسبة كبيرة ايضا من الاسرائيليين التقليديين والعلمانيين الذين يعتقدون هكذا، سواء انطلاقا من تمسكهم بمبدأ الوعد الالهي، او من نظريتهم الامنية.

ان النظرية الاسرائيلية السائدة في اوساط الشعب الاسرائيلي بالنسبة للمناطق المحتلة هي «اما نحن او هم»، وليس نحن وهم ايضا».

ليفي اشكول، غولدا مئير، اسرائيل جليلي، موشه ديان، يغئال الون، اسحق رابين، شمعون بيرس، زرعوا احتلالا ومستوطنات وضما تدريجيا، وسيطرة شعب على شعب، سياسة فرّق تسد، اسلوب العصى والجزرة، مناحيم بيغن، اسحق شامير ورجالهما، حصدوا ما زرعه اولئك الذين سبقوهم.

ان حزب العمل، شأنه شأن حزب الليكود، يرفض قيام دولة فلسطينية غربي نهر الاردن، ويفرض شروطا مسبقة للتسوية ويحدد نموذج الوجود الفلسطيني.

ألا يشكل هذان الحزبان التوأمان الغالبية العظمى من الشعب الاسرائيلي؟ وما هو المعنى الحقيقي لهذا الرفض، ان لم يكن رفضا لوجود الشعب الفلسطيني

كشعب مثل بقية شعوب العالم، وان لم يكن رفضا لكون الفلسطينيين شعبا اصلا، وان لم يكن امتلاكا لحق فريد من نوعه، من قبل احد الشعوب لكي يقرر ما اذا كانت هذه المجموعة او تلك من البشر، شعب ام لا، تستحق أو لا تستحق كيانا سياسيا خاصا بها، واذا كانت تستحق ذلك ـ متى وكيف واين؟

هذا هو قلب النزاع. احد الشعوب يرفض وجود وحق شعب آخر. شعب يقول لشعب آخر: طالما بقيت تعيش في المكان الذي توجد فيه ـ ستبقى الى الابد متدينا، خاضعا، محكوما، ليس لك كيان وطني كامل خاص بك، حتى لو كنت أغلبية في منطقتك.

ما معنى هذا الموقف، اذا لم يكن استمرارية وادامة للصراع اليهودي ـ الفلسطيني العنيف على المصير النهائي (لأرض اسرائيل)، وفي اطار ذلك صراع على مصير الشعب الفلسطيني، وعلى مصير الشعب اليهودي ايضا، وان لم يكن استمرارا لحرب ١٩٤٨؟

وما معنى هذا الموقف الاسرائيلي ان لم يكن استمرارا لنظرية النزاع الابدي، واعتبار العالم العربي، الذي في وسطه تعيش (دولة) اسرائيل، عدوا لها على مدى الاجيال القادمة، وان لم يكن يعبّر عن يأس اسرائيل من فرص العيش بسلام وامن على مدى الايام؟

وما معنى هذا الموقف الاسرائيلي، ان لم يكن سلسلة من الصراع والحروب المتكررة وتركة يخلفها الجيل الاسرائيلي الحالي للاجيال القادمة؟

ان الاشتراكيين من حزب العمل الاسرائيلي الذين يرفعون شعار الاخوة الانسانية والمساواة بين البشر مهما كان نوعهم، احتلوا في عام ١٩٦٧، مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة ووضعوا حجر الاساس لاقامة المستوطنات حتى الانقلاب في عام ١٩٧٨. وتحت جناحهم وفي أحضانهم ترعرعت حركة «غوش ايمونيم» المجرمة الفاشية، التي أثارت من جديد النزعة الدينية ـ اليمينية المتطرفة في اوساط اليهود بهدف نشر المستوطنات اليهودية في طول الاراضي العربية المحتلة وعرضها، على غرار الطلائعيين اليهود في سنوات الثلاثينات.

لقد كان ظهور هذه الحركة الاستيطانية المتعصبة الفاشية، يشكل تراجعا وانسلاخا من الواقع، تراجعا الى الوراء من حيث الزمان والاخلاق، وكل هذا باسم

الدين، وباسم الرب ايضا!

غير ان الاخلاق ليست هي ما يشغلني الآن، انما مواضيع واعتبارات عملية أخرى:

من اجـل ماذا خرج الشعب، خرج الجيش الاسرائيــلي ـ جيش الدفــاع الاسرائيلي ـ للحرب في عام ١٩٦٧، ومن اجل ماذا كان يحارب في حقيقة الامر؟

ما الذي ارادته ان يتحقق، حكومة ليفي اشكول عندما قررت شن الحرب على مصر الناصرية، ان لم يكن تحطيم القوة العسكرية المصرية بهدف التوصل الى تسوية دولية جديدة حسب مبدأ «عش ودع الآخرين يعيشون» في مجال العلاقات الاسرائيلية ـ المصرية ـ ذلك القرار الذي كان هدفه الاساسي حربا وقائية ـ وكيف تحولت الى حرب احتلال ليس فقط ضد المصريين، انما ضد الاردنيين والسوريين ايضا؟

كيف تحـول الجيش الاسرائيــلي الى «جيش الهجوم الاسرائيلي، أو جيش الاستيطان الاسرائيلي؟»

هل من الممكن حقـا تفسير هذا التحول بشكل واقعي منطقي؟ هل كانت اسرائيل عرضة لتهديد انفجار سكاني؟ هل كانت اسرائيل تشعر بنقص في الاراضي الخصبة او الخالية؟ هل كانت تشعر باختناق أمني نتيجة لنقص في الاراضي التي تشكل عمقا لها؟

هل كان احتلال عام ١٩٦٧ ثمرة لأفكار سكان مستوطنات معرضة للتهديد وأرادوا ابعاد الخطر الفوري عنهم، بتعريض (الدولة) كلها لخطر دائم، أم ثمرة لأفكار قادة عسكريين في الجيش الاسرائيلي يبحثون عن الشهرة؟

لا شك بأن ما جرى كان نتيجة لعدة نشاطات واجراءات عميقة، معظمها غير معروف حتى الآن.

ان شهوة التوسع التي اطلت برأسها من جديد من داخل الكيس الصهيوني في عام ١٩٤٩، وفي عام ١٩٥٦، لم تضعف، بل بالعكس، تقوّت وزادت حدة في علاقة مباشرة مع تعاظم قوة الجيش الاسرائيلي.

لقد أصبح الجيش الاسرائيلي ـ ليس كله بالطبع ـ قوميا اكثر، متدينا أكثر، انتقاميا أكثر، أكثر عرضة للتأثير بالغرائز والاثارة الديماغوجية للحركات الدينية

اليمينية المتطرفة في اسرائيل.

ان الانتصــار الساحق الذي حققته اسرائيل في حرب ١٩٦٧ ابرز عمليا التغيير الكمي والنوعي الذي طرأ على التكوين الاسرائيلي. فمن فوق رأس الجندي المظلي الاسرائيلي الذي كان أول من وصل الى حائط المبكى في (٧) حزيران ١٩٦٧ (أمام عيني، كنت أنا هناك) وعندما لم يعرف ماذا يفعل ذلك المظلي، خلع قبعته وانفجر بالبكاء على موت زميله الذي قُتل في المعركة قبل لحظات، ارتفع بوق كبير حاخامي الجيش الاسرائيلي ليصدح في ذلك المكان المسمى «مقدسا».

لقد فُسر بكاء المظلي امام حائط المبكى، بأنه بكاء ذو مغزى ديني عميق في الصورة المشهورة التي حُفظت في ألبوم الانتصار.

إن تلك اللحظات الدينية المؤثرة، جرفت أناسا كثيرين تأثروا بها وتمخض عنها توأم حركتي «أرض اسرائيل الكاملة» و«غوش ايمونيم» والاهم من هذا كله ـ ادخلت الرب كشريك كبير في ادارة (دولة) اسرائيل الجديدة، (دولة ارض اسرائيل).

لقد كانت الحركة الصهيونية في الواقع، اكبر ضحية سقطت على مذبح حرب ١٩٦٧، رغم انه ظاهريا كانت نتيجة تلك الحرب اكبر انتصار لها.

بعبـارة اخـرى، لقد انتفخ الضفدع الصهيوني البشع حتى انفجر، ومع الانفجار الكبير خرج الامير الجميل ـ اسرائيل الكبرى الكاملة. غير ان تلك لم تكن اسرائيل. تلك كانت (ارض اسرائيل).

ان صدمــة حرب ١٩٧٣، وحتى الســلام الذي جاء تحت كنفها، لم يكن بمقـدورهمـا اعادة هذا الاجراء الى الوراء. فالسلام في تراجع مستمر. والحرب القادمة امر حتمي.

ولسبب بسيط. يوجد للفلسطينيين رب، واذا كان رب اليهود رب جيوش، فرب الفلسطينيين رب سيوف، وهو الرب الاسلامي، وهو اكثر شبابا من رب اليهود، والمؤمنون به لا يصدحون له بالابواق، انما بمكبرات صوت حديثة مثبتة في رؤوس مآذن المساجد، وهي كثيرة جدا.

كما توجد للفلسطينيين فرق عسكرية اكثر. ربما أكون مخطئا. أرجو أن أكون مخطئا. ولكن ماذا لو لم أكن مخطئا؟

لن أحاول هنا الخوض في دراسة استراتيجية وتكتيكية تتعلق بمدى حيوية

سيطرة اسرائيل على مرتفعات الضفة الغربية (ظهر الجبل) او على خط نهر الاردن، بالنسبة لأمن اسرائيل، وذلك لسبب بسيط هو انني جازم بأن الضمان الوحيد لأمن اسرائيـل هو ليس جغرافيا ـ طوبوغرافيا، انما سياسي ـ احلال سلام دائم بين اسرائيـل وجميـع جاراتهـا، وعلى رأسها حكومة الشعب الفلسطيني التي سيتم انتخابها ليس حسب برنامج حزب بيرس ـ رابين، وليس حسب برنامج حزب شامير ـ شارون، انما حسب رغبة الفلسطينيين انفسهم وبطريقتهم الخاصة بهم.

لهذا، فان كل مشروع يرفض حق الفلسُطينيين في اختيار ممثليهم، ويحدد سلفا منطقتهم التي خُصصت لهم داخل حدود (ارض اسرائيل) في اطار ذلك القرار الذي على أساسه وبفضله قامت (دولة) اسرائيل، يكون مرفوضا من أساسه ليس فقط من الناحية الاخلاقية، انما لن يساوي الورقة التي كُتب عليها.

ان التلويـح، مثلا، «بمشروع ألون» تجاه العالم على انه مشروع منطقي، معقول، عادل، لتسوية النزاع الفلسطيني ـ الاسرائيلي او العربي ـ اليهودي، هو عمل ساذج، غبي، يدعو الى السخرية، كاذب وقح. انه مجرد ثرثرة يُقصد بها ذرّ الرماد في عيون السذج والبسطاء من الناس، وتهدئة ضمائر العميان سواء كانوا اسرائيليين او يهود او غير يهود، ولكن حتما ليسوا فلسطينيين أو عربا آخرين، الذين يجب ان نجلس معهم على طاولة المحادثات.

ان مثل هذا التصرف هو خطوة او اجراء قذر وممقوت ليس اقل من محاولات اولئك السياسيين الاسرائيليين الذين حاولوا صُنع نماذج فلسطينية لتمثل الشعب الفلسطيني حسب أهواء اولئك المحتلين الذين يسيطرون على هذا الشعب ويحكمونه بقوة الذراع. ألا تدل السياسة الاسرائيلية الوقحة المخزية الرامية الى صنع ممثلين للشعب الفلسطيني، على العمى السياسي الاسرائيلي؟

هنا أقول: بما ان عدم التخلي عن نظرية العداء الاسرائيلية ـ العربية الابدية التي تنطوي عليها سياسة دافيد بن غوريون الفعلية التي تعتمد على القوة، تحول سلفا دون تكوّن قدرة اسرائيلية على فهم النزاع بصورة اخرى والتوصل الى تسوية حل وسط، وتفاهم، وسلام مع الطرف الآخر، كذلك فإن عدم التخلي عن نظريات العجرفة والصلف، نظريات ألون ـ جليلي ـ الاول صاحب «مشروع الذئب في جلد حمـل» والاستيطان في الخليل، والثاني صاحب نظرية «غوش قطيف» واستيطان

يميت، وكلاهما من مؤيدي ضم غور الاردن لاسرائيل ـ معناه عداء ابدي اسرائيلي ـ فلسطيني، ويهودي ـ عربي، وسلسلة من الحروب المتعاقبة، هذا اذا لم تُقطع هذه السلسلة من الحروب بهزيمة العنصر او الطرف الوحيد في النزاع (اسرائيل) الذي تشكل الهزيمة تهديدا لوجوده، والذي يعيش في ظلها ـ ولكن الى متى؟

ربما أكون مخطئا. ارجو ان اكون مخطئا. ولكن ماذا لو لم اكن مخطئا؟

ان المتعصبين من مدرسة «الليكود» وامثالهم من اليمينيين المتطرفين لا يحتاجون حتى لمثل «مشروع يغئال ألون». بالنسبة لهم لقد اصبحت مسألة (أرض اسرائيل) محلولة بطريقة «كلها لي»، ولم يبق سوى مشكلة السكان، اي حوالي مليون نسمة في الضفة الغربية وحوالي ٦٥٠ الفا في قطاع غزة (ويجب ان نضيف الى هؤلاء السكان الفلسطينيين في شرق القدس وضواحيها التي ضُمت رسميا الى اسرائيل في ٢٨ حزيران ١٩٦٧).

لقد ذكرنا فيما سبق كيف أراد زعماء الليكود حل مشكلة السكان الفلسطينيين تحت غطاء «حرب سلامة الجليل» التعسة التي بدلا من ان تؤدي الى انقلاب سياسي ـ عسكري ـ سكاني في الشرق الاوسط، يتم خلاله «تجميع» كل الفلسطينيين اللبنانيين وسكان (أرض اسرائيل) أيضا في شرق الاردن، أدت فقط الى اخراج العفريت الشيعي المعادي لاسرائيل من قنينة الشرق الاوسط، ذلك العفريت الذي كان حتى ذلك الحين راقدا، وكان هو الوحيد العنصر المفقود في حلبة الرقص هذه.

في الواقع يوجد تناقض معين بين الموقف القائل ان الاستيطان اليهودي في المناطق المحتلة خلق فيها، نتيجة لانتشار وكبر حجم هذا الاستيطان، وضعا غير قابل للتراجع عنه، وبين مناداة اولئك القائلين بأن الحل يكمن في ترحيل الفلسطينيين من غرب النهر الى ضفته الشرقية.

اذا اعترفنا، بيننا وبين أنفسنا دون ان يسمع اي عنصر اجنبي، بأنه لن يكون ولا يمكن ان يكون ترحيل فلسطيني برغبة الفلسطينيين انفسهم، اذاً كيف سيكون بالامكان طرد اكثر من مليون ونصف مليون فلسطيني من بيوتهم الى شرق الاردن، ولا يكون بالامكان طرد حوالي ٧٠,٠٠٠ مستوطن يهودي الى الغرب؟

لقد أشرت الى هذا التناقض فقط من أجل اثارة النقاش. لا يوجد ترحيل

«تـرانسفـير» بمحض الارادة، تمـامـا مثلما لا يوجد جليد ساخن. ان الترحيل الاجباري كان ويمكن أن يكون في اي مكان في العالم وفي (أرض اسرائيل) وفي اسرائيل ايضا.

لهذا، لا توجد اية صعوبة في الاشارة الى الحقيقة المدهشة وهي: ان كل عملية ترحيل سواء في ايامنا هذه او في العصور التي سبقتنا، كانت قد سبقتها حرب كبيرة حقيقية، او انها أجريت خلال الحرب نفسها.

هناك اصطلاح أكثر رقة من كلمة ترحيل ألا وهو «تبادل سكاني». وهذا يعني نقل سكان دولة الى اراضي دولة اخرى وبالعكس. غير ان هذا المبدأ لا يمكن ان ينطبق على «الترحيل» الفلسطيني من غربي النهر الى شرقيه، لأنه بمن سيستبدلون؟ ببقايا يهود سوريا، ام يهود اليمن الذين اكتشفوا مؤخرا في مكان ما من صحراء العرب؟

اذن، فالتـرحيـل «ترانسفير» هو على اية حال، اصطلاح يُستخدم لتجنب استخدام كلمات مثل «طرد»، «إجلاء»، «إبعاد» وما شابه ذلك، تماما مثلما نفضل عبارة «مرض مزمن» على عبارة «مرض السرطان». إن كلمة «ترانسفير» تعني في الحقيقة «الحرب»، انها كلمة قاسية جدا، لأنه ربما نستطيع ان نحب سماع كلمة «نقل» أو «طرد» ولكن كيف نستطيع أن نحب كلمة «حرب»؟

اذاً، في الحقيقة، ألا يسعى دعاة «الترانسفير» الى الحرب؟ ألا يتمنون على الله اندلاع الحرب التي بدونها لن يكون هنالك الترحيل المنشود للفلسطينيين؟

على فكرة، يوجد هنا عندنا، من بيننا، يهودي رائد، من دعاة (ارض اسرائيل الكـاملة)، (صقـر ولا كل الصقور)، (ذئب ولا كل الذئاب)، يدعو ليل نهار الى «ترانسفير» (ترحيل عرب المناطق المحتلة) مع انه ليس له ذقن كهانية (نسبة الى كهانا)، ويثبت بالبراهين وطرح النماذج، كيف حل ترانسفيريون مشاكل قومية معقدة في انحاء العالم، هكذا، عن طريق تسيير عدة قوافل من السيارات الشاحنة ومن القـطارات. ورغم ثقـافته العالية واضطلاعه الواسع على ما قاله «بن غوريون»، و«موشه شريت» بشأن (دولة) اسرائيل «النظيفة من العرب»، فان هذا الداعي الى الترحيل، لا يدقق جيدا في هذا الاصطلاح «ترانسفير» ذاته، لذا من الواجب ان نطرح عليه سؤالا: عندما تقول «ترانسفير» ـ ما الذي تقصده في ذلك؟

يجيبنا هذا الداعية بطرح نموذج كقدوة في هذا المجال هو نانسن النرويجي الذي نال في حينه جائزة نوبل للسلام نظرا لقيامه بتنظيم عملية تبادل سكاني بين تركيا واليونان بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ببضع سنوات ـ تلك العملية التي نُفذت، بالطبع، بموافقة الدولتين ـ لكنه لا يكلف نفسه عناء طرح نماذج اخرى مثل ستالين الذي لم يحظ بتلك الجائزة على ترحيله التتار والالمانيين الفولجانيين (فولجا)، وهتلر على ترحيله اليهود والغجر، ولا اي زعيم هندي او باكستاني على تهجير الهندوس والمسلمين في شبه القارة الهندية، ولا اي زعيم اسرائيلي أو ضابط في الجيش الاسرائيلي، على الترحيل الذي نفذه ضد السكان الفلسطينيين في عامي ١٩٤٨، و١٩٦٧. يوجد هنالك فرق شاسع بين الطرد أو الاجلاء والتهجير، وبين التبادل السكاني الذي يتم بموافقة الحكومات ذات العلاقة. أليس واضحا وضوح الشمس بأنه لا ولن يكون هنالك اتفاق لتبادل سكاني في القضية الفلسطينية؟ اذاً، ماذا يعني التبادل السكاني على طريقة (نانسن) بالنسبة لطرد الفلسطينيين؟

في البداية، كان زعماء الصهيونية وشخصياتها على مختلف أنواعهم الذين ينادون بترحيل العرب الفلسطينيين الى الدول العربية، يعتمدون في دعوتهم هذه على اساس ان هذا العمل القذر يقوم به البريطانيون. ولكن بعد ذلك واثناء حرب ١٩٤٨، التي كانت حربا طويلة، حرب حياة او موت، طُرد مئات الآلاف من الفلسطينيين من قراهم التي احتلها الجيش الاسرائيلي، وبهذه الطريقة خُلقت حقيقة لم تكن متوقعة: أصبحت اسرائيل أكبر مما كان مخصصا لها حسب قرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة، واصبحت اسرائيل بدون مئات الالوف من الفلسطينيين. غير ان هؤلاء الفلسطينيين لم يختفوا عن الوجود، بل هم باقون، موجودون، يصفعون باستمرار وجوه اولئك دعاة الترانسفير في وقتنا الحاضر، واكبر دليل على وجودهم محاولات ترحيلهم ثانية من قراهم واماكن سكناهم الحالية. ان ما هو ثابت ومؤكد في قضية «الترانسفير» هو ان هذه العملية تكون مرتبطة دائما بحرب جديدة، طويلة وشاقة.

وهكذا، نجد انفسنا نعود ثانية الى حرب يهودية ـ عربية اخرى بمبادرة وتخطيط يهودي، الحرب المخلصة الاخيرة، بالطبع، التي ستنتهي الحرب اليهودية، الحرب التي ستكون نتيجتها ان تصبح كل المناطق الواقعة غرب نهر الاردن بأيدي

اليهود وبدون عرب.

هذه بالطبع، نظرية تسوية النزاع العربي ـ الاسرائيلي التي ينادي بها رجال غوغائيون يعيشون نهائية القرن العشرين بعقلية اتباع يهوشع بن نون.

والآن، سيداتي، سادتي، انتبهوا جيدا: يقول دعاة «الترانسفير» سيكون مصـيرنـا الفناء، والحرب من الداخل والخارج. بينما رافضو فكرة «الترانسفير» يقولون ان «ترانسفير» معناه الحرب.

اذا كان الامر كذلك، بغض النظر عن معرفة مَن من الفريقين على حق، ألا أكون صادقا في قولي ان اسرائيل ستخرج بخسائر فادحة من كل حرب قادمة، سواء كانت نتيجة لتنفيذ فكرة «الترانسفير» او بدونها، وفي قولي انه في ضوء هذه الحقائق تعتبر (دولة) اسرائيل زائلة حتما؟

ان الايمان بأن الحرب القادمة، سيكون من شأنها ايجاد الحل النهائي للمشكلة الفلسطينية (والمشكلة الاسرائيلية) بفضل «الترانسفير»، هو ناجم بالطبع عن يأس عميق ونهائي من الوضع الحالي الذي تعيشه (دولة) اليهود، وكما يبرز بجلاء من كل قائمة او جدول بياني سكاني يهودي ـ فلسطيني ـ عربي. وكما حاولت ان اوضـح دائمـا وفي هذا الكتاب، أدت النظرية البنغوريونية للنزاع العربي ـ الاسرائيلي، التي لا تزال قائمة ومطبقة في اسرائيل بدون وجود اية مؤشرات على امكانية تغييرها او تعديلها، ليس للاعتدال انما للتصعيد، ليس للتسوية بل للعدوان، ليس للتنازلات بل للتوسع، ليس لتقليل الحروب، انما لتكرارها وتقصير الفجوات الزمنية بينها.

وكما حاولت التأكيد بأن اية حرب لم ولن تنته بهزيمة عربية، ذلك لأن العرب لا يهزمون، لأنهم غير قابلين للابادة. انهم كثيرون جدا.

وكما حاولت التوضيح والتأكيد بأن اليهود في المقابل يمكن الحاق الهزيمة بهم، لأنهم قابلون للابادة، لأنهم قليلون للغاية، وليس لهم امل في الزيادة الحقيقية، او في التغيير لصالحهم في النسبة السكانية بينهم وبين العرب، سواء داخل اسرائيل او في الشرق الاوسط العربي كله.

وكما حاولت ان اوضح بأنه في ضوء هذا الوضع القائم (لدولة) اسرائيل، أُتبعت سيـاسة اسرائيلية تعتمد على التحصن والتقوي التقليدي وغير التقليدي

والتوسع نحو «حدود آمنة» ومناطق فاصلة.

هذه السياسة تشكل سببا يدعو الى الحروب المتعاقبة، وهي نفسها لم تكن ممكنة، بدون شن الحروب واحتلال الاراضي. غير ان خمس حروب خلال ٣٥ سنة - بمعدل حرب في كل ٧ - ٨ سنوات - لم تنته اي منها بهزيمة عربية، ولا بتطهير المنطقة التي بقيت بأيدي اسرائيل من العرب، اي بترحيل شامل، كل هذه الحروب لم تقنع الاسرائيلي بأنه يواجه وضعا - قدرا محتوما: لا يمكن تحقيق انتصار اسرائيلي شامل ونهائي، مثلما لا يمكن الحاق هزيمة نهائية بالعرب، ولا يمكن ترحيل العرب نهائيا.

ان الاسرائيلي لا يعترف بهذه المستحيلات لأنه فقد التفكير السليم، والنظريات المنطقية التي تنسجم مع الواقع الشرق اوسطي والتي تعتمد على تقدير وضع واقعي.

ان التهجير - الطرد - الاجلاء العربي في حرب ١٩٤٨ لم يذهب ويتطاير في الهواء، لم يختف عن وجه البسيطة. انه موجود يتململ، يغلي، يفكر، ويحلم، مشتاق، ويخطط.

ان اللاجئين الفلسطينيين، لاجئي ١٩٤٨، يتكاثرون بدون ان يفقدوا طابعهم. وذاكرتهم القومية ليست ضعيفة، امنحوهم مخرجا، امنحوهم كرامة ذاتية، اعطوهم سيادة على منطقة ما، اعطوهم عاصمة، مقعدا في الامم المتحدة، مسؤولية عن الامن، والتعليم والصحة ونظافة الشوارع.

باختصار، اعطوهم علاجا قوميا بأن يكونوا شعبا كبقية الشعوب كي يشعروا ويذوقوا طعم الاستقلال، افهموا الصهيونية الفلسطينية التي عرفت ممن تتعلم وأحسنت التعلّم.

- «هذا خطير! انهم يريدون يافا؟ وتل ابيب! تلك ستكون نهايتنا. اننا نعرفهم، نعرف هؤلاء العرب...».

حسناً. ليس من الضروري. لا تعطوهم شيئاً. اعطوهم غليانا! ما هو الغليان؟ حتى هؤلاء الذين بقوا بيننا، مواطنين اسرائيليين بكل معنى الكلمة يشاركون في انتخابات الكنيست، اطردوهم، هجّروهم، ناهيك عن الكلام بشأن «ترانسفير» سكان المناطق المحتلة.

ولكن، سيداتي، سادتي، ماذا سيحدث لو لم يأت المسيح؟ اذا لم يتمخض مثل هذا الموقف الاسرائيلي عن سلام، بل العكس حرب كبيرة ستنجم عنه، ستواجه اسرائيل من الشمال قوات سورية ـ لبنانية، ومن الشرق اردنية ـ عراقية سعودية، ومن الجنوب مصرية، ومن الغرب ليبية؟

ان هذه التجربة الساحرة التي تنطوي على هذا التحدي المنعش مع ما فيه من قدرات نووية ـ جرثومية، كيماوية، يفضلها الاسرائيليون على تجربة عكسية تجاه السلام، التسوية، الاعتراف بحقوق الفلسطينيين كشعب مثل بقية الشعوب، وبمنح الفرصة لديناميكية جديدة اسرائيلية ـ فلسطينية في اطار سلام وتعاون مع الدول العظمى ـ أليس هذا افضل من حرب مؤكدة؟

سيداتي سادتي، أنتم اولئك الذين تفضلون الحرب المؤكدة القادمة بنتائجها المضمونة من القتلى والجرحى والخراب والدمار الذي لن يكون بالامكان اعادة بنائه، ـ ذلك لأن هذه الحرب القادمة ـ ايها السادة ـ من العائلات الثكلى، والمشوهين والمعاقين ويتامى حروب اسرائيل، ستكون اشد واخطر بكثير من الحروب السابقة، حتى لو نجح الجيش الاسرائيلي في الوصول الى القاهرة ودمشق وعمان، ولن تكون اشـد واكثر ايلاما نظرا لتكديس الفرق والاسلحة العديدة في المنطقة، انما لأن اسرائيل ستخوضها في هذه المرة، لأول مرة في حياتها ـ بدون حليف فعلي، سري او علني، لا في بدايتها ولا في وسطها، ولا في نهايتها.

من هو الذي سيـأتي لترميم واعادة بناء ما دمرته حرب نجمت عن فكرة «ترانسفير»، حرب كاهن وكهانا، حرب ايتان وزئيفي، حرب شامير، التي سيكون من شأنها لفظ اسرائيل الى خارج اسرة الشعوب نهائيا.

لا شك بأن الحرب القادمة، السادسة في تاريخ اسرائيل، ستكون حربا دامية بالنسبة لجميع الاطراف المتحاربة ـ ليس فقط بسبب انواع الاسلحة وكمياتها التي ستستخدم في الحرب، وليس لأن هذه الحرب ستكون طويلة وشاملة ـ انما لأنها ستشهد مذابح لا تحصى ولا تُعد، ينفذها اليهود بالفلسطينيين في المناطق المحتلة لارغامهم على الصعود على الشاحنات لترحيلهم.

إن رُسل الله، المنتشرين استراتيجيا في المستوطنات المتقدمة التي أُقيمت في أنحاء المناطق المحتلة يقفون على أهبة الاستعداد لتنفيذ هذا العمل القذر (المذابح).

انهم ينتظرون الاشارة، التي قد تأتي على شكل أمر، وقد تأتي على شكل «خبر» يفيد بأن الفلسطينيين قتلوا مستوطنين.

في اعقاب مثل هذا «الخبر» لن يقف القتلة المنظمون المسلحون بالنار والدين، وكـذلك مؤيـدوهم، وهم كثر، في الجيش الاسرائيلي وفي المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، وفي الاحزاب الدينية واليمينية المجنونة، لن يقف كل هؤلاء مكتوفي الايدي وبعد ان يُنفذ هؤلاء المتعصبون المجانين من اليهود مذابحهم بالفلسطينيين، لا بد ان تصل الانباء الى مسامع الرأي العام العالمي والدولي. عندئذ ستُطرد اسرائيل من أسرة الشعوب، ستُقاطع وتخنق وتحاصر فورا برا وبحرا وجوا.

في مثل هذه الحالة، او قبلها بقليل، ربما يقرر شخص ما في اسرائيل القاء القنبلة الديمونية (نووية). ستكون تلك لحظة فظيعة! الشعب اليهودي في البلاد المتحضرة، سيتنكر لاسرائيل كما يتنكر المرء من شيء بغيض عليه. كتنكر الأسرة من ابنها الشرير. اما الشعب اليهودي في الدول غير المتحضرة، فلن يتنكر لاسرائيل، لأنه هو نفسه سيُذبح نتيجة لغريزة الانتقام والثأر منه.

وفي حين يقف ذوو القبعات (المتدينون) المسلحون الذين يقطرون دما (دعاة العربي النجس واليهودي الطاهر)، يقفون بين الخرائب وانقاض الحرب، بيدهم طلقة اخيرة مصيرية لا يدرون الى اين يوجهونها، ينتظرون قدوم المنقذ، يتحسسون طريقهم نحو ساحل البحر بانتظار من ينتشلهم الى ظهر سفينة او سفن تحمل اعلام الامم المتحدة.

أيها السادة. ان هذا احد السيناريوهات المتوقعة للحرب السادسة القادمة التي توشك ان تقع، حرب الترانسفير، والتي مع مزيد من الدهشة، معني بها ايضا اولئك المجانين الرافضين من بين الفلسطينيين اذ انهم هم ايضا يعملون حسب مبـدأ «كلمـا ساءت الامور كان ذلك افضل»، ومبدأ «حرب وراء حرب، ستهلك اسرائيل ويتحقق لنا النصر، وليكن الثمن الذي سندفعه مهما يكون ـ وليس مهماً ما الذي يأتي أولا الحرب ثم الترحيل (ترانسفير)، أو الترحيل ثم الحرب».

ولكن ليكن واضحـا: لا يوجد ترانسفير بمحض الارادة. ترانسفير، معناه الحرب. ان الترانسفير يلزمه حرب اولا، او ان بدايته تشعل نار الحرب. على اية حال ـ حرب. وأية حرب هذه! ربما أكون مخطئا. ارجو ان أكون مخطئا. ولكن ماذا

لو لم أكن مخطئا؟

سيداتي، سادتي. إخوتي، أخواتي. ألم يحن الوقت بعد للتخلص من العمى الذي أُصيب به المجتمع الاسرائيلي؟ ألم يحن الوقت بعد للتفكير من جديد بالسؤال التالي: الي اين نحن ذاهبون؟ ما هو المتوقع لنا؟ ما هي غايتنا؟ الى ماذا نسعى عن علم او بدون علم؟ هل صحيح ان التنبؤ بخراب الهيكل الثالث غير واقعي لدرجة اننا نستطيع النوم بهدوء؟ هل يوجد اليوم شخص ما في اسرائيل، أب، أم، زوجة، جندي نظامي، أو جندي احتياط، ولد أو بنت ـ يذهب الى النوم بهدوء؟

انني على قناعة تامة بأن المواطن الاسرائيلي الموجود حاليا، ليس بالانسان القادر على الانتفاضة ، والنهوض لأن هذا الاسرائيلي يؤمن ايمانا كاملا بأنه في نهاية الامر سيكون كل شيء «على ما يرام» بشكل او بآخر، وفي اسوأ الحالات سيأتي الامريكيون وينقذوننا، ربما حتى ولو فرضوا على اسرائيل اي نوع من الانقاذ ـ ربما يتمنى هذا الاسرائيلي من اعماقه انقاذا اجباريا مهما كان نوعه؛ اذاً لماذا يثور لتغيير الوضع القائم؟ لا داعي للانتظام الحقيقي. يكفي القيام بمظاهرة هنا وهناك، ولا حاجة لصبغ الامور بلون اسود.

في اية حالة يتوصل الاسرائيلي الموجود فيها الى استنتاج سلبي نهائي بالنسبة للمستقبل، سواء كان ذلك ناجما عن معرفة أو بدون معرفة، يتخذ اجراء فرديا لحل «المشكلة» وليس اجراء جماعيا. انه يهاجر او ينطوي على نفسه حسب مبدأ «ليكن مهما يكون. اموت، اموت، اعيش، اعيش» على اية حال، لن يثور. انه لن يصرخ. واكثر شيء قد يفعله، هو ان يبكي. انه لن يحدث اي تغيير في الخارطة السياسية الاسرائيلية ـ التي تمتاز باستقرار مدهش، وبكتلتين كبيرتين، تقتلع كل منهما الاخرى، وبشراذم صغيرة من الحركات الصغيرة عديمة الفائدة التي لا تفكر بالاتحاد فيما بينها. ان المواطن الاسرائيلي الحالي، يغامر بمستقبله بسكوته على التدهور المستمر للوضع السياسي ـ الامني في اسرائيل.

لذا فان شيئا لن يتغير. ولهذا فان الحرب لا بد آتية.

ان اسرائيل لن تصمد في هذه الحرب القادمة. انها سوف تتحطم رغم كل انتصاراتها، ورغم كل الخسائر التي تسببها، لأنه في هذه الحرب سيعمل كل العرب يدا واحدة ـ وايا كان لن يزعجهم، كما ان الامريكيين لن يسارعوا الى انقاذ اسرائيل،

لن يسارعوا الى تخليص المجرمين من العقاب.

ان اسرائيل ستُسحق لدرجة تجعل الغالبية العظمى فيها ترى في نهاية الامر بعد الانقاذ الذي سيأتي في اللحظة الاخيرة تماما، هذا اذا كان هنالك انقاذ، انه لا فائدة من اعادة البناء والبدء من جديد. لذلك اقول: ان (دولة) اسرائيل في حكم الزائلة.

انهـا قائمة وموجودة بصورة «مؤقتة». الجسر منهار. القطار يسير مسرعا ومصيره المحتوم هو السقوط في الهاوية. ولكن توجد لحظات «مؤقتة»: في هذه الاثناء يغذي المسافرون انظارهم ويمتعونها بالمناظر الطبيعية العابرة، يستمتعون بصوت احتكاك العجلات، يتحدثون، يتمازحون، يأكلون في عربة الطعام... كل هذا مؤقت!

اين كنا؟ في الترانسفير، وفي حرب الترانسفير.. هكذا، يبدأ اليأس. ان الشعب اليهودي شعب يائس. ان تاريخه الطويل عبارة عن قناع معقد من الدمار والنهضة. انه تاريخ السير على حافة الضياع والشتات والتهجير والطرد والملاحقة والتعذيب والمذابح والكوارث.

ربما نتحدث الآن عن الشعب اليهودي، كشعب موحد من حيث الجوهر، ولكن فيما يتعلق «بالترانسفير» وحرب الترانسفير التي توشك ان تقع، أُشير الى انه ليس من الغريب ان يكون التعصب الديني يعشعش في قلب هذا الشعب اليائس.

على الصعيـد الاسرائيـلي الحـالي، أليس من الغريب أن لا يؤدي اليأس السكاني المبني على حقائق ثابتة ومعطيات دقيقة، الى استنتاج واقعي يتمثل في العـودة الى حدود ١٩٤٩؟ اي ان هذا اليأس يعزز فقط التعصب الديني، ذلك التعصب الذي يقدس حدود «ارض اسرائيل الكاملة» انطلاقا من فكرة «مثالية» اخرى هي: «ترانسفير على نطاق واسع، يكون جيدا».

«أيها اليهود، يوجد حل في اليد، حل بسيط جدا، منطقي ومفهوم: «ترانسفير».

عندئذ يسارع اليهود، يتسابقون الى الحل الواقعي. ولكن الى اين تركضون ايها اليهود؟ انها حرب! انكم تركضون فعلا الى الحرب.

مع ذلك، يركض اليهود، عيونهم حمراء، وآذانهم مغلقة.

حقيقـة هيَ، أن صوت «التـرانسفير» يتزايد في (بلادنا) من أقصاها الى أقصـاهـا ـ وليس بالعكس. توجـد لدينـا حوالي خمسـة أحزاب تنادي بتطبيق

«الترانسفير»، وكلما استمر صوت هذا «الترانسفير» بالانطلاق، كلما اكتسب شرعية لدينا.

لقد احتل اصطلاح «ترانسفير» مكانة مرموقة في القاموس السياسي ـ الاجتماعي في اسرائيل في عيدها الاربعين، ذلك لأن من يضع جدول الاعمال القومي في اسرائيل هم أولئك الهامشيون المجانين. ان هؤلاء المعتوهين، لهم عيون، ولا يرون الظلم والبشاعة. لهم آذان ولا يسمعون الحرب. الظلم الذي أعنيه هو اغتيال حقوق شعب. اما الحرب، فقد تحدثنا عنها.

لنفترض جدلا، ان «الترانسفير» يمكن ان يُطبق، وأن لا تنشب حرب فورية نتيجة له. أقول: سادتي، أنتم أيها المفكرون العقلاء، اذا كان بعد ٤٠ سنة من الشتات والهجرة الفلسطينية خارج حدود اسرائيل، لا زالت منظمة التحرير الفلسطينية وبقية المنظمات العسكرية القومية ومقاتلو الحرية الفلسطينيون، ينهشون في أعناقنا ـ ماذا ستكون مقاييس هذا النهش الفلسطيني بعد «الترانسفير» الجديد الذي سيؤدي الى مضاعفة أو أكثر عدد اللاجئين الفلسطينيين. هل سيخلدون الى السكينة والهدوء؟

واذا كان نتيجة «للترانسفير» المنشود الذي يمكن أن يُنفّذ بنظام مثالي، بهدوء وسكينة، بدون أن يفتح أحد فاه، قيام دولة فلسطينية في شرق الاردن، ما الذي يمكن أن يحدث عندئذ؟ هل ستمد هذه الدولة يدها لنا للسلام، ام انها ستبادر بشن حرب يشترك فيها كل العرب؟

اذا كانت (دولة) اسرائيل تخاف حتى درجة الموت من قيام دولة صغيرة فلسطينية في المناطق المحتلة، دولة تُقام بعطف من اسرائيل وفي اطار اتفاق سلام مع اسرائيل، وفي اطار تعاون مع الدولتين الاعظم، وبقية الدول الكبرى بالاضافة الى ضمانات متنوعة ووجود مراقبين وقوات سلام وما شابه ذلك، ألا يتوجب عليها ان تخاف ضعف خوفها الحالي من قيام دولة فلسطينية تكون وليدة «الترانسفير» في شرق الاردن، تكون ترقب ساعة الانتقام، وتذكي نار حرب واسعة النطاق وتغذي الاعمال الارهابية في جميع انحاء العالم، تكون متحررة من اية قيود او ضمانات؟

اما الى اولئك الذين يضعون ثقتهم بنهر الاردن كحدود آمنة «طبيعية»، فأذكرهم بما قالوه لنا بشأن قناة السويس، تلك القناة المضادة للدبابات التي تعتبر

اضمن من غيرها من العوائق، واعرضها، في حين ان نهر الاردن لا يعتبر نهرا بشكل عام، انما هو مجرد واد فقط، لا يمكن مقارنته بالانهار الاخرى مثل النيل، الفرات، الراين، ونهر السين، او الامازون او المسيسبي ـ لقد وضع يهوشع ١٢ حجرا في نهر الاردن، واجتازه شعب كامل من فوقها، ويأتي يغئال ألون ومؤيدوه ليقرروا بأن هذا الوادي، يشكل «حدودا آمنة».

ها هي لكم فلسطين بدلا من الاردن! أليست هذه نفس الحرب بلبوس آخر؟ ام هي خطة «ترانسفير» موضوعة في الدرج لترحيل سكان فلسطين والاردن معاً الى صحراء سوريا، والعراق، والسعودية في سيارات شاحنة؟

لقد جاء في مذكرات موشه شيريت اليومية في حزيران ١٩٥٦ ما يلي:

«موشه شريت: ..ما هي النبوءة؟ ما هو المتوقع؟ كم مليون يهودي يمكن ان يصبح هنا في هذه (البلاد)؟

نحن نعيش في ظل الايمان بأننا رجعنا الى هذه الارض في المرة الثالثة لكي لا نخرج منها الى الابد، ولكي لا يعيد التاريخ نفسه مرة اخرى. ونحن محاطون بعشرات الملايين من العالم العربي..

ميئير أفيزوهر: لقد صمدنا ضدهم.

موشه شريت: لقد صمدنا في وجههم في ظل وضع معروف، غير اننا نعرف

الآن ما طرأ منذ ذلك الحين، ونحن نعرف الآن ان لديهم دافعا قويا، وانا اتحدث بشأن النبوءة، بشأن ما هو متوقع على المدى البعيد، وليس على ما قد يحدث في غضون السنوات الخمس القادمة، بل ما قد يحدث بعد ١٠ ـ ٢٠ ـ ٣٠ سنة. اذا كان هذا هو الوضع... سنكون عميانا اذا لم نستغل كافة الامكانيات من اجل الاعتماد على دولة حليفة في العالم.

ماذا يعني وجود حليف؟ أو حلفاء؟ اذا كان الاعتماد على مثل هذه القوى يشكل ثروة، فنحن ملزمون بتنمية هذه الثروة، ان ننميها ولا نحبطها... ولكن على ماذا يتوقف هذا الامر؟

ان هذا الامر منوط اولا وقبل كل شيء بنظرة العالم (لدولة) اسرائيل، كيف يرى العالم (دولة) اسرائيل؟ هل يراها كقوة ايجابية ام سلبية، كعنصر اخلاقي أم

غير أخلاقي؟ هل سيراها العالم كبيت انتاج كبير، أم مجرد دويلة لا أهمية لوجودها أو عدمه؟

ان الاجابة على هذه التساؤلات يجب أن تكون هدفا ثابتا للسياسة الاسرائيلية الخارجية، ولا يجوز ابدا إغفالها لحظة واحدة».

غير انه يوجد سبب آخر عملي يتعلق بنظرة «العالم» تجاه اسرائيل: «العالم» لا يريد أن تندلع حرب قد تتطور الى حرب شاملة. فمثلا «الترانسفير» الذي ينفذه العراقيون «بأكرادهم» لا يرتبط بخطر اندلاع اية حرب. كما انه مع شديد الاسف، لا تنطوي المذابح التي تنفذها السلطات الجزائرية بجماهير الشعب على خطر اندلاع حرب عالمية، وكذلك هو الامر بكل ما يتعلق بما يفعله العرب بالعرب.

اذا كانت قد دارت في عام ١٩٤٨ حرب بقاء طويلة، عنيفة، شهدت العديد من مختلف انواع المذابح، وعمليات طرد عرب، وهروب عرب آخرين - هل نعيش نحن الآن نفس الوضع، نفس الظروف، حتى نستطيع الاستشهاد بأقوال زعماء اسرائيليين كانوا ينادون في تلك الفترة بتطبيق سياسة «ترانسفير» ضد العرب، وكانت آراؤهم مناسبة لتلك الفترة ٤٨/١٩٤٩، وهي ليست قابلة للتطبيق ابداً في عام ١٩٨٨ - ناهيك عن الحديث عن تصريحات غامضة اطلقها زعماء يهود قبل ٦٠ أو ٨٠ سنة؟

هل يوجد هنالك من يعتقد بأن حرب الترانسفير ستكون مماثلة او متساوية مع حرب ١٩٤٨، حرب الاستقلال؟ لقد كانت حرب ١٩٤٨ حرب بقاء، حرب لا خيار فيها ابدا، نالت اجماع كافة اليهود في (البلاد) بدون استثناء.

لذلك، ألن تكون الحرب القادمة، حرب الترانسفير، لا تتمتع بإجماع قومي، ولن تكون حرب صراع على البقاء عادلة كحرب ١٩٤٨ سواء في نظر الاسرائيليين انفسهم او في نظر العالم؟ - كيف لا والمقصود في هذه المرة ليس ترحيل ٧٠٠ الف فلسطيني، بل ١,٥ مليون نسمة (هذا باستثناء ٧٠٠ ألف فلسطيني سكان اسرائيل)؟ - اذن مَن من أولئك الخبراء في الترحيل يستطيع ان يتخيل لنفسه اية حرب دامية ستقع هنا؟ مَن يستطيع ادراك ما هو المقصود هنا؟

ان «ترانسفير» لا يعني فقط حربا يهودية - عربية انما يعني حربا اهلية داخل اسرائيل. ارجو من دعاة الترانسفير ان يأخذوا هذا في الحسبان. يوجد بيننا

غوغائيون حاذقون ـ أولهم هو يسرائيل الداد، من زعماء حركة ليحي ـ يمين ـ هؤلاء الغوغائيون لولا فطنتهم وذكاؤهم لوصفوا بالكذابين، شأنهم شأن الذين يدعون النبوة.

سبق أن رددت على أحد المقالات التي كتبها يسرائيل الداد في صحيفة «هآرتس»، حيث يتنبأ هناك بين الحين والآخر، والذي ادعى فيه ان بارل كتسينلسون أيد استيطان اليهود في الخليل مستشهدا بأقوال كتسنيلسون ذاته، فقلت: ليقل كتسنيلسون ما يقول. هل هو نبي ونحن أتباعه؟ هل صدق كتسنيلسون في كل ما قاله؟

هل يمكن تطبيق ما قاله أو دعا إليه كتسنيلسون في ايامنا هذه؟ أين عقولنا نحن؟ ـ هل هي في جيبه؟

أيها السادة. إن عقولكم ليست ملكا لأحد. وان الحياة حياتكم، وليست حياة سياسيين وزعماء أموات، وليست حياة غوغائيين أحياء. إنها حياتكم أنتم.

إنني أقول أمرين: أولا: مسموح لكل إنسان أن يتنبأ. لا يمكن أن لا يتنبأ الانسان. كل إنسان في حياته الخاصة، على جميع الاصعدة، وكل مجتمع أو منظمة مهما كان نوعها لا يستطيع العيش بدون آمال وتنبؤات وتوقعات. آمال ربما تكون مبنية على أوهام، توقعات يمكن أن تعتمد على أساس تقدير وضع مغلوط، وعدم الأخذ بنظر الاعتبار حدود القوة. كل هذه التوقعات والآمال والأماني المبنية على أسس مغلوطة، من شأنها جلب الضرر فقط بالانسان أو المجتمع أو المنظمة.

بالطبع، لا يوجد بأيدي أي إنسان مهما كان، الوسيلة التي يستطيع أن يقرر بواسطتها سلفا بأن هذه السياسة ناجحة تماما، أو فاشلة تماما.

لقد قال النبي يرمياهو: ان النبوءة الحقيقية والكذب هما شيء واحد حتى يجتازا اختبار الصحة والخطأ على محور الزمان».

لذلك لا بد من التحدث هنا عن مسألة الوقت وأهميته فيما يتعلق بموضوعنا، اذ ان النبوءة تعتبر واقعية أكثر كلما كانت تتعلق بوقت أقصر، أو قصيرة المدى. وتكون أقل واقعية كلما كانت بعيدة المدى. فمثلاً، ما جدوى التنبؤ بحدوث أمور سلبية مهما كانت قد تحدث بعد مئات السنين، حتى لو كانت بعد جيلين؟ مَن سيهتم

بها، أو يقلق بشأنها في الوقت الحاضر، لدرجة تجعله يشعر بضرورة العمل لمواجهتها؟

لذلك، بدون أن أحدد توقيتا أو موعدا لتحقيق نبوءتي «زوال دولة اسرائيل» سأغامر وأقول إنها تتعلق بالمجال الزمني الذي يلزم كل اسرائيلي يعيش في اسرائيل أن يفكر الآن ويعيد النظر في تصرفاته تجاه مستقبله ومستقبل ذريته من بعده على المدى المنظور.

ثانيا: وهذا لا يقل أهمية، قال يرمياهو شيئا واحدا بسيطا هو: يوجد أنبياء حقيقيون وأنبياء كذابون. إن الانسان منا هو لحم ودم، ولا يستطيع الادعاء بأن الحقيقة ملك له، وان نبوءته حقيقية.

لذلك لا خيار لنا سوى القول: «الحذر، انتبهوا أيها الغوغائيون!».

وحتى لا ينطبق وصف «الغوغائيين» علينا، هيا نحاول تجميع الحقائق واحدة واحدة، وان نبني على أساسها إدعاءات معقولة، وان نحاول إثبات صحة نظرياتنا. كما يجب أن نضع تصوراتنا نحن ونطلب من الآخرين ايضا اختبار تصوراتهم على محور الزمان. ولكن في هذه الاثناء هيا نتعرّف على ما يلي:

أولا: نحن شعب صغير.

ثانيا: تجثم على باب هذا الشعب الصغير أخطار تتعلق ببقائه، لذلك يجب عليه أن يكون حذرا جدا، لأنه ليس كشعب كبير، لا يستطيع المغامرة بارتكاب أخطاء أو تقصيرات قومية في فترة معلومة.

ثالثا: إنه بشكل عام، وبخاصة في أوقات الشدة والضيق القومي، تصبح الأرض ممهدة نفسانيا واجتماعيا لاستيعاب بذور الديماغوجية القومية ـ المتعصبة، ولإثارة المشاعر والغرائز التي تتغلب على المنطق وتعمي العيون عن الحقيقة، وتجعل الشعب عبارة عن قطيع إنساني يسير وراء زعيم تيس، يقوده الى الهاوية، الى الحرب، يصبح الشعب عندئذ كتلة أخوية واحدة، ترتفع فيه روح التضحية. ولكن، بعد الحرب تتبخر هذه المشاعر والمظاهر كلها. تحين ساعة الحساب، حساب الربح والخسارة القومي والشخصي.

رابعا: إن تاريخ الشعب الاسرائيلي المكتظ بالكوارث والمصائب والهزائم التي كانت القسم الاعظم منها ثمرة لقرارات خاطئة لزعمائه، وبعضها لا علاقة لها بتصرفات زعمائه، يتطلب مضاعفة الحذر في اتخاذ الخطوات التي قد ينجم عنها دمار وخراب، وان لا يراهن الزعماء الاسرائيليون على كل ما يملكون قوميا.

خامسا: (دولة) اسرائيل، تشهد في السنوات الاخيرة ضائقة وجودية (بقائية) متزايدة ناجمة عن اتخاذ عدة اجراءات وسياسات مثل التآكل السكاني بالنسبة للسكان العرب في اسرائيل، وفي (أرض اسرائيل)، وفي دول المواجهة العربية، نتيجة لانخفاض نسبة الولادة، والهجرة الداخلية وزيادة الهجرة من اسرائيل الى الخارج. وتغييرات سكانية ذات صبغة يهودية تشير الى زيادة القطاع المتدين المتعصب من جهة، وقطاع المشككين من جهة اخرى. وعدم نمو اقتصادي، انخفاض مستوى الزعامة والكنيست، تدني الجهاز التعليمي على مختلف المستويات، تدني مستوى الجهاز الصحي، ازمة متزايدة متعددة الوجوه في جهاز الاستيطان الزراعي ـ القروي، ضعف مسيرة السلام ونشوء خطر ملموس لفشلها، تعزيز الوعي القومي الفلسطيني في المناطق المحتلة، وزيادة حدة التمرد الفلسطيني ضد الاحتلال الاسرائيلي، ارتفاع مستوى الميول القومي في أوساط الاقلية العربية في اسرائيل.

ربما أكون مخطئا، ويا ليتني أكون مخطئا في قولي انه في ضوء كل هذه الاشياء تواجه اسرائيل الآن في نهاية سنواتها الاربعين، ضرورة قصوى لتركيز وتجميع طاقاتها الانسانية والمادية القليلة والمحدودة، لحل مشاكل اجتماعية، اقتصادية وسياسية حيوية داخل اراضيها هي، وعدم بعثرة هذه الطاقات في مناطق ليست لها، وان تذهبها هناك هدراً في الوقت الذي هي في امس الحاجة لها؟

خلاصة القول، كم تستطيع أن تحمل من الاعباء، (دولة) صغيرة وقليلة الموارد مثل اسرائيل، علاوة على اعباء الامن والحروب؟

ولكن سواء كنت مخطئا أم لا، ها هي (دولة) اسرائيل قليلة السكان والموارد عندما تواجه خيارا حاسما بين «التوسع» في كل اتجاه، وبين «بناء» نفسها والتخلص من المناطق المحتلة التي تمتص دمها، فانها تقرر ـ وقد قررت فعلا ـ فعل اسوأ شيء في نظر التاريخ. لقد اختارت خيارها بين كل شيء أو لا شيء، بين الحرب

والسلام، بين الانتقال من ازمة الى ازمة، والاكتفاء بما هو موجود وممكن.

إن فرصة استمرار بقاء اسرائيل، كانت موضوعة ـ حسب رأيي المتواضع ـ على كفة «البناء» حسب الميزان القومي وليس على كفة «التوسع»، على كفة «المعالجة» وليس على كفة «القتل»، على كفة «تجميع الحجارة» وليس على كفة «إلقاء الحجارة» على كفة «الحب» وليس على كفة «الكراهية»، على كفة «السلام» وليس على كفة «الحروب». كانت فرصة ـ ولم تعد قائمة الآن. لقد انفجرت بئر الحرب. وليؤمن بالمعجزات من يؤمن. وكل من لا يؤمن بالمعجزات عليه أن يحسب حساب حياته.

إنني أقول: لقد تم تضييع الفرصة. لا مجال للرجوع. قطار اسرائيل يقترب من الجسر المهدوم بدون القدرة على التوقف، حتى بدون القدرة على الابطاء. اسرائيل، أسيرة أخطائها، تقصيراتها، تصوراتها ونظرياتها الكاذبة. انها مصابة بالعمى وغير قادرة على رؤية ما يقف امامها، لم يعد بمقدورها عمل تقدير وضع موضوعي، صحيح. ان اسرائيل غير قادرة على ادراك الوضع الحقيقي الذي آلت اليه. في الواقع، اصبحت اسرائيل من جميع الوجوه، غير موجودة. وعمليا انها تنتظر مصيرها النهائي.

انها لا تستطيع تحديد المدة الباقية لها في الوجود، غير انني على استعداد للمغامرة والقول: ان اسرائيل الاصلية، كما كان يطمح مؤسسوها ان تكون، لم تعد قائمة منذ زمن، منذ حرب ١٩٥٦ أول حرب اختارتها اسرائيل ولم تكن مفروضة عليها.

إن تدهور (دولة) اسرائيل «الثانية» هذه التي ابتلعت سابقتها، تحث الخطى نحو قبرها، وتزداد سرعتها في هذا الاتجاه سنة بعد سنة.

هذا التسارع، تلقى دفعة قوية في حرب ١٩٧٣، وتوقف قليلا، للخطة، في ١٩٧٨ بسبب اتفاقية السلام الاسرائيلية ـ المصرية واخلاء سيناء، لكنه عاد وتجدد بقوة اكثر في «عملية الليطاني» في ١٩٨٠، ومن ثم في حرب ١٩٨٢، وبلغ ذروته في الانتفاضة الفلسطينية في ١٩٨٧، ومنذ أن بدأت هذه الانتفاضة وهي آخذة بالتصاعد بشكل خطير غير قابل للسيطرة عليه لدرجة تجعل الانسان غير قادر على

ان يتوقع ما قد يحدث غدا..

في ضوء التوتر الشديد الذي نشأ نتيجة للانتفاضة الفلسطينية قد تحدث «مذبحة» يرتكبها فلسطينيون منتفضون ضد يهود، ويرد اليهود المتعصبون بارتكاب اعمال قتل وفظائع بالفلسطينيين، الامر الذي يجعل دعاة الترانسفير يتذرعون بهذه الاحداث بغية تطبيق فكرتهم، عندئذ تكون حرب. الحرب السادسة، حرب الترانسفير. تندلع الحرب، نظرا لايمان المتعصبين اليهود بحرب الترانسفير، ولايمان الفلسطينيين بأن الوقت يعمل لصالحهم.

لقد أكملت الدائرة وعدت الى «الترانسفير» وحرب الترانسفير، وخلال ذلك وصلت الى الانتفاضة - التي تشكل المرحلة الثانية في الطريق الى اقامة الدولة الفلسطينية، بعد مرحلة الصمود. كما انها تشكل بنفس الوقت المرحلة الاولى لحرب الترانسفير. لقد بدأت الحرب السادسة، في الواقع. وهي الآن في مرحلتها الفلسطينية، على غرار المرحلة الفلسطينية لحرب ١٩٤٨ التي بدأت بقرار الجمعية العامة للامم المتحدة في ٢٩ تشرين ثان بشأن تقسيم (أرض اسرائيل) الى دولتين، يهودية وعربية، وانتهت في ١٥ أيار مع الاعلان عن اقامة (دولة) اسرائيل، والتي كانت بمثابة اشارة البدء لغزو جيوش الدول العربية لمناطق النزاع التاريخي بين الشعبين ولاندلاع الحرب بكامل قوتها.

تلك الحرب، كانت حربا لا خيار فيها، حربا من اجل البقاء. وصمد فيها الشعب اليهودي بعد ان دفع ثمنا باهظا وتكبد خسائر فادحة جدا. وكانت نتائجها جيدة لكنها تنطوي ايضا على اخطار جسيمة، قامت (دولة) اسرائيل لكن الحرب القادمة ليست كذلك. فهي ستكون حربا مختارة، حربا ناجمة عن السياسة الاسرائيلية التي لا تعترف بالحقوق الاساسية للشعب الفلسطيني - الذي لم يختف ولن يختفي - مع كل ما يترتب على مثل هذا الاعتراف.

أما بالنسبة للخسائر - ستكون في هذه المرة أجسم اضعافا مضاعفة، وبالنسبة للنتائج - من المشكوك فيه ان يبقى ما يمكن اصلاحه او اعادة بنائه.

هنالك نبوءة أخرى تتعلق بمصر، الشعب المصري شعب عريق، يُعدّ ٦٠ مليون نسمة، وهو غير متسرع. لديه الوقت. وقد تأتي لحظة - اذا ما استمرت الأمور كما

هي عليه الآن ـ يقول المصريون فيها؛ يكفي الى هذا الحد. كان هنالك سلام وذهب.

يوجد للعرب متسع من الوقت. ما الذي يضايقهم؟ ماذا ينتظرهم؟ وماذا يمكن ان يهددهم بضياع الفرصة؟ ما الذي يجعلهم يتسرعون؟ ومن أجل ماذا؟ كل شيء بإرادة الله. وقد سبق أن قال لهم حكماؤهم: «العجلة من الشيطان».

العرب ليسوا يهودا. اليهود يستعجلون، اليهود شعب متسرع. ليس لليهود متسع من الوقت. انهم شعب طموح، هستيري، يضع لنفسه تحديات ومهام يريد ان يحققها فورا قبل فوات الاوان، وقبل ان يفقد زمام المبادرة. ان يد التاريخ تربت على الكتف اليهودية: اعملوا بسرعة، اسرعوا كي لا تتأخروا، كي لا تُدمروا، وكي لا تصبحوا زيتا على عجلات تاريخ ليس لكم. وامامكم تحدٍ ثابت دائم: أن تثبتوا أنكم المختارون، وأن تبرهنوا على قدرتكم، وعلى مدى مساهمتكم في الحضارة الانسانية على مختلف انواعها، وعلى خاصيتكم، وقدرتكم على التأقلم في اي بلد في العالم، وقدرتكم على اقامة (دولة) اليهود النموذجية التي تكون ملاذا وملجأ لكل يهودي في العالم.

نعود الآن للحديث عن العرب. توجد أمنية مشتركة واحدة لكل العرب، هي: أن لا تبقى (دولة) اسرائيل. ربما هذه الامنية ليست لكل العرب، لأن بينهم المتزن. ولكن لنفترض جدلا بأن هنالك أغلبية ترحب وتتمنى زوال اسرائيل.

لقد قلت، إن العداء العربي تجاه اليهود كان ثمرة إدراكهم الشديد والعميق بأنه رغم أنوفهم، وتحت رعاية تركية اولا، ومن ثم بريطانية قام في بلادهم، وعلى أرضهم (من وجهة نظرهم) استيطان يهودي متنام وديناميكي أحدث أمام أعينهم تحولاً كبيراً في المنطقة بأن جعل الأقلية أغلبية، والأغلبية أقلية، بإنشائه (دولة) اسرائيل.

لقد رفض الفلسطينيون وزعاماتهم الوطنية والدينية على حد سواء ما بدا في نظرهم كغزو لأراضيهم.

اننا لسنا معنيين هنا ما اذا كانت كل قطعة أرض في (ارض اسرائيل) أُقيمت عليها مستوطنة أو مدينة يهودية، قد أُشتريت بصورة قانونية ودُفع ثمنها كاملا. ان ما يعنينا هو الشعور الفلسطيني، اي شعور الفلسطينيين بأن آلاف اليهود

يتدفقون على بلادهم ويخلقون حقائق أمر واقع جديدة في المنطقة، ويغيّرون نظاما استمر (١٥٠٠) سنة عاشها العرب في هذه البلاد بصورة مستمرة ومطلقة.

ان الوضع الدائم لعروبة البلاد طيلة ١٥٠٠ سنة، لولا الغزو اليهودي الصهيوني الذي بدأ في نهاية القرن التاسع عشر، كان من شأنه ان يؤدي من تلقاء نفسه الى نشوء دولة عربية ذات سيادة في كل منطقة الانتداب البريطاني في فلسطين، او الى انضمام هذه المنطقة بإرادة سكانها الفلسطينيين أو رغماً عنهم الى سوريا او العراق او الى اقتسامها بينهما - غير ان هذا الوضع خُرق وأُنزل من جدول الاعمال القومي العربي، بالغزو اليهودي.

ان العداء العربي الطبيعي الذي نشأ ضد الغزو اليهودي تمثل ايضا بأعمال عدائية وعنيفة (أعمال سلب وتخريب وقتل). وادى هذا العداء الى جعل المستوطنين اليهود ينتظمون للحراسة والدفاع. وفي عهد الحكم البريطاني حظي المستوطنون اليهود في فلسطين ومنظمتهم شبه العسكرية (الهاغاناه) بمساعدة البريطانيين.

لقد صمد الوجود الاستيطاني اليهودي في وجه الاعتداءات العربية هذه، وتقوى ايضا. غير ان الوجود الفلسطيني تقوى هو ايضا.

ان احداث ٣٦ - ١٩٣٩ التي كانت في الواقع ثورة مسلحة ضد البريطانيين، قُمعت بيد حديدية وبثمن باهظ، ورافق ذلك نزاعات داخلية بين الفلسطينيين أنفسهم، بحيث كانوا يقتلون بعضهم بعضا لدرجة بلغت خسائرهم البشرية في نزاعاتهم الداخلية اكثر من خسائرهم التي سببها لهم البريطانيون واليهود، لكن الفلسطينيين لم يختفوا عن الوجود. لقد لعقوا جراحهم، واستمروا في التكاثر.

إن السؤال، من هو المعتدي الأول الذي خلق النزاع العربي - اليهودي لم يعد واقعيا منذ مرحلة معينة في هذا النزاع، وبالتأكيد منذ ان حقق اليهود السيادة كما كانوا يطمحون اليها، ولم يعد هذا السؤال يشغل بال أحد.

لقد أصبح الحديث يدور حول نزاع بين شعبين على قطعة أرض واحدة، ولم تعد تسوية هذا النزاع مرتبطة بالسؤال: من الذي بدأ النزاع؟ لقد رأى اليهود العمل الاستيطاني وسكنهم في (أرض اسرائيل) كعودة الى (أرض الآباء والاجداد)، ويقول اليهود المتدينون منهم أنها عودة الى (الأرض الموعودة)، (التي اختارها الله لليهود).

بينما اعتبر العرب القدوم اليهودي غزوا عنيفا لبلادهم.

اعتبـر العـرب ردودهم العنيفـة على التوسع الاستيطاني اليهودي بينهم، خطوات لا بد منها في الصراع من اجل مكانتهم وحقوقهم الاساسية؛ بينما اعتبر اليهود هذه الاعمال العربية تنكيلا بهم ومذابح يرتكبها العرب ضد اناس بسطاء.

لم يكن من الممكن التوصل الى حل وسط بين الجانبين. ان السؤال التقليدي والمنطقي الذي يُطرح تلقائيا عندما يحدث نزاع بين شخصين يواجهان محكمة وتنتظرهما عقوبة وهو ـ «من المعتدي»؟ ـ يفقد معناه في حالة كون النزاع نشب بين شعبين يقاتل كل منهما من أجل ما يبدو في نظره شرطا لبقائه. وفي مثل هذا الوضع لا توجد قيمة أغلى وأثمن من قيمة البقاء واستمراره، حتى ولو بالحرب.

كان هنالك يهود أدركوا منذ بداية تحقيق المشروع الصهيوني مسألة مغزى الفعل الصهيوني في فلسطين والنية بشأن اقامة سيادة يهودية في نهاية الامر، على السكان العرب في هذه البلاد وفرض الارادة اليهودية عليهم.

لقد ظلت هذه المسألة تقلق بعض الاشخاص المفكرين من اليهود طيلة سنوات عديدة حتى اقامة (دولة) اسرائيل وبعدها. لكن الفعل كان أقوى من القول. لقد رجحت كفة الامر المتعلق بالوجود القومي اليهودي، واصبح لا بد لهؤلاء الاشخاص من الانضمام الى المشروع الصهيوني الهادف الى تحقيق كيان يهودي ذي سيادة في هذه البلاد.

ولكن بما ان الوجود العربي في (ارض اسرائيل) لم يُدمّر، ولم يختف من البلاد ولا في أية مرحلة من مراحل الصراع، تطورت في أوساطه ايضا ديناميكية أثّرت على تطوّر الصراع وزيادة تطرفه وحدّته.

لقد اتسمت البدايات الصهيونية لاستيطان البلاد في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في عهد الحكم العثماني، بعدم وجود تخطيط سياسي وفكر سياسي بعيد المدى.

في تلك الفترة تم شراء أراض في مواقع مختلفة من فلسطين وهاجر اليهود اليها لاقامة المستوطنات عليها وذلك بهدف التشبث بها وغرس جذورهم في هذه

البلاد. وهكذا في اطار عملية تجربة وتضليل، احتلال، وتراجع، غرس جذور وقلعها، خُلقت حقائق أولية ورُسمت «خارطة يهودية» ما، في داخل خارطة (أرض اسرائيل).

كان الثمن على صعيد الارواح والموارد باهظا كما كان الانجاز كبيرا أيضا. إذ أصبحت لدى اليهود مستوطنات تنمو كالنبات في فلسطين، وبدأت هذه المستوطنات تتوسع في كل اتجاه وبصورة مستمرة، وبدأت تتقوى وتتكاثر باضطراد.

لقد أرسلت النواة اليهودية ـ الصهيونية الصغيرة مجساتها الاستيطانية من السهل الساحلي شمالا الى الجنوب والشرق بما في ذلك باتجاه الاردن والجولان. اما التجربة في هضبة الجولان فقد فشلت.

إن الوقت والتاريخ، سارا يداً بيد مع الصهيونية المتجسدة في عهد البريطانيين ايضا. وكان الشعور لدى اليهود متفائلا وكأن المستقبل اصبح مضمونا. كانت هنالك صعوبات ومشاكل، اخطاء وتراجعات، ضربات شديدة وسهلة، كانت هنالك مجابهات مع العرب ومع البريطانيين، لكنه رغم كل هذا كانت الامور مشجعة. كانت الثقة بنجاح المشروع الصهيوني قوية وتغلبت على براعم اليأس. لقد علّم الآباء أولادهم الأناشيد الطلائعية، أناشيد الاحتلال والتضحية الفردية، وأرسلوهم مع بسمة على الشفاه الى خط الجبهة، الى المستوطنات والاعمال الامنية.

لكن المشروع الصهيوني بما شهده من عملية بناء ديناميكية بفضل الموارد التي دفع بها يهود الشتات الى (البلاد) والتطوير الذي شهدته (ارض اسرائيل) في عهد الانتداب البريطاني، ادى بنفس الوقت الى رفع مستوى الحياة لدى الجمهور العربي في البلاد.

كان هنالك بعض اليهود السذج الذين ادعوا بأنه يجب على العرب في فلسطين ان يشكروا اليهود على التسبب في رفع مستوى حياتهم، وعليهم أن يرحبوا ويباركوا بكل زيادة في قوة اليهود وأن يسلموا بحكم يهودي في هذه البلاد لأن ذلك سيعود عليهم بالفائدة والخير فقط. لكن الفلسطينيين رفضوا هذا الموقف بكل اصرار. كان ردهم بسيطا للغاية: لم نطلب منكم تحسين مستوى حياتنا، ولم نستدعكم الى هنا لتعلمونا كيف نتطور، وليس لكم فضل علينا في اي شيء.

لقد كان أفضل بكثير لو لم تجيئوا من حيث أتيتم. ان وجبة خضار، افضل من ثور سمين وسيادة يهودية. كان من الافضل بالنسبة لنا التقدم والتطور البطيء

بإسلوبنا نحن. لدينا وقت طويل. لسنا في عجلة من أمرنا على صعيد التقدم والتطور. ما الداعي للعجلة؟ وهل هذا شأنكم؟ اتركونا وشأننا. لا تحاولوا تعليمنا ما هو المفيد لنا. ولكن اذا غزوتم أرضنا رغم ارادتنا، وخلافا لمصلحتنا الوطنية وترسختم هنا، ومع ذلك أسهمتم في تقدمنا وتطورنا، فلن ندفع لكم مقابل هذا تنازلا عن ذاتنا القومية ـ الوطنية، ولن تخرجوا الرابحين في نهاية المطاف. بل العكس، ان قوتنا وتفوقنا عليكم في النهاية سيكلفكم ثمنا باهظا جدا في يوم الحساب.

لم يكن لدى الحركة الصهيونية جواب لهذا الادعاء الفلسطيني. كان واضحا بأن المجابهة ستحسم في اختبار عنيف. لم يكن واضحا كيف سيْحسم فورا وكيف على المدى البعيد. كان الخروج من هذه الورطة بدفع المشكلة، اي تأجيلها وتكريس الجهد اليهودي القومي لخلق اكبر عدد ممكن من الحقائق في المنطقة من خلال الاسراع والاكثار من اقامة المستوطنات جنبا الى جنب مع انشاء القوة المدربة الجاهزة لخوض المجابهة الحاسمة مع الفلسطينيين، ان الهجرة اليهودية الى فلسطين لم تحدث في فراغ. بل كانت ترافقها هجرة عربية اصبح رجالها ابناء عمومة للفلسطينيين ولا فرق بين الاثنين.

التطور اليهودي، أحدث تطورا فلسطينيا. اذ بدأ الفلسطينيون يقلدون اليهود في مشاريع التطوير على جميع الاصعدة. لن يفيد اليهود الادعاء بأن «البلاد كانت فارغة»، وبعد قدوم البريطانيين فقط إمتلأت هذه البلاد «بالحوارنة» أو «المصريين» الذين ليس لهم أي شيء في (أرض اسرائيل). ان هذا ادعاء ساذج، لن يجد أذنا واحدة تصغي اليه. ربما يكون هذا الادعاء جيدا بالنسبة للاستهلاك الذاتي، ولكن ليست له أية قيمة أو وزن على الصعيد السياسي والعملي. أولا، لم تكن البلاد فارغة. ثانيا، يوجد في هذه البلاد أُناس يقولون عن أنفسهم أنهم فلسطينيون وإن أياً منهم لن يتحرك من مكانه اذا قيل له إن أباءه هاجروا الى فلسطين من سوريا أو من الحجاز أو من مصر. ولكي نتخلص من مثل هذا غير الفلسطيني يجب طرده أو قتله.

إذاً من هو الجدير بمعاقبته على قصر النظر هذا، (قصر نظر الحركة الصهيونية)؟

لقد سبق أن قلت أنه في لحظة معينة فقد في الواقع السؤال «من البادىء؟» ومن «المعتدي؟» أهميته. لقد نشب صراع على قطعة أرض قد ينتهي بحل وسط مؤلم

سواء عن رغبة أو بدونها ـ يكون مؤلما لجانب أكثر من الجانب الآخر ـ أو قد ينتهي بنصر مطلق لطرف على الطرف الآخر، ومعنى هذا الانتصار دمار وفناء أحد الطرفين.

ان من الاهمية بمكان أن ندرك ونفهم في ضوء هذا الصراع أمرين إثنين:

أولا: في حالة الصراع على البقاء بين شعبين ـ خلافا لما هو الحال بين دولتين ـ تتكون في كلا المعسكرين هوامش مجنونة فعالة يكون لتصرفاتهم العنيفة تأثير بعيد المدى على تغذية وتصعيد ديناميكية التبادل للصراع القومي.

ثانيا: شكل العرب الفلسطينيون اغلبية مطلقة في (ارض اسرائيل) ـ الامر الذي يصعب على الاسرائيلي الحالي فهمه واستيعابه ـ وترسخت هذه الحقيقة في انفسهم، ولم يخطر ببالهم ابدا أن يحدث تحول ما يؤدي الى طرد الغالبية العظمى منهم من بلادهم، ويجعلهم اقلية فيها. من الصعب أن يهضموا هذه الحقيقة. لا توجد لمثل هذا التحول سابقة أو مثيل في عالمنا هذا.

إذاً، ليس من الغريب، على أية حال، أنه في نهاية المرحلة الأولى من الثورة العربية في عام ١٩٣٧، وعندما نشرت لجنة تقصي الحقائق البريطانية التي أُرسلت الى فلسطين في بداية تلك السنة من قبل الحكومة البريطانية توصياتها التي اشتملت على تقسيم (أرض اسرائيل) الى دولتين، دولة عربية تضم معظم مساحة (أرض اسرائيل)، و(دولة) يهودية تضم المنطقة التي ستبقى تحت إشراف بريطاني، رفض العرب نهائيا التقسيم المقترح ـ هل تتنازل الأغلبية عن مكانتها وحقوقها؟ ـ بينما قبله اليهود.

ان الاغلبيــة الفلسطينية والاقلية اليهودية، المعسكرين اللذين جمعا القوة والارض لدرجة أصبحا قادرين على انشاء دولة لكل منهما على جزء من هذه البلاد ـ أصبحا وجهاً لوجه في مجابهة علنية، وقف البريطانيون فيها الى جانب مؤيدي حل التقسيم أي اليهود، وضد المتمردين الرافضين، اي الفلسطينيين، الذين نظرا لكونهم الاغلبية قالوا: «كلها لنا». ثم جاءت الحرب العالمية الثانية لتحرق كل الاوراق.

المفتي أمين الحسيني، زعيم الاغلبية العربية، عدو البريطانيين، راهن على انتصــار الالمــانيين وانضم علانية الى القطار النازي. بينما الاقلية اليهودية في فلســطين، تعــاونت جميعهــا مع البــريــطانيــين. وتلبية لنداءات الوكالة اليهودية

ومؤسسات الاستيطان اليهودي في فلسطين، تطوع (٣٠,٠٠٠) يهودي من فلسطين - ٥٪ من يهود فلسطين - للالتحاق في وحدات الخدمات والقتال اليهودية في الجيش البريطاني، وفي اواخر الحرب شُكّل من هؤلاء المتطوعين، نتيجة لجهود سياسية، لواء يهودي محارب - «البريجداه» - الذي حارب الالمان في الجبهة الايطالية على نهر سنيو.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت الحركات اليهودية في (أرض اسرائيل) بممارسة النشاطات الارهابية ضد البريطانيين أنفسهم. وقامت حركتا إيتسل، وليحي، بنسف عدة مبان قيادية تابعة لادارة الانتداب وأعدمت شنقا رقيبين من الجيش البريطاني في نتانيا. بعد ذلك أعلنت بريطانيا سحب يدها من الانتداب البريطاني على (ارض اسرائيل)، ثم شُكّلت لجنة الامم المتحدة الخاصة (بأرض اسرائيل) التي أوصت بتقسيم البلاد الى دولتين (يهودية بـ٦٢٪ من الارض، وعربية بـ٣٨٪ من الارض)، وقبلت الجمعية العمومية للامم المتحدة توصية اللجنة بأغلبية ٣٣ صوتا (بما فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) مقابل ١٣ صوتا. ابتهج اليهود بالقرار، بينما بكى العرب واحتجوا. وفي ١٥ أيار أُعلن عن (قيام دولة اسرائيل)، وفي اليوم التالي إندلعت حرب (الاستقلال) ١٩٤٨.

انتهت الحرب بالشكل الذي انتهت اليه. وقامت (دولة) اسرائيل بالشكل الذي أُقيمت عليه. المشكلة اليهودية - مشكلة شعب بدون ارض - ثم حلها. غير ان الحلول، كما هو معروف، تحمل وتلد مشاكل. خُلقت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين التي زادت من حدة المشكلة الفلسطينية.

لقد بدا وكأن الفلسطينيين قد اختفوا في ثنايا التاريخ. نعم، أقول وكأنهم، إذ أنهم واصلوا تكاثرهم بالسرعة المناسبة لهم، واصلوا تقوية أنفسهم، واصلوا تعميق وعيهم القومي والوطني الخاص بهم. واصبح تجسد «الدولة الفلسطينية التي في الطريق» والتي على وشك القيام، مسألة وقت فقط، تماما كما كان تجسد «الدولة اليهودية التي في الطريق» في حينه مسألة وقت فقط.

إن عدم اعتراف الفلسطينيين آنذاك في عملية تكوين (الدولة) اليهودية أدى الى مصيبتهم في حرب ٤٨ - ١٩٤٩. وإن عدم الاعتراف الآن بتكوين الدولة الفلسطينية، من جانب الاسرائيليين سيؤدي حتما الى الحاق المصيبة بهم أنفسهم،

أي اليهود. ويمكن لليهود تفادي هذا المصير في حالة واحدة فقط هي التسليم بمسيرة تكوين «الدولة الفلسطينية» الحتمي، وبدلا من محاربتها ان ينضموا اليها. انني أُسدي للاسرائيليين «موعظة مصيرية» هي أنه بدءاً من اللحظة التي تخرج فيها الدولة الفلسطينية الى حيز الوجود لن يكون بالامكان إقتلاعها أو إلغاء وجودها.

لقد خرجت (دولة) اسرائيل الوليدة من حرب ١٩٤٨ منتصرة، مع انها كانت منهكة من آلام الولادة في الحرب، كلها آمال للمستقبل. وحظيت اسرائيل الجديدة بعد انتصارها، إنتصار داوود على جوليات، بتعاطف وحب معظم دول وشعوب العالم.

كانت التوقعات كبيرة، وبخاصة في اسرائيل. اذاً، ماذا حدث حتى انه في غضون ٤٠ سنة فقدت اسرائيل الكثير، الكثير من رصيدها في بنك التعاطف والتأييد العالمي، وأصبحت تعاني من المشاكل الأمنية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، والسكانية؟

هل كان بالامكان منع هذا التحول أم لا؟

كيف أُستبدلت سنوات اسرائيل السبع الخيّرات بسبع أُخر شداد. ولا يعرف أحد متى ستنتهي هذه السنوات الشداد، هذا اذا كانت لها نهاية أصلا؟ إليكم على سبيل المثال، علاقات اسرائيل مع الاتحاد السوفياتي. كان الاتحاد السوفياتي الستاليني مؤيدا متحمسا لتقسيم (ارض اسرائيل) الى دولتين، يهودية وعربية، وبعد الاعلان عن (قيام دولة اسرائيل)، سارع الى الاعتراف بها. ما الذي حدث حتى شوشت العلاقات بين الدولتين؟

لقد توقع الاتحاد السوفياتي ان البريطانيين سيغادرون الشرق الاوسط في وقت ليس ببعيد. هذه المنطقة التي لا تبعد كثيرا عن الحدود السوفياتية الجنوبية. اذاً ما العمـل؟ غير ان هذا ليس هو السبب الوحيد. ربما افترضت موسكو ان اسرائيل ستخرج من هذه الحرب القاسية من أجل إقامتها، «حمراء»، أو على الاقل «وردية»، وربما لم تفترض هكذا، لكنها حتما لم تتوقع أن تخرج اسرائيل (دولة) موالية للغرب بشكل فاضح هكذا.

وفعلاً، فور قيامها، أعلنت اسرائيل أنها ستنتهج سياسة «عدم إنحياز» الى أي من الكتلتين المتخاصمتين اللتين نشأتا في نهاية الحرب العالمية الثانية. غير ان

هذا الاعلان سرعان ما تبخر في الهواء، وإنحازت اسرائيل بوضوح تام الى الكتلة الغربية. لم يكن باستطاعة اسرائيل أن تفعل غير هذا. لقد قامت (دولة) اسرائيل الجـديدة لاستيعاب ملايين اليهود المشتتين في العالم. كان هذا السبب الرئيس لقيامها. انها لم تقم من أجل الى ٦٠٠ ألف يهودي الذين كانوا مقيمين في (ارض اسرائيل). لقد كانت جميع محاولات وجهود الحركة الصهيونية على مر الاجيال منذ أواخر القرن الماضي، تسعى لتحقيق هدف واحد هو عودة الشعب اليهودي الى (ارضه).

لكن السوفيات لم يفهموا هذا الشيء الانساني. رأى ستالين في أواخر أيامه بأن اليهود السوفيات الذي أرادوا الهجرة الى اسرائيل ولم يُسمح لهم بذلك «طابورا خامسا». وأُرسلت الزعامة اليهودية كلها تقريبا الى السجن في الاتحاد السوفياتي، ونفّـذ حكم الاعـدام في اعداد لا بأس بها من المفكرين والعلماء اليهود وزعماء التنظيمات اليهودية في الاتحاد السوفياتي في آب ١٩٥٢.

غير أن حكـومـة اسرائيـل لم تسكت، بالطبـع. فقد هاجم زعماؤها بشدة اللاسـامية المجنونة التي وصفوا بها زعماء الكرملين، ودعوا الى السماح لليهود السوفيات بالهجرة الى اسرائيل. ولم تكتف اسرائيل بذلك بل قامت مجموعات سرية بتفجير قنبلة في ساحة مبنى السفارة السوفياتية في تل ابيب في مطلع شباط ١٩٥٣، وردا على ذلك قررت موسكو قطع علاقاتها الدبلوماسية فورا مع اسرائيل لأول مرة (ثم استأنفتها في تموز ١٩٥٣).

لكن هذا ليس كل شيء. لم يكن الخلاف مع الاتحاد السوفياتي ناجما فقط عن منع هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل. اذ ان هجرة عشرات الآلاف من يهود الدول الغـربيـة والبـلاد الاسـلاميـة الى اسرائيل في سنواتها الاولى، والضغوط الاقتصادية التي نجمت عن تلك الهجرة وعن مهام أمنية وتطويرية أخرى التي واجهتها (الدولة)، أرغمت اسرائيل على التوجه نحو رأس المال اليهودي وليس الى اليهود أنفسهم. والرأسماليون اليهود، مكانهم ليس في موسكو، بطبيعة الحال، أو في عواصم الكتلة الشيوعية، انما في نيويورك، ولندن، وباريس، وجوهانسبرغ، وفي العالم الحر فقط، في العالم الغربي المفتوح، العالم الذي يستطيع اليهود فيه تنظيم أنفسهم سواء للهجـرة أو لمسـاعدة غيرهم على الهجرة الى اسرائيل، وان يفعلوا

بأمـوالهم كمـا يريـدون وان يستخدموا نفوذهم على الرأي العام ولدى منظمات سياسية وحكومية وحكومات أيضاً.

وهكـذا في ضوء الحـرب البـاردة التي كانت سائدة بين الكتلتين الشرقية والغربية لم يكن باستطاعة اسرائيل سوى الانضمام الى تأييد العالم الغربي، العالم الحر، العالم الذي يشكل اليهود الاحرار فيه لحماً من لحمه. وهكذا سقطت سياسة عدم الانحياز الاسرائيلية.

موسكو، أُصيبت بهزة: «ماذا فعلنا»؟ صوّتنا في الامم المتحدة لصالح تقسيم (ارض اسرائيـل) لدولتين مستقلتين من اجل الاسراع في خروج البريطانيين من الشرق الاوسط، اعترفنا باسرائيل فور الاعلان عن إنشائها، وأقمنا معها علاقات دبلوماسية، صوّتنا الى صالح قبولها عضواً في منظمة الامم المتحدة، واكثر من هذا، لم نمنع، بل شجعنا إرسال الاسلحة التشيكية لليهود الذين يحاربون دفاعا عن أنفسهم في فلسطين ـ وعلى ماذا حصلنا مقابل كل هذا؟

لعنـة ثلاثيـة: «يهـودنا» (اليهود السوفيات) حتى أولئك من بينهم الذين تظاهروا بشيوعيتهم وإخلاصهم، ظهروا على حقيقتهم كمؤيدين متحمسين (للدولة) اليهودية، (دولة) «الصهيونية الدولية» ـ تماما «طابور خامس» بيننا، يجب إبادته قبل فوات الأوان، لأنه إذا نشبت حرب عالمية ثالثة، لا شك بأنهم سيحاربون الى جانب الدول الغربية.

في (أرض اسرائيل)، أيدنا اقامة دولتين يهودية وعربية، ولذلك رفضنا غزو جيوش الدول العربية (الرجعية) للدولة اليهودية، حتى أننا قدمنا المساعدة لليهود للدفاع عن أنفسهم واستغل هؤلاء اليهود سلاحنا لاحتلال أراض ليست لهم. ماذا يعني هذا؟ ان الحدود التي وُضعت بموجب اتفاقيات دولية يجب أن تكون مقدسة. فاذا سُمح اليوم لليهود بخرق هذه الحدود، ما الذي سيحدث غدا اذا قام شعب آخر بمثل هذا العمل ـ هل سيكون هذا في صالحنا؟ توجد لنا مصلحة واضحة في استقرار الحدود وثباتها. وخلاصة القول نحن لسنا مؤيدين لليهود، ولا معادين للفلسطينيين، نحن معادون للبريطانيين.

لا شك بأن موسكو، خاب أملها من (الدولة) اليهودية في جميع النواحي، تلك الدولة التي هي نفسها ساهمت في ولادتها وانضمامها الى الأسرة الدولية، عندئذ

أعاد السوفيات تقديراتهم من جديد، وكان تقدير الوضع السوفياتي الجديد على النحو التالي:

البريطانيون، خرجوا من المنطقة. لكن (دولة) اسرائيل حلت محلهم كإسفين غربي في الشرق الاوسط. لذلك ما الذي يجب علينا عمله من أجل تعزيز قوتنا في هذه المنطقة الاستراتيجية بالنسبة لنا؟ أمامنا فرص كبيرة لغرس أسافين خاصة بنا - ننادي بحقوق الفلسطينيين، ونكسب الاصدقاء في العالم العربي.

بشكل أو بآخر، تبنى الاتحاد السوفياتي «القضية الفلسطينية» وضمن بذلك عدم نزول هذه القضية من جدول الاعمال الدولي.

وبفضل جرائم سياسة الانتقام الاسرائيلية ضد المصريين، وجرائم الفرنسيين ضد الجـزائريين، وجرائم البريطانيين في مصر، التي تجسدت فيما بعد بالمؤامرة المشتـركـة في حرب ١٩٥٦، اكتسب السـوفيـات صداقة مصر وسوريا والعراق والجزائر، ومن ثم في اليمن الجنوبي.

كيف ردّت اسرائيل على التواجد السوفياتي في الشرق الاوسط، بعد ان كان لها نفسها، دور كبير في احضارهم الى المنطقة؟

لقد استغلت اسرائيل الوجود السوفياتي في المنطقة بشكل خطير جدا. لقد أعلنت اسرائيل: نحن (دولة ديمقراطية)، ولذلك نحن تابعون الى العالم الديمقراطي، نحن يهود، شعب عالمي، ولذلك يهمنا أن يعيش اليهود أحرارا في جميع انحاء العالم يحق لهم تنـظيم أنفسهم وابـداء تضامنهم مع من يريدون، ونستنكر السياسة السوفياتية تجاه اليهود السوفيات التي لا تنبع فقط من اللاسامية السوفياتية انما ايضـا من الجـوهـر الدكتاتوري لنظام الحكم البلشفي الذي يصادر الحريات، وبخاصة حرية اليهود. نحن صهيونيون ولذلك لا نستطيع السكوت أو السماح لأي نظام مهما كان اسلاميا او شيوعيا، بأن يمنع اليهود من الهجرة الى اسرائيل أو الى اي بلاد اخرى. نحن (دولة) تستوعب مهاجرين كثيرين، لذلك نحن بحاجة الى مساعدات اقتصادية كبيرة، وبما ان مثل هذه المساعدات يمكن ان تأتي فقط من جماهير اليهود الاحرار، من بنوك غربية ومن خزائن حكومات غربية - وليس من دهاليز الكرملين - لن نقاطع العالم الغربي ونحكم على أنفسنا بالاختناق. نحن (دولة) في حصار، لذلك نحن بحاجة الى مساعدات عسكرية، وهذه المساعدات ايضا

يمكن ان تأتي فقط من العالم الغربي، ولكن هذا لا يعني أننا شركاء في «الحرب الباردة».

شيء آخر هو إعلان اسرائيل صباح مساء:

نحن (دولة) اسرائيل، حصن (الديمقراطية) في الشرق الاوسط. نحن (دولة) اسرائيل، ثروة استراتيجية عظيمة القيمة وحيوية للدول الغربية، والعمل بدون هوادة من أجل الانضمام الى احلاف عسكرية مثل حلف شمال الاطلسي، وخدمة المصالح الامريكية في انحاء مختلفة من العالم، من امريكا اللاتينية وحتى ايران، لتكون اسرائيـل بمثـابـة مقاول للاعمال القذرة. لقد سلكت حكومات اسرائيل المتعاقبة جميعها هذه الطريق الخطرة.

ان توق اسرائيل لأن توصف بأنها ثروة استراتيجية غربية، علاوة على كونها «محركا» لاثارة شفقة المتبرعين الامريكيين اليهود وغير اليهود الى «صندوق الجباية اليهـوديـة»، ومشروع السندات الذي تصدره وزارة المالية الاسرائيلية وغيره من الصناديق المالية الاسرائيلية، يشكل في جوهره دليلا واضحا على عدم ثقة القادة الاسرائيليين بقدرة (دولة) اسرائيل على البقاء عسكريا وامنيا. وها هي، مرة اخرى، تحاول اسرائيل كسب قوتها عن طريق كونها (دولة) - سمكة - تشكل طعما لسمكة القرش الامريكي. وبهذه الطريقة لم تتنازل اسرائيل عن نفسها وتبيعها مقابل قليل من الذخيرة فحسب انما وضعت نفسها في وضع تصبح فيه عندما لا تُطلب لسمكة القرش الامريكي - وقد يكون لذلك مئة سبب وسبب - فإنها ستفقد سروالها الامني وتقف عارية امام اعدائها.

هنالك انطباع بأن الاسرائيليين يعتقدون بأن الضربات التي يوجهونها المرة تلو الاخـرى للطرف الثاني (العرب) ينساها العرب بسرعة، الامر الذي يمكنهم توجيهها في كل فرصة سانحة. لكن هذا الاعتقاد هو مجرد هراء. لا يوجد أي سبب في العالم يجعل العرب ينسون ضرباتهم. انهم يجمعونها واحدة واحدة، ورغم انهم لم يردوا عليها مباشرة، الا انهم بالتأكيد ينتظرون الفرصة المناسبة للرد. ان التربية الاسلامية، هي ايضا تنص على الانتصار حتى تحين الفرصة المناسبة للانتقام.

على اية حال، اذا كان العرب يعملون حسب مبدأ ان الوقت يعمل لصالحهم، فهم غير مضطرين للاسراع في الرد على كل ضربة اسرائيلية.

يبـدو انـه توجـد لدينـا حالة عدم تناسب واضحة: الاسرائيليون، دائما متسرعون في الرد انطلاقا من الاعتقاد بأن عدم الرد سيفسر من قبل العرب على أنه ضعف وسيؤدي الى المساس باسرائيل. (يجب أن نضيف الى هذا الاعتبار الداخلي: الافراط في الرد من شأنه أن يفسر من قبل الجمهور الاسرائيلي ذاته على انه ضعف في السلطة، واهدار لحياة اليهود).

توجد لدى العرب قدرتهم على امتصاص الضربات وتحمل الخسائر، وهذه القدرة تفوق بشكل لا يمكن المقارنة به قدرة اليهود. كما ان قدرتهم على الحساب والانتظار اكبر بكثير جدا من قدرة اليهود على ذلك. عندما لا يرد العرب على الضربة الاسرائيلية، لا يعني هذا انهم لن يردوا بضربة قادمة حتما. لكن الاسرائيلي الساذج لا يفهم الامر هكذا. انه يفهمه على ان العدو الذي يواجهه (العرب) هو مجرد عدو جبان وضعيف، لذلك يحتقره ويستهزىء به ويكيل الضربات له الواحدة تلو الأخرى. غير أن يوم الحساب، يوم الانتقام العربي، لا بد قادم على شكل مفاجأة مرعبة. ولكن اسمحوا لي، ايها السادة، ان اعود الى الصعيد الدولي. سواء كانت محاولات اسرائيل وسعيها للانضمام الى احلاف عسكرية مع الولايات المتحدة من اجل ضمان تفوقها العسكري باستمرار، مثمرة ام لا، فان اسرائيل ليست على استعداد لأن تفقد من خلال هذا التصرف، سيادتها الجوهرية والتحول الى (دولة) تابعة فحسب، انما ستجعـل الحركة الصهيونية تفقد مكانتها ووجهها واهدافها. كما انها بالسماح لنفسها بأن تكون ذيلا للدول الغربية تضمن استمرار الدعم السوفياتي لأعدائها.

ان اسرائيل، على اية حال، ساهمت وتساهم بشكل ملموس جدا، من خلال مصلحة بقائية واضحة، في تحويل الشرق الاوسط الغربي، الى موضوع خلاف بين الكتلتين، الشرقية والغربية. واذا كانت قد فعلت ذلك في سنوات عمرها الاولى عن غير قصد منها، فإنها الآن تعمله بقصد واصرار مسبق، وذلك بادعائها انها تشكل ثروة استراتيجية للغرب في المنطقة.

بعبارة اخرى: «مناسب» لاسرائيل أن تستفز سوريا كي تعتمد (سوريا) اكثر فأكثر على الاتحاد السوفياتي، كي تستطيع اسرائيل عندئذ الحصول على اجرها مقابل صد «التغلغل السوفياتي الخطير الى منطقة الشرق الاوسط»، هذا بدلا من محاولة جرّ سوريا وروسيا للانضمام الى المسيرة السلمية في المنطقة التي سيترتب

عليها، بالطبع، إعادة هضبة الجولان الى سوريا مقابل اشتراك سوفياتي جلي في كبح جماح سوريا وضمانات السلام في المنطقة.

هل يوجد هنالك من يعتقد بأن الاتحاد السوفياتي يمكن ان يسحب يده في يوم من الايام من المنطقة، ويعلن على الملأ: «لا شأن لنا نحن السوفيات في بؤرة النزاع هذه في العالم»؟

إن ما هو معقـول أكثر هو أنه كلما زادت درجة الانفتاح والمصالحة بين الكتلتـين، الشرق والغـرب، كلما زادت الاتفاقيات المتبادلة بين الطرفين من اجل الحيلولة دون نشوب حرب بينهما، وكلما اتخذا خطوات متبادلة لتسوية النزاعات المحلية التي قد تعرض للخطر السلام العالمي نتيجة لتورط الدولتين العظميين في هذه النزاعات، وعندما تنطبق هذه المسيرة على النزاع في الشرق الاوسط ستفقد اسرائيل الكثير من كونها «ثروة استراتيجية» للغرب، وتتحول الى عبء اكثر من كونها «ثروة»، هذا مع وجود اوساط في الولايات المتحدة سواء سياسية أو عسكرية تعتبر اسرائيل اليوم عبئا على الولايات المتحدة اكثر من كونها ثروة.

لقد جاءت (دولة) اسرائيل الى العالم في لحظة نادرة، أيدت فيها الدولتان العظميان مبدأ اقامتها. وعندما حكمت هاتان الدولتان على اسرائيل بالانسحاب من سيناء في عام ١٩٥٧ ـ انسحبت.

وعندما تقرر الدولتان العظميان نفساهما وضع حد لتحكم اسرائيل بالشعب الفلسطيني وحل قضيته بالاعتراف بحقوقه وبدولة خاصة به في المكان الذي يعيش فيـه هذا الشعب ـ لن تفيد اسرائيل كل ادعاءاتها وتبريراتها. انها ستُرغم على الانسحاب الى الخطوط التي ستُحدد لها.

إذاً، ألا يقول العقل السليم أن أفضل علاج لمنع مثل هذا الاكراه وتخفيف حدته، هو التوجه فورا الى مؤتمر دولي لتسوية النزاع بمحض ارادة اسرائيل، او حتى بمبادرة واعلان عن استعداد اسرائيل لحل وسط بدون شروط مسبقة ـ وليس رغم أنفها كالشاة التي تساق الى المسلخ؟ غير ان التاريخ يقول أن مثل هذه المبادرة لن تأتي من جانب اسرائيل ابدا. اذ ان اسرائيل تفضل دائما أن تكون مكرهة، وان تدفع مقابل حل يأتي متأخرا، ومفروضا، ثمنا اغلى بكثير مما كانت قادرة على دفعه قبل فوات الاوان، مقابل حل وسط ناجم عن مبادرة من جانبها هي.

هكذا، على اية حال، مع مزيد من الدهشة والاستغراب نجد ان اسرائيل هي العنصر (الدولة) الوحيدة في العالم التي تربط مستقبلها وبقاءها باستمرار النزاع بين الشرق والغرب عامة، وفي الشرق الاوسط خاصة، لأن هذه الاستمرارية تغذي النزاع الشرق اوسطي، وتسهل على اسرائيل مواصلة الرضاعة من ثدي الولايات المتحدة العسكري.

انني اقول: ان هذه خطيئة وجريمة لا تغتفر. ان هذا يجعل من اسرائيل مغامرة ساذجة تراهن على مجابهة عالمية، ويجعل منها سفاكة دماء، وسيفا مأجورا، وخادما قذرا للامريكيين. يجعل من اسرائيل «دولة عاهرة» على غرار ما حدث في قضية المساعدة العسكرية الاسرائيلية لايران. لقد كان منطق مؤامرة ١٩٥٦ حجر الزاوية في السياسة الاسرائيلية.

ان تلك السياسة البشعة تحكم على اسرائيل ان تكون دائما عدوة ابدية للاتحاد السوفياتي، وهناك يوجد حوالي ثلث اليهود في العالم.

ان اسرائيل تكشف في سياستها هذه ليس فقط عيوبها الاخلاقية. انها تثبت مدى قصر نظرها وعمى سياستها، اذ انه في نهاية المطاف لا بد ان يسير العالم، كما نرى اليوم، ليس نحو الحرب، ولا نحو تصعيد المجابهة بين الشرق والغرب، انما نحو السلام العالمي الدائم، نحو الاعتدال والتفاهم المتبادل، نحو نزع السلاح وتوجيه الطاقات والموارد نحو النمو الاقتصادي ورفاهية الشعوب. إن مصير الحدود لا بد أن تختفي وتُفتح. سيتوحد العالم شيئا فشيئا. ان النقص في الموارد في العالم يحتم هذا التوجه. ان المشاكل السكانية في العالم تحتم هذا. لن تكون هنالك حرب عالمية ثالثة. ان الروس لن يغزوا غيرهم، ولن يتعرضوا للغزو. والامريكيون لن يهاجموا احداً ولن يتعرضوا للهجوم. وآمال (دولة) اسرائيل وتمنياتها بحرب ياجوج وماجوج لن تتحقق. ستظل اسرائيل هي الوحيدة في العالم التي تسير مسرعة الى هاوية الحرب، ذلك لأن نهاية النزاع بين الكتلتين، الشرق والغرب، والتوصل الى تفاهم متبادل بينهما سينجم عنه ارغام اسرائيل على التوصل الى تسوية وتفاهم مع الفلسطينيين، ومع الاردن، ومع سوريا. وهذا يعني، دولة فلسطينية. واعادة هضبة الجولان الى اصحابها. وتثبيت القدس كعاصمتين لدولتين، والتنازل الى ابد الآبدين عن بناء الهيكل الثالث في ساحة المسجد الاقصى.

هل يمكن ان نتخيل يوما اسود من مثل هذا اليوم في تاريخ شعب اسرائيل؟

هل يوجد هنالك حلم مفزعٍ أفظع من سلام عالمي يكون ثمنه تنازل اسرائيل عن المناطق المحتلة؟

ربما أكون مخطئا. أرجو أن أكون مخطئا. ولكن ماذا لو لم أكن مخطئا؟

أيها السادة، رافضي السلام، ورافضي التسوية، ماذا يعني معارضة اسرائيل لعقد مؤتمر دولي، مؤتمر قد يبشر العالم بأن ها هي المسيرة السلمية العالمية تقف على ابواب الشرق الاوسط؟

وماذا يعني الخوف من اشتراك الاتحاد السوفياتي في تسوية النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني، اليهودي ـ العربي، تلك المشاركة الحتمية ـ اذا لم يكن خوفا من التوصل الى تسوية نهائية للنزاع، ومن الفرصة النهائية والوحيدة لانهاء الحروب وسفك الدماء اليهودية ـ العربية، لأن هذا يتطلب انسحابا من «يهودا» و«السامرة» ومن شرق القدس، من شبر هنا، وحجر هناك، من شجرة هنا، وتلة هناك. هل تدركون ماذا مقابل السلام في نظر اسرائيل؟

كلا. أيها السادة. إنني أؤكد لكم باخلاص: عندما يأتي السلام الحقيقي، ستنسون المستوطنات كما سبق أن نسيتم أسماء مستوطنات المستوطنين اليهود في الجولان في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ـ «لا سمح الله! إنهم يريدون يافا وتل أبيب!» إذاً، استمروا أيها الاسرائيليون في مراهناتكم ليس على التسوية ونتائجها الايجابية الممكنة، انما على التطرف والتعصب ونتائجهما الحربية الواضحة. واصلوا رفضكم للسلام. والى اللقاء، هذا اذا قُدّر لنا ان نلتقي، في الساعة السادسة بعد الحرب القادمة. أرى أنه قد حان الوقت للتوقف عن الحديث عن السوفيات والعودة الى موضوع الانتفاضة.

ان الانتفاضة تعكس النظرة الاسرائيلية للفلسطينيين كشعب متدن يستحق العقاب. الانتفاضة، بما أننا دخلنا في وسطها لن نخرج منها الا محطمي الاطراف، وكأننا دخلنا الى ماكنة لحمة ولم يبق لنا طريق الى الوراء، بل الى الامام فقط. يجدر أن نتذكر الهراء او الاكاذيب التي اعتدنا على سماعها من اصحاب القبعات

(المتدينين) عناصر غوش ايمونيم حول «العلاقات الودية» التي أقاموها مع جيرانهم الفلسطينيين.

ان واقعية أقوال المستوطنين هذه، تعادل تصريحات اولئك الشيوخ المسنين من الفلسطينيين سكان المناطق المحتلة عندما يقولون: «والله هذه الاضطرابات ليست جيدة... الحرب ليست جيدة. نحن نؤيد السلام... كلنا نريد الهدوء والسلام... هؤلاء الشباب فقط الذين لا يدركون هم وحدهم الذين يلقون الحجارة... انهم يعملون ضجة... والله السلام جيد...».

ربما الآن، بعد مضي اكثر من سنة على بدء الانتفاضة كُشفت هذه الأكاذيب لمن لم يكن مدركا لها من بدايتها. لم تعد الانتفاضة مجرد عارض. أو نزوة شخص أو جماعة تستفيد من الانتفاضة. انها مسألة عملية تطور ونمو وعي قومي وتصرفات وسلوك قومي ـ وطني في ضوء وضع الاحتلال.

هل المقصود، أو الموضوع هو مجرد جماعة من الشباب تلقي الحجارة؟ انها انتفاضة متعددة الوجوه والجوانب ضد الاحتلال.

ليس من الضروري أن نحب الفلسطينيين كما انه ليس من الضروري ان نحب السوفيات. من الذي يتحدث هنا عن مشاعر الحب؟ يجب أن نرى وندرك الواقع، والواقع يثبت وجود كيان فلسطيني كما يوجد كيان سوفياتي، يستطيعان منافسة الكيان الاسرائيلي. هذا لا يدعو الى السرور، لكنه حقيقة.

وإلّا ما معنى انتفاضة بعد عشرين سنة من الاحتلال الاسرائيلي؟ ان العقل والمنطق يقضي بأنه لو لم يكن الفلسطينيون شعبا، لوهنت عزيمتهم وارادتهم القومية خلال العشرين سنة من الاحتلال الاسرائيلي ـ وليس العكس. والآن بما انه توجد انتفاضة بعد عشرين سنة من الاحتلال، يعني هذا انه خلال السنوات العشرين الاخيرة، اصبح الفلسطينيون شعبا اكثر مما كانوا من قبل. وها انا اسألكم ايها السادة: غدا او بعد غد، في المستقبل، هل سيصبح الفلسطينيون شعبا أقل أم أكثر؟ ما هي التوقعات؟ وما هو الحل؟ هل هو ثرثرة فارغة. ام قتل منتفض واحد، او اثنين او ثلاثة، اربعة في اليوم؟ المهم: شعب ام لا ـ غدا، بعد غد، هل سيكون الفلسطينيون في المناطق المحتلة، اكثر عددا ام اقل؟ وليس بصورة مطلقة انما ايضا بالنسبة لعدد اليهود؟ هل سمعتم، سواء عرفتم ام لم تعرفوا، بأنه يوجد حاليا في

(ارض اسرائيل الكاملة) فلسطينيون في سن ٠ ـ ١٣ سنة أكثر من اليهود؟

ها أنتم أيها السادة مدركون جيدا لمشكلتكم الكمية. انكم تشعرون جيدا ايضا بأن السكان اليهود من حيث العدد يراوحون مكانهم. اذن ما هو الاستنتاج المنطقي في ضوء التغيير النسبي العددي اليهودي ـ العربي في (ارض اسرائيل الكاملة) الذي في غير صالح اسرائيل: ترانسفير ـ حرب، الذي يعني اولا وقبل كل شيء، انخفاض عدد السكان اليهود نتيجة سقوط آلاف الضحايا؟ والذي يعني، في حالة تحقيق انتصار اسرائيلي باهر، خروج كافة الفلسطينيين الى خارج فلسطين، وبقـاء منـاطق شاسعـة خالية من السكان، ولا توجد طاقة بشرية يهودية كافية لاستيطانها؟ من أين ستأتي الطاقة البشرية اليهودية ـ هل ستزداد نسبة تكاثرهم الطبيعي؟ هل نعمل حسب اقتراح احد زعماء حركة «هتحياه» بأن نشتري الاجنة المرشحين للاجهاض من أمهاتهم؟ انظروا الى اي مدى يمكن ان يلحق الخوف من المشكلة السكانية، الجنون بالمواطن الاسرائيلي؟ وما هو العمل في هذه الاثناء، حتى يحين الترانسفير المنقذ؟ كيف ستُقمع انتفاضة قومية بشكل يثبت للعالم، وللبشرية كلها، انه يوجد هنا شعب واحد فقط، شعب خاص ومتميز، هو الشعب اليهودي، الذي استطاع ان يخترع اختراعا لا مثيل له قادرا على ان يقتلع من قلب شعب آخر الرغبة والقدرة على ان يكون شعبا كباقي شعوب الارض؟

ان العقـل اليهـودي يوجد اختراعات فعلا. هراوات، وهراوات بلاستيكية. قاذفات حصى، وقنابل غاز. رصاصات خشبية، وأخرى بلاستيكية. اقتلاع الاشجار المغروسة. تكسير الاطراف وأساليب التعذيب. فتح معسكرات اعتقال. طرد خارج الحـدود. منـع تجول، حصار، تجويع، تدمير بيوت، اغلاق بيوت، الحاق خسائر اقتصادية، قطع المياه، والكهرباء، مصادرة صحف، اغلاق مدارس. ماذا بقي لم تخترعه اسرائيل؟ وهذا كله علاوة على تنفيذ تعليمات وزير الدفاع الاسرائيلي المبدع بأن لا يبقى «منتفض بدون ندبة في وجهه».

ان اتبـاع شامير ورابين وليفي وبيرس وشومرون ومتسناع ـ كلهم شركاء متساوون في حرب شعب محتل ضد شعب خاضع للاحتلال. كلهم شركاء متساوون في تنفيذ جرائم ضد الانسانية، والتنكيل بشعب وجعل حياته مرّة لا تطاق. كلهم شركـاء متساوون في معاقبة شعب فقط لكونه شعبا. كلهم يحاولون تحطيم هذا

الشعب وروحه. كل هؤلاء لا بد أن يقفوا يوما ما أمام مقصلة الحضارة الانسانية (يوجد شيء كهذا)، وروح الحرية الانسانية (يوجد شيء كهذا)، ومقصلة التقدم الانساني (يوجد شيء كهذا).

كما يوجد لهؤلاء عشرات الآلاف من الشركاء الصغار الذين ينفذون اعمال القمع والتحقير، الذين يطلقون النار ويضربون ويعتقلون ويعذبون. الذين ينظرون الى بني الانسان نظرتهم الى الحيوان، كل هؤلاء جميعا، ابناء القرى والمستوطنات، وابناء المدن والبلديات، كلهم مجرمون في حق الانسانية. كل هؤلاء هم في خدمة من؟ لماذا يفعلون هذا؟ ما هي الحالة النفسية التي تدفعهم لفعل هذا؟ من أين لهم هذه الحالة الهستيرية؟ من أين لهم هذه السادية؟

ماذا جرى لكم ايها اليهود؟ ماذا اصابكم؟ ما الذي أعمى عيونكم وأصمّ آذانكم؟

هنالك سؤال بسيط، لكنه ليس بسيطا:

كم من الوقت يجب أن تستغرق الانتفاضة ومحاولة قمعها اليائسة، حتى تُرغم حكومة مصر على القول: «إلى هنا يكفي». بعد ذلك لن يكون بامكاننا نفي ما يجري في المناطق المحتلة. اننا نلغي بأيدينا، من جانب واحد، اتفاقية السلام مع مصر. الامر الذي يقودنا الى حرب حتمية.

نفس السؤال بصيغة أخرى:

كم من الوقت يمكن أن يستمر في الحكم الرئيس المصري الذي خلف السادات، هذا اذا لم يتنكر هو لمعاهدة السلام التي أبرمها السادات مع اسرائيل؟ هل الرئيس مبارك دائم الى الابد؟ أضف الى ذلك، اذا قررت مصر الانضمام الى الحرب القادمة ـ ما الذي سيدعوها الى الغاء معاهدة السلام؟ هل من أجل منع مفاجأة اسرائيل؟

أيها العقل الاسرائيلي، أين أنت؟

هناك سؤال آخر لا يقل خطورة هو: (عرب اسرائيل)، ما دورهم في كل هذه الخلطة؟

أنا أقول: الانتفاضة من جهة، وسياسة قمعها المغلوطة والبشعة من قبل حكومة التجمع الوطني الاسرائيلي، بالاضافة الى كل المصائب التي قد تنجم عنها،

من جهة ثانية، ستحطم التزام المواطنين العرب في اسرائيل، وبخاصة الشباب منهم.
وبما ان هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ، فانني أعفي نفسي من أن أسرد هنا تاريخ الاقلية العربية في اسرائيل. لكنني أحدد أمرين:

أولاً: إن هذه أقلية آخذة بالازدياد والكبر من حيث الكم والنوعية.

ثانيا: الاقلية العربية في اسرائيل على وشك القدرة على العمل من أجل مصالحها بصورة جديدة سواء على صعيد المؤسسات الرسمية، أو في الشارع.

إن مسيرة النضوج العربية هذه، كانت دائما وابدا مسألة وقت فقط. كان هذا التجمع الفلسطيني بحاجة الى الوقت فقط كي يتغلب على صدمة حرب ١٩٤٨، والتسليم بمكانته الخاصة في ظل نظام حكم يهودي، والصمود في عهد الحكم العسكري الذي عاش في ظله حتى عام ١٩٦٦، وايجاد طرق للعيش من خلال التعاون مع مؤسسات النظام في (دولة) اسرائيل، ومع عناصر يهودية، وخلال ذلك الانتعاش اقتصاديا وثقافيا وسياسيا.

كما حدثت لدى الجمهور الفلسطيني في (دولة) اسرائيل عملية «فلسطنة»، عملية تقوية وتعزيز الوعي القومي، وتضامن هذا الجمهور مع مصير الشعب الفلسطيني عامة. ورغم ان هذه العملية كانت حتمية، كان يجب على اليهودي الاسرائيلي ان يسأل نفسه في ضوء هذه العملية صباح مساء: ماذا يجب ان افعل، ماذا استطيع ان افعل لكي اقوّي وأُعزز العملية الأخرى - أسرلة - اي جعل المجتمع في اسرائيل اسرائيليا. بعبارة أخرى تسريع عملية تذويب الجمهور الفلسطيني في (دولة) اسرائيل، واضعاف التوجه الفلسطيني في أوساط هذا الجمهور؟ لأن مصلحة اسرائيل تكمن في تذويب الهوية الفلسطينية داخلها.

ماذا عملت وتعمل (دولة) اسرائيل في هذه الايام؟ تقمع الانتفاضة خارج الخط الاخضر التي تزحف ايضا نحو (دولة) الفلسطينيين الاسرائيليين (دولة) عمليا.

اذاً، اي شكل من الاشكال يمكن ان يأخذ تضامن (الفلسطيني الاسرائيلي) مع اخوانه المنتفضين الفلسطينيين خارج «الخط الاخضر»؟

ان نظام الحكم الاسرائيلي بسياسة «فرق تسد» التي ينتهجها من جهة، والجمهور (العربي - الاسرائيلي) من خلال حكمة الحياة لأقلية شرق اوسطية التي

تدرك بأنه يجب أن لا تضع (بيضها في سلة غيرها) من جهة ثانية، خلقا وضعا انقسم فيه الصوت العربي في الانتخابات للكنيست الاسرائيلية حتى الكنيست الثانية عشرة بشكل جعل عدد أعضاء الكنيست العرب اقل من العدد الذي يستحقه الجمهور العربي الاسرائيلي بحكم عدده النسبي في (الدولة)، ناهيك عن القول ان معظم اعضاء الكنيست العرب وصلوا الى مقاعدهم في الكنيست بصفتهم اعضاء في أحزاب وقوائم يهودية.

هذا الوضع، لا بد ان ينتهي في يوم من الايام نتيجة لزيادة الثقة بالنفس لدى الاقلية العربية، وتسريع الانتفاضة، وعمليات القمع الاسرائيلية ضد الفلسطينيين.

لقد دلّت نتائج انتخابات الكنيست الثانية عشرة في تشرين ثان ١٩٨٨ على ان عملية انتقال الناخب (الفلسطيني الاسرائيلي) من التصويت لحزب يهودي صهيوني، الى حزب عربي - يهودي، او عربي خالص هو انتقال بطيء جدا، غير ان هذه العملية موجودة وظاهرة للعيان وستؤدي في نهاية المطاف الى وضع ممثلين فلسطينيين في الكنيست حسب نسبة المواطنين العرب في اسرائيل بدقة. (في الكنيست الثانية عشرة كان العرب يستحقون ما بين ١٤ ـ ١٥ مقعدا). فمن الممكن ايضا ان نرى في انتخابات مستقبلية صعود حزب (عربي اسرائيل) قومي، كبير، بحيث يستقطب الغالبية العظمى من أصوات العرب.

ألا يجب أن نشرح معنى مثل هذا التحول في طابع الكنيست، و(دولة) اسرائيل، وفي العداوة بين اليهود والعرب؟

ألا يؤدي هذا التحول الى تطرف اسرائيل لدرجة الغاء حق اشتراك العرب (مواطني اسرائيل) في الانتخابات العامة للكنيست، (بحجة ان هذا الحق محفوظ فقط لمن يخدم افراد اسرته في الجيش الاسرائيلي، او لمن ليس له اقرباء او اخوان في الدين في دول المواجهة)؟

يبدو «منطقيا»؟ كلا، قطعا. في اللحظة التي يبلغ فيها السكان العرب في اسرائيل نسبة ١٥٪ من مجموع سكان (دولة) اسرائيل لن يكون باستطاعة اسرائيل تجاهلهم.

هذا مؤسف، لكن هذا الشيء انطبق ايضا على حزب «كاخ» بزعامة كهانا.

مع ان هذا الحزب كان يمكن ان يحصل على ٦ مقاعد في الكنيست ، غير ان الغاء حقه في الاشتراك في الانتخابات كان يشبه تحطيم مرآة، ليس إلا. فالوجه الاسرائيلي ظل بشعا كما هو، وكل ما حدث كانت عملية تجميل فقط. واذا اعتقد شخص ما، بأن عدم وجود داعية الترانسفير «كهانا» في الكنيست الاسرائيلية يمكن ان يجعل اسرائيل شخصية انسانية، يكون مخطئا.

ان شخصيـة اسرائيـل المعـاديـة للانسـانية، لا تنبع من طابع عناصرها الهـامشيـة، انما تنبع اولا وقبل كل شيء من عناصرها الاساسية من «الليكود» و«التجمع» ـ الذين يشتركون في حمل مبادىء رفض الحقوق الاساسية للشعب الفلسطيني.

ان اغلاق ابواب الكنيست في وجه حزب «كاخ» لم يكن من شأنه تقليل عدد اعضاء الكنيست الاسرائيلية المؤيدين للترحيل (الترانسفير) ضد الفلسطينيين، انما منح الشرعية فقط لدعاة الترانسفير المتشددين الذين جلسوا في الكنيست، لذلك ربما ادى رفض اشتراك «كاخ» في الكنيست الى نتيجة سلبية، معكوسة، لأنه لو أن كهانا دخل الكنيست لكان يمثل مبدأ «الترانسفير» ويجسد بشخصيته نهاية الترانسفير كمبدأ ممقوت.

ان اية اقلية قومية ليست بحاجة لأن تكون حوالي ٥٠٪ من مجموع السكان حتى يصبح من غير الممكن تجاهلها. من اجل البقاء تحتاج اية اقلية الى نسبة اقل بكثير من ٥٠٪. ان اي اختراع مهما كان نوعه لتهويد الكنيست الاسرائيلية لن يكون بمقدوره تهويد (الدولة).

ان تهويد الكنيست ـ بالطبع، هي عملية ادارية ـ تنظيمية لا تغير من نسبة القوى في المنطقة ـ من شأنه فقط ان يُلبس المشكلة مقاييس وأزياء جديدة، قد تكون على غرار ما هو في ايرلندا الشمالية، هذا اذا لم تكن حربا اهلية. وماذا عندئذ؟

هل ستكفي معسكرات الاعتقال؟ هل سيوجد سجانون بما فيه الكفاية؟

هل سيكون من شأن الحرب القادمة تخفيف الوضع ام زيادته خطورة وحدة؟

ولكن من كان السبب في تسريع هذه العملية؟ ومن كان السبب في تقريب هذه النهاية، ان لم يكن اليهود انفسهم؟

ج - : الحُكم

في الجزء السابق من هذا الكتاب، في فصل «بذات أيدينا» تحدثت عن مجموعة عناصر تؤدي كلها، كل واحد في مساره، في زاويته، وعلى صعيده الخاص به، الى دمار حتمي (لدولة) اسرائيل.

انني لا افتخر بأنني قد عددت واحصيت كل العناصر من هذا النوع. بالطبع لا. لقد اوردت العناصر ذات الاهمية في نظري، او تلك التي تشغلني لدرجة انني شعرت بضرورة تحليلها واشراك غيري في هذه العملية، انتم ايها السادة القراء. انني لم اتطرق نهائيا الى مشاكل اسرائيل الاقتصادية التي تشكل عالما بحد ذاته. لم اتحدث على سبيل المثال عن الدمار الذي ألحقته سياسة الاقتصاد الحر التي تبناها الليكود، بالاقتصاد الاسرائيلي، او ازمة الجمود الاقتصادي، او الازمات العمالية، وغيرها كثير. انني افترض بأنني لست مضطلعا في هذا المجال. لكن المرء لا يحتاج الى الكثير من الخبرة حتى يشعر بأن الوضع في هذا المجال غير مريح جدا. كما انني لم اتطرق الى المشاكل الاجتماعية الصعبة والمتنوعة التي تسود المجتمع الاسرائيلي المستقطب طائفيا ودينيا.أو مشاكل التعليم على مختلف مراحله ومستوياته، ليس لأن هذه المشاكل تبدو هامشية في نظري، بل لأنني لست خبيرا بما فيه الكفاية للحديث عنها. كما لم أتحدث عن مشاكل يمكن تسميتها «مشاكل كلفة الاحتلال والاستيطان» فما هو الثمن يا ترى الذي تدفعه اسرائيل مقابل الاحتفاظ بالاراضي المحتلة وبمعالجة الانتفاضة الفلسطينية، تلبية لرغبة وتطرف وعنصرية اليهود المتعصبين المتدينين؟ انني لا أتخيل كيف يمكن لدولة مثل اسرائيل ان تتحمل مثل هذا العبء الآخذ بالازدياد والتضخم.

بالطبع، ان القاسم المشترك لكافة العناصر السلبية التي عددتها آنفا هو كونها نجمت عن قرارات انسانية مغلوطة، وثمرة لاختيار مغلوط وسياسة ساذجة، غبية.

لقد حاولت ان اوضح بأن (دولة) اسرائيل نتيجة لسياستها الخارجية - الامنية، التي اتبعتها ولا زالت حتى الآن، لا تشكل عنصرا مهدئا، يساعد على دفع عجلة السلام الى الامام، انما بالعكس، انها تشكل محركا للتطرف والتصعيد.

ان (دولة) اسرائيل هي أصغر وأضعف بكثير من أن تتحمل الاعباء والالتزامات والتعهدات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والامنية والائتلافية التي اخذتها على عاتقها. انها اصغر واضعف من ان تستطيع الصمود في سلسلة حروب متكررة مع كل ما يترتب عليها.

ان هذا الوضع يبرز بين الحين والآخر، بانفجار ازمات متلاحقة تسود كافة الاجهزة والدوائر العاملة في (دولة) اسرائيل سواء كانت خاصة او عامة، او حكومية.

ان (دولة) اسرائيل، (دولة) ازمات - انها لا تخلو لحظة واحدة من كونها على حافة ازمة اقتصادية، او اجتماعية او امنية او حرب قادمة.

لا توجد دولة في العالم كله، تتعرض باستمرار لتهديدات الحرب (كدولة) اسرائيل.

أليس صحيحا ان الحرب الاسرائيلية - العربية السادسة تشكل الموضوع الرئيس في جدول الاعمال القومي (لدولة) اسرائيل؟

أليس التوقع الدائم للحرب وهذا الخوف المستمر منها ينبعان من جذور التوتر والهستيريا التي تتميز بهما الحياة في اسرائيل؟

مرة اخرى اقول انه بدلا من محاولة تخفيف حدة النزاع العربي - اليهودي، وبدلا من منحه فرصة للتطور شيئا فشيئا نحو ديناميكية علاقات متبادلة، عملت اسرائيل من خلال اسلوب او سياسة ضيقة الافق وقصيرة النظر كمحرك قوي لعمليات كانت كلها في غير صالحها.

حقيقة، ان كل هذه الاقوال هي من باب التخمين والتكهن. اذ لا توجد بأيدينا امكانية فحصها واختبارها علميا، اي اختبار وفحص تسلسلات احداث اخرى كان يمكن ان يمر النزاع العربي - اليهودي بها. ولكن رغم كل ذلك اكرر القول ان كل تسلسل احداث ومراحل النزاع ستؤدي حتما الى نشوب الحرب العربية - الاسرائيلية السادسة. وان اسرائيل بتصرفاتها لا تبتعد عن خطر هذه الحرب، بل بالعكس تقترب منها أكثر فأكثر.

ان اية معجزة، او حكمة لن تكون قادرة على تمكين اسرائيل من البقاء على حد السيف، لهذا فان اختيارها السير في طريق السيف يعني اختيارها للسير في طريق الفناء، والانتحار.

وعلى هذا الاساس أقول إن «السنوات السبع الجيدة» قد انتهت، سنوات النجاح التي تمثلت باقامة (دولة) اسرائيل. كما ان «السنوات السبع السيئة» قد بدأت على شكل عقاب فوري، عقاب حتمي على الاخطاء والاغلاط والوقاحة والصلف، والاعمال والممارسات غير الانسانية وغير المتحضرة، وكبرهان على عدم قدرة مؤسسي (الدولة)، على تأسيسها. كل هذا رافقه انخفاض تأييد دول العالم لاسرائيل التي حظيت بدعمها في السنوات الاولى لقيامها، وكانت في نظر تلك الدول (الدولة المثال والقدوة)، الدول التي ترفع علم التقدم والانسانية، وها قد تحولت الآن الى (دولة) ترفع علم الحرب والاحتلال

من هنا يُستخلص الاستنتاج الصعب: اسرائيل مصابة بمرض شديد. مرض خبيث. لا يمكن معالجتها. لا توجد فيها نقطة يمكن الانطلاق منها لمعالجتها وتصحيح وضعها. لذلك فهي طالما هي موجودة، هي بنفس الوقت ضائعة، مفقودة، لا وجود لها.

ان هذا التفكير ينقلني من نظرية مجردة مثل ربط التهم والاخطاء التاريخية في هذه الخطوة او تلك من خطوات دافيد بن غوريون، مثلا، الى البحث عن عناصر اخرى اعمق، محكومة (قدرية) التي ربما تكون قد قررت مصير (الدولة) اليهودية ليس أقل، أو ربما اكثر، من العناصر المختارة، التي ربما تكون هي نفسها جاءت ممزوجة مع العناصر القدرية.

انني لا أتجاهل مئات المظاهر «الايجابية» في حياة اسرائيل، في مئات المجالات. لكنني أقول فقط ان هذه الايجابيات كلها لا ترفع ولا تخفض، لأنها كلها سلبية للغاية في المقارنة مع العناصر الاساسية التي أشرت اليها والتي من شأنها ايصال اسرائيل الى سكة الحديد المؤدية الى الجسر المنهار. ان قطار اسرائيل يمكن ان يسير الى الهاوية حتى لو كانت احدى عرباته هي صهريج حضارة يشع انوارا وألحانا موسيقية من أبدع ما في الكون. وحتى لو كان في القطار اكثر من عربة، عدة عربات ساحرة جميلة، ولكن الى اين يسير هذا القطار؟

عبثا، يرتفع بين الحين والآخر صوت محذر كصوت يهوشع هركابي، اسحق بن اهارون، يزهار سيملنسكي، يشعياهو ليفوبتش. وعبثا صاح في حينه، يعكوف تلمان: «الوطن في خطر». ان أياً كان لا يقف ليصغي لمثل هذا الصوت.

في هذا الفصل من الكتاب سأستعرض باختصار جملة مختارة من العناصر القدرية التي أثرتها في مخيلتي والتي ستؤدي حتما الى نهاية (دولة) اسرائيل.

ان النبوءة التي اسمها (دولة) اسرائيلية فريدة في نوعها في تاريخ البشرية.

ان خاصية (دولة) اسرائيل لا تكمن في كونها عودة الشعب اليهودي الى ارضه بعد ٢٠٠٠ سنة، ولا في احياء اللغة العبرية، ولا في الكشف عن آثار اليهود القديمة في هذه (البلاد)، وغير ذلك، انما تكمن في كونها اولا وقبل كل شيء «دولة فكرة».

ان الكلمة، والفكرة، سبقتا (الدولة)، وهذا لا يؤثر بقليل أو كثير، لأغراض البحث، فيما اذا كانت تلك فكرة واحدة ووحيدة او مجموعة افكار سياسية واجتماعية ودينية تختلف احداها عن الاخرى بقليل او كثير. لقد كان المحور الرئيس لكل هذه الافكار واحد، هو اقامة (دولة) لليهود في (ارض اسرائيل) من العدم.

ان الشيء الذي يجب ان لا نتجاهل أهميته هو نظرا لوجود «مشكلة يهودية» في اوروبا، طُلب من اليهود المفكرين ايجاد حلول لهذه المشكلة، وكان من بينهم من ادعى بأن افضل حل لمشكلة اليهود يكمن في العودة من جديد لتجميع الشعب اليهودي في وطنه العتيق، حيث سيكون هناك سيد نفسه ومصيره.

ان اصحاب تلك الفكرة العجيبة، ارادوا تخليص اليهود الذين كانوا يشكلون اقلية مكروهة في كل مكان يعيشون فيه، واحضارهم الى (ارض لهم) خاصة لهم، حيث يكونون فيها اسيادا ويتخلصون نهائيا من المطاردة والتمييز العنصري ضدهم. حيث يستطيعون انشاء مجتمع جديد سليم وعادل متطور ومفتوح، ويكونون أحرارا ليس لهم ارتباطات مع الاجانب.

كانت تلك فكرة رائعة ببساطتها، هنالك ارض (تنتظر) منذ آلاف السنين، (أرض الآباء والاجداد)، (أرض الحليب والعسل)، خالية من الناس، أرض قاحلة جرداء تنتظر من يستغلها ويزهرها ـ «ارض بدون شعب» ـ وها هو يوجد «شعب بدون ارض»، موزع في البلاد الاوروبية يعاني من الكراهية له. اذن، ما الافضل واكثر منطقية من احضار الشعب بدون ارض الى الارض التي لا يوجد فيها شعب، وهي اصلا (أرضه) و(أرض اجداده) لا منازع له فيها؟

لقد كانت تلك فكرة مدهشة أيضا في سذاجتها، في عدم حكمتها، في جهلها السياسي، الاقتصادي، الجغرافي، السكاني، التاريخي، النفساني. ولكن رغم كل

هذا امتلكت هذه الفكرة قلوب عشرات الآلاف من اليهود وغير اليهود، وحظيت بدعم مالي وطاقات بشرية وجلبت الى مركز الزعامة شخصيات طلائعية مستعدة للتضحية في كل شيء ممكن بما فيها حياتهم. وبنفس الوقت كان هنالك المنتقدون المحذرون سلفا من تطبيق هذه الفكرة الصهيونية. وكان هناك من عرض اقتراحات حلول اخرى مختلفة «للمشكلة اليهودية».

ومع ذلك، فإن الشعب اليهودي في اوروبا الذي وُجدت الفكرة اصلا لانقاذه وحل مشكلته، لم يبد حماسا لهذه الفكرة ولم يتحرك من مكانه، وكل الذين هاجروا من أوروبا كانت الغالبية العظمى منهم تبحث لها عن بلاد أخرى ليست (أرض اسرائيـل). ذلك أن الشعب اليهـودي تنقصــه، فعلا، مزايا وغرائز شعب الدولة والسيـادة، وتشهـد على ذلك حقيقـة ان الشخصيـات، الحكومات، المؤسسات، التنظيمات، والاحزاب التي أرادت حل «المشكلة اليهودية» عن طريق تجميع اقليمي في اي مكان في العالم خارج (ارض اسرائيل) ـ من اوغندا حتى الارجنتين، ومن مدغشقر حتى كامبرلي، ومن كيرنايكا، وحتى بيروبيغن، وغيرها ـ فشلت جميعها.

مع ذلك، كان يكفي وجود الاقلية الصهيونية التي قامت في اوساط الشعب اليهودي في اواخر القرن التا سع عشر ومطلع القرن العشرين، لانشاء الاستيطان اليهودي في (ارض اسرائيل) الانتدابية، والتي اصبحت نواة (الدولة) اليهودية التي قامت في ١٩٤٨ في عاصفة حرب حياة او موت ـ تلك هي قوة اقلية تؤمن بأنه لا يوجد شك في طريقها، اقلية لا تلتفت يمينا او يسارا بل تندفع الى الامام، والى الامام فقط، وهذا لا ينطوي على سر او معجزة، انما هو مجرد تركيز جهود.

كل ذلك، لم يحدث بمعزل عن عدة ظروف تجمعت مع بعضها البعض. ان تركيز الجهد، هو امر جيد وجميل، حتى انه ضروري من اجل تحقيق الاهداف، ولكن كي لا يذهب الجهد سدى، او يبقى على شكل تسلق جدران وينتهي بدون شيء، يتطلب الامر نضوج ظروف محيطة، ظروف، الاعمى فقط هو الذي يمكنه الادعاء بأنه يستطيع مواصلة السير بدونها على طريق الـ«انا ولا احد غيري».

لقد كانت معظم الظروف السائدة آنذاك مريحة فعلا: فالصهيونية حظيت بعدة أجيال من الطلائعيين القدوة ـ هجرة أولى، وثانية، وثالثة؛ والفلسطينيون ـ الذين كانوا هناك ـ كانوا ضعفاء نسبيا، والعالم العربي كان تحت الاحتلال التركي،

والبريطاني، والفرنسي، وكان النفط في العراق فقط؛ والبريطانيون ساعدوا الحركة الصهيونية في الواقع اكثر مما عرقلوا جهودها، وزادت الهجرة اليهودية الى فلسطين على الهجـرة منها للخارج؛ والحرب العالمية الثانية قوّت الوجود اليهودي وموقف المساومة الصهيوني؛ تركيب منظمة الامم المتحدة كان «مريحا لليهود»؛ وحكومة الاتحاد السوفياتي استحسنت فكرة اقامة (دولة) يهودية.

غير ان اقامة (دولة)، وادامة (دولة)، هما امران مختلفان، ناهيك عن انه على باب «دولة ـ الفكرة» يكمن خطران: ضعف الفكرة مع مرور الوقت من جهة، وعدم تجسيد او تطبيق الفكرة الخيالية من جهة ثانية.

ان وهن وضعف اية فكرة، هي عملية غير مستبعدة، او حتمية، ان الفكرة الاجتماعية الخيالية تبلور عادة من قبل شخص واحد، وقد تتطور على ايدي مجموعة صغيرة من المؤيدين ـ الورثة، غير ان تطبيقها وتجسيدها منوط باستجابة عامة الجمهور بها على مختلف طبقاته وحماسه لها. ان الخيال يظل خيالا. وتطبيق فكرة خيالية بكاملها غير ممكن، بالطبع، غير ان الايمان الاعمى بأن تطبيقها ممكن هو الذي يغذي اولئك الساعين الى تطبيقها بوقود مشاعر الايمان ويثير فيهم روح التضحية التي هي ثمرة وضع انساني ـ نفساني معين تكون عناصره الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها تتفق مع زمانهم ووقتهم.

غير ان الوقت يمضي، وتتغير العناصر النفسانية وغيرها، وتضعف الفكرة الخيالية. جيل متحمس لفكرة خيالية يخلف، على اية حال، جيلا يكون بطبيعته غير متحمس لهذه الفكرة، وربما يكون في احسن الحالات مغسول الدماغ تجاه هذه الفكرة، في حين ان الجيل الثالث قد يأتي غير مبال بالفكرة او متنكرا لها.

ان الخيال بطبيعته، قابل للذوبان والتلاشي لأنه في اساسه يتحدى اوضاعا انسانية (مثل المساواة) التي هي ثمرة الطبيعة الانسانية، لكنه ليس في مقدوره تغييرها، بل التأثير عليها فقط، الامر الذي يجعلها تعود في نهاية المطاف الى حالتها وثباتها.

لقد نجح أبناء الجيل الاول في الحركة الصهيونية (الخيال الصهيوني) في انشاء نظام على هواهم، ولديه امل في البقاء جيلا آخر. وبعد ذلك ستتلاشى روح الخيال نهائيا ويفقد النظام ديناميكيته التي اجتاز بها في بدايته وسيُدار على ايدي

بيروقراطيين ذوي مراكز قوى بحيث يستطيعون رفع اعلام الخيال (الفكرة الخيالية) لاضفاء الشرعية على نظام حكمهم.

يبدو انه توجد في عالمنا عدة دول قامت نتيجة لفكرة خيالية، غير ان هذه الدول كانت جميعها كيانات كانت فيها الدولة تسبق الثورة (الفكرة)، وليس الثورة تسبق الدولة.

فهذه فرنسا، مثلا، نجد ان ضعف ووهن الافكار المثالية التي غذت جيل الثوار الذين اقاموا الجمهورية الفرنسية الاولى، لم يعرض للخطر (ولا يستطيع ذلك) وجود الشعب الفرنسي، حضارته، ووجوده السياسي المستقل داخل حدود محددة.

ودولة جنـوب افريقيا. على الرغم من اوجه الشبه والمقارنات العديدة التي يستطيع القارىء ان يقوم بها بنفسه بين جنوب افريقيا وبين اسرائيل، لنترك هذه الدولة وسكانها السود الجهلة لمصيرهم. وسأكتفي بالقول أنه يتكون احيانا الانطباع بأنـه توجـد في جنوب أفريقيا مسيرة مثيرة للاهتمام نحو تخفيف حدة «التمييز العنصري» التي قد يكون من شأنها اخراج تلك البلاد من حمام الدماء الذي يهدد وجودها اذا حدث «انفجار» اسود ـ ابيض، في حين اننا لا نستطيع الشعور بوجود مثل هذه المسيرة في اسرائيل. بل بالعكس، الوضع يزداد في اسرائيل تطرفا.

هل يمكن ان يتغير مع الايام اتجاه سير الاحداث في اسرائيل وتبدأ مسيرة اعتدال في التمييز العنصري الاسرائيلي؟ مع الاسف، لقد تأخرت اسرائيل، حسب رأيي، عن الركب. ان الانفجـار والانحـلال سيسبقان نضوج احتمالات البقاء، وبعبارة اخرى، عملية الانحلال هي اقوى من عملية التبلور، وتوجهات الحرب في اسرائيل اقوى من توجهات السلام.

لقد كان يربض على عتبة (دولة) اسرائيل بصفتها (دولة) فكرة خيالية، منذ البداية خطر الانحلال وضعف وتبخر الفكرة الصهيونية التي ادت الى اقامتها.

هل تمكنت هذه (الدولة) من ترسيخ نفسها وتطبيق معظم الافكار القومية ـ الاجتماعية التي كانت هدفا لمؤسسيها؟

هل (دولة) اسرائيل الحالية في جيلنا الحالي، جيل وهن الفكرة الصهيونية الاصلية، هي (دولة) قابلة للبقاء؟ هل ترسخت وتعمقت في تكوينها الافكار القومية ـ الاجتماعية التي أرادها ووضعها مؤسسوها الاوائل؟ هل تبتسم لها الظروف في

حاضرها او مستقبلها كما ابتسمت لها في ايامها الاولى؟

كلا، وكلا. اسرائيل ليست (دولة) خلقت للبقاء. انها (دولة) كلها خوف، وخوف متزايد على مصيرها.

أما بالنسبة للافكار القومية والاجتماعية المنشودة التي ارادها مؤسسو اسرائيل: (دولة) يتجمع فيها معظم الشعب اليهودي ويعيش فيها بسلام وامن ورفاهية، (دولة) حضارية ومثالية في حياتها الاجتماعية وفي تقدمها - ان الشرخ واضح للعيان، عرضا وطولا وعمقا.

هذا لا يعني بالطبع ان اسرائيل تخلو من بعض الجوانب الايجابية التي تثير اهتمام اشخاص كثيرين. ولكن ليس هذا هو السؤال. السؤال هو هل هذه الجوانب الايجابية تتسع ام تتقلص؟

واذا عُدت الى مثل القطار: أليست كل هذه العيوب في (دولة) اسرائيل هي بمثابة الجلوس في عربة الطعام في الوقت الذي يسرع القطار فيه نحو الجسر المهدوم؟ لقد أكثرنا من طرح الامثلة. هيا ندخل في موضوعنا في هذا الفصل، الى العناصر القدرية التي تجعل وجود (دولة) اسرائيل مؤقتا، ونبحثها واحدا واحدا.

سأحاول تصنيف هذه العناصر حسب ترتيب منطقي معين، مع انه قد لا يكون حسب الاهمية. الترتيب حسب الاهمية سأتركه لكم انتم سادتي القراء.

الشرق الاوسط: (ارض اسرائيل)، توجد، كما هو معلوم، في الشرق الاوسط، وليس هذا فقط، انما في قطاع ضيق يربط بين قارات، وأُستخدم على مرّ الازمان كممر للشعوب والجيوش. ووضعه الجغرافي الخاص منح سكانه الاستفادة من اكثر من حضارة واثرى قدرتهم الخلاقة، غير ان هذا لم يأت مجانا. فقد كان الثمن الذي دفعه سكان هذا القطاع من الارض، الحروب والدماء والاستعباد، والخراب، والتهجير. في القرن السابع استولى محاربو ابناء قبائل عربية من الصحراء الحجازية على الشرق الاوسط كله، ونزلوا كالجراد على كل قطعة ارض جيدة فيه، وتحولوا الى فلاحين مجتهدين. ولم يزعجهم احد. وأصبحوا أسياد وحكام المنطقة. ودينهم (البدائي)، وليد الصحراء، ترسخ وتعمق. وحضارتهم التي بلغت عدة ذروات ذبلت وبقيت ثابتة وقبلية.

الصليبيون الذين جاءوا من الغرب في القرن الحادي عشر ومكثوا في قطاع

ساحل الشرق الاوسط حوالي مائتي سنة، والاتراك الذين انطلقوا من الشمال واستولوا على الشرق الاوسط بدءاً من القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن العشرين، والفرنسيون الذين حلوا محل الاتراك طيلة حوالي ثلاثين سنة، كل هؤلاء لم يغيروا تكوين الشرق الاوسط من جذوره. لقد بقيت منطقة الشرق الاوسط مسلمة في دينها وعربية في حضارتها وثقافتها وتربيتها، مع كل ما يترتب على هذه الحضارة والتربية.

ان الشرق الاوسط، مشكلة. مشكلة معقدة جدا لا يمكن حلها.

(أرض اسرائيل): كثير من الخرافات والاناشيد والوعود والصلوات، وحقائق واكاذيب، قيلت وأُنشدت بشأن هذه الارض. ارض الحليب والعسل ـ صحيح أم كذب؟ او ما مدى الحقيقة والكذب؟ ارض تأكل أهلها ـ حقيقة أم كذب؟ او ما مدى الحقيقة والكذب في هذا القول؟

لقد انقطع الشعب اليهودي عن (ارض اسرائيل) على مراحل بارادته ورغم أنفه، لكن بقاءه وتقدمه وازدهاره المادي كان ممكنا في اماكن هجرته وليس داخل (ارضه) الاصلية حتى يومنا هذا.

ان ذكريات ارض الوطن، ارض الآباء، الارض الموعودة، وارض الانبياء، ظلت محفوظة لكنها ضعفت. ان اليهودي يذكر هذه الارض في صلواته يوميا. انه يحتفل بالاعياد، اعياد هذه الارض الزراعية، ويصلي للندى والمطر اللذين ينزلان عليها. ولكن كيف تبدو هذه الارض في نظر اليهودي على مرّ الاجيال منذ ان هاجر منها او أُرغم على الهجرة قبل ألفي سنة؟

لقد ارتسمت في نظر اليهودي بشكل كاذب، ربما دون ان يعرف، بأنها ارض خيالية اسطورية، تنتظر كفتاة جميلة نائمة، لتفيق على قبلة امير احلامها الصهيوني، وان تضم في احضانها كل الشعب اليهودي احياء وامواتا!

ما الذي يحدث هناك بالضبط، في (ارض اسرائيل)؟ هل توجد هناك في الشرق، بدون سكان، تنتظر وصول المهاجرين العائدين ليحتفظوا بها من جديد؟ هل

تستطيع ان تستوعب كل الشعب اليهودي، واذا كان الجواب لا، ما الداعي لاقامة شتات يهودي آخر في العالم؟

وما هي نوعية هذه الارض، أهي كبيرة أم صغيرة؟ وهل هي غنية في مواردها أم فقيرة؟ وهل توجد فيها مياه لتسقي شعبا كاملا، واستغلال حقول وكروم واقامة صناعة؟ وكم هي مساحة الاراضي الصحراوية فيها؟

يصعب علينا القول بأن اسئلة كهذه يمكن ان تكون قد أشغلت فكر اليهود على مرّ الاجيال، ولا حتى في جيل عودة صهيون الصهيونية العملية والسياسية.

إن اليهود الذين جاءوا الى (ارض اسرائيل) لتقبيل ترابها ولكي يُقبروا في ارضها المقدسة، لم يهتموا بالتأكيد بمثل هذه الاسئلة العملية. لقد عاشوا على الصدقة. ومن دواعي السخرية، ان اليهود الصهاينة الذين هاجروا إلى (أرض اسرائيل) لكي يجدوا فيها السيادة اليهودية من أجل الشعب كله، أُضطروا، حتى هم، لتناول الصدقة، وحتى يومنا هذا.

إن هذا الوضع التعس والفاسد لا ينبع فقط من الظروف المناخية والطبوغرافية والجيولوجية (لارض اسرائيل). ولكن ماذا نقول؟ لقد كان لليهود دور ما في خلق هذا الوضع.

وإذا أضفنا الى ذلك كله الحقيقة المحزنة وهي أنه خلال غياب اليهود عن هذه الارض طيلة (٢٠٠٠) سنة بدون أن يحاولوا العودة اليها، وعدم استجابة الرب لدعواتهم بشأن الاسراع في يوم الخلاص، لم تبق هذه الارض خالية جرداء، إنما سُكنت من قبل العرب الذين أصبحوا فلاحيها، ولم يعجبهم أن يروا منافساً لهم عليها.

من كل هذا نفهم أن (أرض اسرائيل) هي مشكلة صعبة ومعقدة لدرجة تفوق قدرة يهودي مؤمن إستقى معلوماته عن هذه الارض فقط من التناخ.

ربما إنني أُبالغ بعض الشيء. ولكن رغم ذلك يوجد كثير من الحقائق في اقوالي.

لقد كان مؤسسو الصهيونية ومنفذوها الاوائل ساذجين جداً في كل ما يتعلق باستيطان (أرض اسرائيل).

أرض اسرائيل مشكلة. مستحيل أن لا نحبّها، غير أن الحب قد يُعمي ويصّم

الآذان. كما أنها ليست كبيرة الى هذا الحد. من الصعب الاختفاء فيها. يصعب على المرء أن يعطس فيها دون أن يُسمع من أقصاها الى أقصاها. وكل حادث كبيراً كان أم صغيراً يأخذ طابعاً قومياً. فيها جهل مدهش. إنها تولد الكراهية والحسد. مليئة بكراهية الأخوة. أنها تغصّ بالاماكن والمواقع المقدسة. إنها تخرّج جماعات متدينة متعصبة طفيلية. إنها ليست بلاد حليب وعسل فقط، إنما هي بلاد تأكل مواطنيها. كما أنها ليست (أرض اسرائيل) فقط، لانه توجد فيها أقلية كبيرة تزداد باضطراد، وكانت في السابق أغلبية وهي لم تنس هذا بعد، لذا (فأرض اسرائيل) هذه مشكلة المشاكل.

الشعب اليهودي : إن اليهود شعب «مريض». أم هو غير ذلك؟ هاجروا من أرضهم ألفي سنة، يتنقلون من بلاد إلى بلاد مُطاردين، يتعرضون للضرب والقتل، يُبادون رغم أنفهم، وهم يشكرون الله على كل هذا، يرون أنفسهم مختارين ومتعالين، يؤمنون بالمسيح المنقذ وإحياء الموتى، متمسكون بدين متحجّر - ومع ذلك فهم ذوو عقـول نيّرة، يخلقون نظريات أخلاقية، وقيادية، واقتصادية، واجتماعية، وعلمية، لدرجة أن مساهمتهم في الحضارة الغربية لا يمكن تجاهلها. هل هذا وضع طبيعي؟

طيلة آلاف السنين من الشتات، تبنّى اليهود لأنفسهم طرق بقاء خاصة بهم، أحياناً كانت تنجح وأحياناً تفشل، لكنهم مع ذلك ظلوا متمسكين بها. إنهم لم يسبق أن جربّوا في أي مكان في العالم أن يعيشوا حياة مستقلة حرّة، أن يكونوا اسياد أنفسهم، أن يتحملوا مسؤولية كاملة، لكافة جوانب الحياة. فقد تركوا هذه الأمور، سواء عن علم أو بدون علم منهم، «للغرباء» الذين عاشوا بينهم.

إن نمط الحياة الذي طوّره اليهود لانفسهم جعل منهم أقلية تعيش معزولة مغلقة لا تتحمل مسؤولية في أي بلد أو دولة وُجدوا فيها. لذا لا يوجد أي مبرر للادعاء بأن اليهود لهم «طابع قومي» بمعنى خاصيّة تميّزهم عن غيرهم. من العدل أن نقّدر إنجازاتهم التي أنجزوها، ولكن لا يوجد أي مبرر منطقي أو أخلاقي يجعلنا نرى اليهود أفضل أو أعلى من غيرهم أو أدنى من غيرهم، أو إعطاءهم صفات وميـزات «قومية» سواء إيجابية كانت أم سلبية. اليهود هم يهود. وهكذا، بهذه الصفة يحق لهم العيش على وجه الارض وتحت قبة السماء، أينما كانوا ومهما كان عددهم.

يحق لهم العيش على وجه الارض، ولكن ما العمل ضد اللاسامية؟

إن اللاسامية، تعنيني في هذا الكتاب ليست بصفتها ظاهرة بحد ذاتها، إنما كمشكلة ضارّة ترافق حياة الشعب اليهودي، والتي جاءت الصهيونية وتطبيقها في (دولة) اسرائيل، لحلها.

إن اللاسامية، كما هو معروف، مجموعة معقدة من عناصر كراهية اليهود، وهي من إنتاج المجتمع المسيحي (كراهية اليهود في المجتمع الاسلامي، كانت حتى قيام (دولة) اسرائيل تتغذّى من عنصر واحد من بين عناصر كثيرة خلقت اللاسامية في المجتمع المسيحي ـ النظرة السلبية لاقلية إنعزالية ـ ولهذا فقد كان على الرغم من مطاردة اليهود هنا أو هناك في المجتمع الاسلامي، لم تتعرض تجمعات اليهود في هذا المجتمع لخطر الإبادة، حتى قيام (دولة) اسرائيل التي خلقت عنصراً آخر يدعو الى كراهية اليهود).

إن اللاساميّة، رافقت وترافق الشعب اليهودي بمظاهرها السلبية والايجابية منذ قيام المؤسسات الدينية المسيحية في اوروبا وحتى يومنا هذا في كل بلد يحكم هذا الدين فيه (الحكم، لا يعني حكماً رسمياً إنما يعتمد نظام الحكم على التراث المسيحي).

هنا يجدر بناء طرح السؤال التالي، الذي ربما لا نجيب عليه إجابة إحصائية دقيقة: بعد كل أعمال القتل والمذابح التي تعرض لها الشعب اليهودي على مدى الأجيال نتيجة للاسامية الفعّالة، لماذا حجم الشعب اليهودي صغير الى هذا الحد؟

لو افترضنا أن الشعب اليهودي كان يعدّ بضعة ملايين في القرن الثاني، بعد ثورة باركوخفا؛ ولو افترضنا ان التكاثر الطبيعي اليهوي كان عالياً للغاية تنفيذاً للأمر الإلهي (تكاثروا تكثروا)، فانه في القرن العشرين، «يجب» أن يكون الشعب اليهودي بضع عشرات الملايين نسمة. فإذا كان عدد اليهود في العالم في مطلع القرن العشرين (١١) مليـون نسمة فقط، هل يعني هذا أن نعزي النقص العددي في الشعب اليهودي للمذابح التي تعرض اليهود لها على أيدي اللاساميين على مختلف أنواعهم؟

إن هذا الأمر، بكل بساطة، غير معقول. إن الغالبية العظمى من ملايين اليهود «الناقصين» الذين «اختفوا» من حسابات الديمغرافيا اليهودية، هم على قيد الحياة.

ولكن كيف؟ ليس بصفتهم يهود. ماذا يعني هذا إن لم يكن إنصهاراً مع الشعوب الاخرى، وهو أحد العناصر التي يتميّز بها الشعب اليهودي؟.

ماذا يعني هذا، إن لم يكن إندماج اليهودي اذا أتيحت له الظروف المناسبة، ضمن المجتمع الذي يعيش فيه، على الرغم من وجود اللاسامية؟

ماذا يعني، إن لم يكن أن الغالبية العظمى من الشعب اليهودي الذين وُضعوا أمام خيارين، الاندماج مع شعب آخر أو الموت، قد اختاروا الحياة وفضلوها على الموت؟

إن الشيىء الذي أود إيضاحه هنا هو أن هذا الوضع ، وضع الاختيار بين الحياة والموت، قد رافق اليهود منذ خروجهم الى المهجر كوضع دائم، وكوضع قدريّ في كل مكان في العالم، بدون أن يجعلهم يحاولون العودة سنة بعد سنة أو جيلا بعد جيل، طيلة الفي عام، الى أرضهم ليكونوا فيها أسياداً يملكون مصيرهم بأيديهم وليوفروا على أنفسهم مواجهة اختيار مفروض عليهم بين الحياة كيهود أو كغير يهود ـ أم أن حياة السيادة في «أرض اسرائيل»، في الشرق الاوسط، بالذات، علّمت الشعب اليهودي درساً فظيعاً، بأن السيادة اليهودية، والحياة اليهودية في (أرض اسرائيل)، لا تشكلان ضمانة لبقاء الوجود اليهودي، ولذلك فهم يفضلون البقاء المصحوب بالاختيار المذكور ـ خارج (أرض اسرائيل)؟

لقد كانت الصهيونية أول محاولة جديّة في تاريخ الشعب اليهودي منذ أيام عيزرا ونحميا، للتمرد على استمرار الحياة في مواجهة الخيار بين البقاء كيهود أو غير يهود.

لقد تحدّت الصهيونية الدين اليهودي الذي يقبل بحياة دائمة لليهود على شكل أقلية مكروهة من قبل الاغلبية، وتحدّت معضلة الخيار بين الانصهار أو المطاردة التي فشل الدين اليهودي في التغلب عليها. لقد قال الدين لا يجوز «الانصهار» لكنه لم يتمكن من منع انصهار اليهود في إطار الشعوب الأخرى. كما أن الدين اليهودي لم يكن يحلم أيضاً بمنع تعرض للملاحقة والمطاردة، بل ربّى الشعب اليهودي على المواقف السلبية والتسليم بالقدر وانتظار المنقذ.

لكن الصهيونية ليست كذلك. لقد قالت الصهيونية: إن الدين لن ينقذ اليهود لا من المطاردة ولا من الانصهار. المطلوب بديل ثالث يكون أميناً ومضموناً: تكوين

أغلبية يهودية في منطقة معيّنة، وتجميع كل اليهود في مكان واحد محدد، وتسلّم مقاليد السيادة على المصير اليهودي لأيد يهودية. والمكان الواحد الوحيد الممكن ـ (أرض اسرائيل).

لماذا في هذا المكان بالذات؟ لماذا يكون هذا المكان هو الواحد والوحيد الممكن؟ هل لإنه مغروس في الوعي القومي والديني ـ التقليدي اليهودي على أنه المكان الذي تكّون فيه الشعب اليهودي. سيكون من السهل على اليهود التخلي عن أماكن وجودهم والتوجه الى هذا المكان «المعروف» لديهم، التابع لهم؟ حسناً. هذا جيد، ومنطقي! ولكن أين حدث الخلل؟

أولاً وقبل كل شيء، لقد دعت الصهيونية لكنها لم تُستجب. فالشعب اليهودي لم يستقطبه الحل الصهيوني «للمشكلة اليهودية»، مشكلة الانصهار أو الملاحقة. إنه لم يأت، لم يأت شعب اسرائيل الى «أرض اسرائيل». يمكننا أن نأسف لذلك، ويمكننا أيضاً أن نفرح. ولكن لا يمكننا توجيه التهمة لأحد هذا هو الشعب وليس غيره. شعب حقائق، ولا جدال في هذا.

إنني أتراجع، على أية حال، عن وصفي آنفاً الشعب اليهودي بأنه «مريض». هذا وصف ساخر، وتعريف غير تاريخي. الشعب ليس مريضاً. إنه هو شعب خاص. إنه ثمرة تأثيرات وظروف خاصة به. ما العمل، من الصعب عدم التطرق اليه شعورياً وقيميّاً، ولكن يجب القبول به كما هو. يجب أن نحترمه كما هو. بالطبع يمكننا الاحتجاج عليه، الانسحاب منه، أو انتقاد أخطاء زعاماته على مدى الاجيال وفشلهم في الاختيار بين البدائل. ولكن لا يمكننا نفي الحقائق الناصعة التي تثبت أن هذا الشعب فقد منذ زمن طويل غريزة البقاء القومية والسيادية. وإنه يتناقص باستمرار في أي مكان يوجد فيه العالم، وإن نسبة تناقصه واضمحلاله تزداد باضطراد مع مدى إنفتاح المجتمع الذي يعيش فيه. هنالك حقيقة ثابتة جليّة هي أن أية مؤسسة يهودية في مجتمع غربي تبادر الى الاحتفال بأي يوبيل لتأسيسها في الشتات اليهودي في تلك البلاد ـ يتضح أن أبناء جيل الطلائعيين، مؤسسي الشتات، غير شركاء في الفرحة. إنهم غير موجودين، ذلك لإنهم انصهروا في محيطهم.

لهذا السبب أفلست الحركة الصهيونية منذ بدايتها. فاليهود المتدينون لم ينهضوا لتلبية ندائها. كما أن غير المتدينين لم ينهضوا هم أيضاً. الجهلاء لم

ينهضوا وكذلك المثقفون. لم يلب نداء الصهيونية إلّا القليل فقط. ولو كانت استجابة واسعة النطاق لنداء الصهيونية لاستطاعت تحقيق الكثير الكثير في ظل تلك الظروف التي كانت مواتية لها. ولكن مالنا وللتمنيات، نحن نعيش الواقع.

«أين هو الشعب اليهودي؟»، هكذا تساءل حاييم وايزمن في بداية العشرينات عندما لم يهب الشعب اليهودي بكامله للاستيطان في (الوطن القومي) في (أرض اسرائيل) في اعقاب وعد بلفور، ولم يجند الاموال المطلوبة لذلك. لم يكن حاييم وايزمن غبيا. إنه كان يعرف جيداً الاجابة على سؤاله. لقد كان اليهود موجودين، لكن كل واحد منهم في مكانه، وبقي في مكانه.

لا شك بأن عملية انصهار أي شعب في مجتمع شعب آخر تتطلب شرطين أساسيين، الاول وجود شعب قادر على امتصاص شعب آخر وتذويبه، وثانياً وجود شعب لديه قابلية الانصهار.

المجتمع الروسي - الاوكراني - البولندي الذي عاش اليهود داخله في روسيا لم يكن مجتمعاً لديه القدرة على الامتصاص. كان ذلك مجتمعاً مغلقاً، صلباً. وكان عدد قليل فقط من اليهود هناك يعيشون في المدن الكبيرة والذين كانت لهم اتصالات وعلاقات مع المستوى المثقف والاوساط الثورية في روسيا القيصرية حتى مطلع القرن العشرين.

على أية حال، لم تجد الطائفة اليهودية، الكبيرة في روسيا موطىء قدم لها في المجتمع الروسي وفي الاقتصاد الروسي، لذلك بدأت الهجرة.

إن أي إنسان لا يهجر مكان اقامته بمحض إرادته بسهولة. فالهجرة تحتاج الى قوة دافعة وقوة أخرى جاذبة. ولكن عندما يكون المكان ضيقاً، والأسرة كبيرة، ولا يوجد ما يسد الرمق، وعندما تكون فرص الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي معدومة تقريباً، يبدأ الناس يشعرون بالقلق النفسي الأمر الذي يؤدي بهم الى التحرك من مكانهم والبحث عن مكان آخر أفضل.

على أية حال، بدأ يهود روسيا بالهجرة افراداً وجماعات بحثاً عن مكان أفضل. توجهوا نحو الغرب الاوروبي ومن هناك غرباً الى الولايات المتحدة. كان تيار الهجرة قوياً، لقد غيّر الجغرافية اليهودية في عصرنا هذا. وكل تيار لا بد أن تتفرع عنه تيارات فرعية ثانوية - الى بولندا، المانيا، فرنسا، بريطانيا، جنوب افريقيا،

استراليا، كندا، الارجنتين. وكما تفرع عن التيار الرئيسي تيار صغير ضعيف جداً حوالي ٣٪ أو أقل الى (أرض اسرائيل). لا شك بأن قوة الجذب ـ الاقتصادية والاجتماعية ـ (لارض اسرائيل) كانت ضعيفة جداً. ففكرة تجديد النهضة اليهودية لم ترق الجماهير اليهودية بتاتاً. لقد كانت تلك الفكرة فوق إدراكهم.

إن اليهود في مسيرتهم التاريخية لم تستهوهم الحياة في منطقة الشرق الاوسط خاصة، والشرق بصورة عامة. كانت أعينهم دائماً وابداً متجهة نحو الغرب الحضاري. كانوا ينظرون الى الشرق الاوسط كمنطقة همجية لا حضارة فيها ولا مدنية.

لقد عاش اليهود بمحض إرادتهم في اسبانيا، وفي إشكناز، في فرنسا، في بريطانيا. وعندما طُردوا هرب بعضهم الى شمال افريقيا وتركيا، لكن معظمهم فضلوا البقاء في اوروبا وذهبوا الى ايطاليا، والبلقان، وفرنسا، والمانيا، وبولندا، وروسيا، وعندما حان وقت الهجرة من روسيا ـ توجهوا ثانية نحو الغرب.

في عهد الهيكل الثاني فضّل اليهود لأول مرة الهجرة بمحض ارادتهم الى بابل وآسيا الصغرى ومصر وروما. كان الاستيطان اليهودي في (أرض اسرائيل) آنذاك يشكل أقلية الشعب اليهودي.

وفي أوامر القرن الاول للميلاد ذهب اليهود الى اسبانيا. وبعد طردهم من اسبانيا والبرتغال بعد ١٥٠٠ سنة من الازدهار في طرف الغرب لم يهاجر اليهود الى (أرض اسرائيل).

لقد قرر الشعب اليهودي في غالبيته العظمى تصويتاً عملياً حراً «ديمقراطياً» ـ حتى بعدما بدأت الفكرة الصهيونية تتجسّد، وبعد بشرى هرتسل، وبعد انتظام الحركة الصهيونية كحركة سياسية، وبعد ظهور حركات «بيلو» و«حيفات صهيون» (اول حركات شبيبة طلائعية يهودية هاجرت من روسيا الى أرض اسرائيل في ١٨٨٢)، وبعد وعد بلفور، وحتى بعد قيام (دولة) اسرائيل ـ صوّت هذا الشعب ضد العودة الى (ارض اسرائيل) (صحيح أن بقايا يهود الكارثة، ولاسباب نفسانية وسياسية هاجر معظمهم الى الشرق، (الى أرض اسرائيل)، ولكن ليس جميعهم، وهذا ينطبق أيضاً على يهود اليمن والعراق).

لقد قرر الشعب اليهودي بأغلبية حاسمة، بتصويت شخصي، ضد العودة الى

(ارض اسرائيل)، ضد العودة الى حياة إنتفاضة أو حكم ذاتي يهودي في (ارض اسرائيل) أو في أية مكان آخر. لقد صوّت الشعب اليهودي الى جانب البقاء كأقلية والانصهار ضمن شعوب أخرى متحضرة. ليس غريباً هذا بالنسبة لهذا الشعب. انها مسيرة تاريخية بالنسبة له، تماماً كمسيرة اسراب الجراد التي لا تستقر في مكان معين بل تطير في موعد معين في اتجاه معيّن. إن الانسان الغبي الساذج فقط هو الذي يمكن أن يعتقد بأنه قادر على تحدي هذه المسيرة.

إن الصهيونية ـ التي أنا بفضلها إبن (ارض اسرائيل)، وبسببها أنتمي الى الجنسية الاسرائيلية بحكم كوني سليل رجل حركة «بيلو» (جدّي)، والتي بسببها لغتي عبرية وسمائي اسرائيلية، والتي بسببها أنا هكذا وليس غير ذلك ـ تنظر بعيون متعبة تلاحق اسراب الجراد اليهودية التي تتحرك غرباً، غرباً، وفقط الى الغرب، ولم تستطع فعل شيء.

لقد جاءت الحركة الصهيونية للخلاص والانقاذ، غير انها لم تخلّص ولم تنقذ إلا القليل فقط. وبأي ثمن! إن ما حققته، وتمثل في إنجازها المدهش، قيام (دولة) اسرائيل، بلغ عدد يهود (دولة) اسرائيل في نهاية عام ١٩٨٨ حوالي ٣٫٥ مليون نسمة الذين يشكلون ٢٧٪ فقط من مجموع الشعب اليهودي في أيامنا هذه ـ وحول مصير هذا العدد توضع علامة سؤال كبيرة، وشك كبير بالنسبة لاستمرار وجوده، فهو مهدد بالحرب، وبعدم توفر الأمن، وبأقلية عربية كبيرة آخذة بالازدياد، وبالهجرة المعاكسة الى خارج اسرائيل.

لقد حققت الحركة الصهيونية هدفها، إقامة (الدولة) اليهودية، غير أنها لم تحقق هدفها في ضمان استمرار وجود وبقاء هذه (الدولة). فالنبع اليهودي قد جفّ. ولم تعد (الدولة) اليهودية تشكل ملاذاً وملجأً بمعنى الانقاذ من ضائقة أمنية، بالنسبة لأي يهودي. فقد أصبحت هذه (الدولة) ذاتها بحاجة الى إنقاذ أمني عن طريق استيعاب مواطنين يهود جدد، غير أن مثل هؤلاء اليهود غير موجودين. لقد انتهت القصة. لقد نضب السيل المتدفق شرقاً. لم تعد هناك قوة جاذبة، ولم تعد هناك قوة دافعة.

إن الوضع اليهودي في العالم حالياً لم يعد يضع اليهود أمام الخيار بين وجود قومي مضمون في (دولة) اسرائيل وبين عدم البقاء. إنما الوضع اليهودي الآن يضع

اليهود امام الاختيار بين وجود قومي غير مضمون في (دولة) اسرائيل يعاني من ضيق أمني واجتماعي واقتصادي، وبين وجود غير مضمون أيضاً في الشتات في اوروبا وامريكا.

كانت هنالك أيام ـ مضت بسرعة، بسبب تصرفاتنا وما جلبناه على أنفسنا ـ كانت اسرائيل فيها تستطيع الادعاء بأنها الملاذ والملجأ الأمين الوحيد في العالم لحياة يهودية أمينة.

ما هو الأفضل بالنسبة لأي يهودي: رحلة بطولية مملوءة بالتوتر والدماء في قطار حربي نحو جسر مهدوم أم رحلة سهلة ليّنة الى محطة يتم فيها إستبدال القطار اليهودي بقطار غير يهودي؟ في الاستفتا العام اليهودي للاجابة على هذا السؤال صوّت المقترعون الغالبية ـ عملياً ـ لصالح البديل الثاني غير القومي. هذا ليس قراراً سيئاً ولا قراراً جيداً. لكنه الواقع. هذه معلومة طبيعية، يجدر بمن يحاول تحدّيها أن يبحث أولاً في أعماله ومن ثم في دوره في تقوية وتعزيز هذا الواقع.

لم تكن الحركة الصهيونية، أي منظّريها، يتوقعون هذا الوضع. لقد اعتقدوا أنه في نهاية ألفي سنة لوضع غير عادي عاشه الشعب اليهودي سيكون بالامكان تصحيح الوضع وإعادة اليهود الى وضعهم الطبيعي عن طريق تغيير اتجاههم الروحي، وتغيير اتجاه التيار بقرار لجنة، والسباحة ضد التيار.

لقد وجدت الحركة الصهيونية ما يكفيها من الطلائعيين لتأسيسها، وما يكفيها من المهاجرين الذين أرغمتهم الظروف لكي تنمو وتترعرع، لكن هذا لا يكفي. (فدولة) اسرائيل بحاجة الى أعداد أخرى من اليهود. هذا حيوي ضروري ومستعجل، إنه مصيري ـ ولكن لا يوجد. لقد انتهى الشعب اليهودي. شتاته في الدول الاسلامية إنتهى، في الواقع. بقي فيها رواسب متعمقة مترسخة بحيث إذا ارادوا النزوح عن تلك البلاد من المشكوك فيه ان يتوجهوا الى (دولة) اليهود (حتى يهود بيروت لم يغروا الى اسرائيل عندما سنحت لهم الفرصة في حرب لبنان). وهذا هو الحكم بالنسبة ليهود اوروبا الشرقية والغربية وحتى في دول امريكا اللاتينية، حيث تتم هناك عملية انصهار حتميّة، وسريعة.

الطائفة اليهودية الامريكية الكبيرة ـ أكبر تجمع يهودي في العالم ـ هي طائفة مستوعبة وليست مصدر هجرة (إن المجانين الذين يصلون من أجل ظهور ظواهر

لاسامية في الولايات المتحدة، على أمل أن تؤدي الى تهجير اعداد كبيرة من اليهود الى (دولة) اسرائيل لا يدركون أنه اذا ظهرت هناك لا سامية كهذه فستكون اولاً وقبل كل شيء سبباً في نهاية اسرائيل، لان امريكا لا سامية ستقطع أية صلة لها مع اسرائيل وستتوقف عن أية مساعدة لها).

ماذا بقي ؟ يهود الاتحاد السوفياتي.

اليهود ليسوا شعب دولة. لقد فقدوا هذه القدرة منذ عهد بعيد ـ هذا إذا سبق أن كانت لديهم مثل هذه القدرة أصلاً. واليهود بصفتهم شعباً ليست لديه مقومات شعب الدولة يفضلون حياة الشتات والعيش ضمن أقليات، والانصهار، والانغلاق والعزلة في «غيتو» والتنقل من مكان الى مكان.

إن اليهود بصفتهم شعباً ليس شعب دولة فهم يكرهون المسؤولية الكاملة لمصيرهم. وبصفتهم هذه فانهم يخربون بأيديهم صورة حياة دولتهم لدرجة إنغمارهم في ثقافة قدريّة يسودها العنف والموت والحروب المتكررة، وإستعباد شعب آخر يرزح تحت الاحتلال.

إن اليهود بتصرفاتهم يقودون أنفسهم، هكذا على مشهد من العالم كله، الى حربهم السادسة.

إن الصهيونية لم تر، ولم تتوقع أمرين آخرين، أو على الأصح، الكارثتين اللتين حلّتا بالشعب اليهودي في جيلنا ـ الكارثة السوفياتية والكارثة النازية ـ اللتين قرّبتا نهاية الشعب اليهودي.

الكارثة السوفياتية: إن كل طفل يعرف شيئاً ما عن الكارثة النازية، ولكن ما هي الكارثة السوفياتية؟ النظام البلشفي الدكتاتوري الذي تسلم السلطة في روسيا في اواخر الحرب العالمية الاولى وكان للثوريين اليهود دور كبير فيه، لم يكن معادياً لليهود في جوهره. غير أن الدكتاتورية التي في جوهر هذا النظام ومعاداته للصهيونية التي ورثها عن منظرّيه، كارل ماركس، فريدريك أنجلز، وفلديمير لينين، وكذلك وجود يهود كثيرين جداً في كل مستويات النظام حتى مستوى زعامته الذين كانوا على استعداد لضرب اخوانهم أبناء شعبهم من غير الشيوعيين سواء كانوا متدينين أو علمانيين، صهيونيين أو غير صهيونيين، كانت تلك إحدى المصائب القومية الشديدة التي عرفها الشعب اليهودي في تاريخه وبخاصة في الفترة الأخيرة. التجمع اليهودي

الروسي البالغ حوالي (٥) ملايين والذي كان حيوياً بالنسبة للحركة الصهيونية، فُصل دفعة واحدة من جسم الشعب اليهودي، شُلّ، وأصبح فريسة للنظام الدكتاتوري البلشفي. في الواقع حُكم عليه بالدمار الروحاني، ويصعب فعلاً قياس مدى شدة الضربة التي تعرض لها الشعب اليهودي عامة والصهيونية وفرصها بشكل خاص.

إذا كان هنالك أمل للحركة الصهيونية بأن يشكل وعد بلفور ناقوساً يدعو جماهير الشعب اليهودي الى الهجرة الى اسرائيل، فقد كان ذلك الأمل يمكن ان يتحقق بيهود روسيا. غير أن النظام الدكتاتوري اللينيني الذي حكم على روسيا بالاغلاق والحصار، حيث أغلق حدود روسيا أمام الهجرة للخارج ومنع أية اتصالات مع العالم الخارجي بدون اشراف ورقابة النظام الشيوعي ـ لكن هذا الاجراء لم يكن ينبع من موقف معاد لليهودية، إنما من جوهر النظام الدكتاتوري ـ لكن اكثر مجموعة تضررت بهذا الاجراء كانت الاقلية اليهودية الروسية التي كانت معنية بالهجرة خارج روسيا.

كما قام النظام الشيوعي في روسيا بحل وإلغاء كافة التنظيمات الداخلية والمؤسسات اليهودية الاجتماعية وغير اليهودية أيضاً. إذ في تلك الدولة الكبيرة لم تعد تعمل سوى المؤسسات والتنظيمات الشيوعية. وهكذا أصبح التجمع اليهودي في روسيا ممزقاً، مقيّداً، لاروابط بين جماعاته.

خلال ذلك، طرأت تحوّلات جوهرية وبعيدة الأثر في الشتات الجغرافي والطبقي الاجتماعي والمهني في وسط يهود روسيا.

الحرب الاهلية القاسية التي جاءت في اعقاب ثورتي عام ١٩١٧ وانتصار واستيلاء البلشفيين على هذه الدولة الكبيرة أدت الى هروب وتصفية واسعة النطاق لعناصر الطبقة الحاكمة في النظام القديم. كما أن النظام الجديد الذي جاء رافعاً شعار المساواة والأخوة، مكّن اليهود من الارتفاع في المستويات السوفياتية بشكل ملموس يزيد عن نسبتهم السكانية في الدولة.

هنالك تحوّل مؤثر آخر حدث هو أن انتقال الغالبية العظمى من اليهود من القرى والمدن الصغيرة الى المدن الكبيرة ذات المجتمعات المختلطة المفتوحة. الأمر الذي جعل اليهود يذوبون في المجتمع الروسي المحيط بهم. وهذا التطور ـ الذي لم يكن يتوقعه أحد ـ خلق واقعاً جديداً في حياة الشعب اليهودي. وكانت عاقبة هذا

الواقع بالنسبة للاستيطان اليهودي في (أرض اسرائيل) ماحقة، وحتى قاتلة.

لذا ما الداعي للاستغراب إذ كانت تلك الطائفة الكبيرة، أكبر تجمع يهودي ـ حوالي (٥) ملايين في الاتحاد السوفياتي ـ عندما وجدت الباب مفتوحاً أمامها للهجرة في بداية السبعينات في أيام «الوفاق الدولي» بدأت جماعات المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفياتي الذين لا تجذبهم الحياة اليهودية القومية بل يبحثون فقط عن حياة جيدة، تهاجر الى بلاد غير اسرائيل. لا يحق لنا أن نطلب من اليهودي الروسي اكثر مما نطلبه من اليهودي البريطاني أو الامريكي، ناهيك عن أن اليهودي الروسي يتصرف حسب طريقة أجداده الذين ظلوا دائماً وأبداً يبحثون عن «بلاد الامكانيات المفتوحة». ولكن يجدر بنا أن ندرك بأن سياسة تدمير الروح التي تبناها النظام البلشفي ضد اليهود السوفيات من جهة، وسياسة القوة التي تنتهجها (دولة) اسرائيل التي تضمن للمهاجرين الجدد اليها ليس ملجأً أميناً، بل ميدان معركة. من جهة ثانية، تظهران جلياً في مسارات الهجرة التي يختارها اليهود السوفيات الذين بقوا في الاتحاد السوفياتي.

إذا نظرنـا نظرة واقعيـة الى الأماكن التي يعيش اليهود فيها في الاتحاد السوفياتي نجد أن الغالبية الساحقة منهم تعيش في ١٤ مدينة هي كبريات المدن الروسية. لذا فيهود الاتحاد السوفياتي لا يعيشون في ضائقة. واذا هاجروا يكون هدفهم الرئيسي من هجـرتهم هو البحث عن امكـانيـة الحياة في مجتمع مفتوح ديناميكي متطور يضمن نوعية حياة راقية ومتحررة من التخلف والتعصب الديني ومن تهديدات الحروب.

إن السبب الرئيس الذي يجعل يهود الاتحاد السوفياتي يتخلفون عن القدوم الى اسرائيل عندما يُسمح لهم بالهجرة هو ان المجتمع الامريكي توجد لديه قيم غير موجودة في المجتمع الاسرائيلي، هذا إذا كانت لدى المجتمع الاسرائيلي قيم أصلاً.

إن (دولة) اسرائيل التي تعاني من ضائقة سكانية هي على استعداد لارغام كل يهودي تسنح له فرصة الهجرة من دولة ذات نظام دكتاتوري، على القدوم الى اسرائيل ومنعه من تحقيق رغبته الحرّة في الاقامة في دولة أخرى. لكن زعماء اسرائيل يقفون لا حول لهم ولا قوة تجاه ظاهرة تخلف المهاجرين من يهود الاتحاد السوفياتي عن القدوم الى اسرائيل.

إن محاولة إرغام يهود الاتحاد السوفياتي على الهجرة الى اسرائيل، تظهر مدى «جاذبية» (دولة) اسرائيل.

خلاصة القول إن الثورة البلشفية التي نجحت في الاتحاد السوفياتي قطعت في عام ١٩١٧ من جسم الأمة اليهودية واحداً من أهم أطرافها من حيث الكمية والنـوعية، وحكمت عليه بالانحلال والانصهار في المجتمع الروسي وحطمت روحه القومية، وبذلك تكون قد ألحقت ضربة ساحقة بقدرة الشعب اليهودي على البقاء. وكانت ضربة قاضية بالنسبة للمشروع الصهيوني ومن ثم (الدولة) اسرائيل.

بعبارة أخرى، لو استمر نظام الحكم القيصري في روسيا الذي كان يسمح بممارسة حياة حرّة لفُتحت ابواب الهجرة على مصاريعها أمام اليهود ولكان الواقع اليهودي في العالم وفي (دولة) اسرائيل على غير ما هو عليه الآن.

الكارثة النازية: في كتابات بعض الزعماء الصهاينة يمكننا العثور على فقرات وتنبؤات مدهشة تظهر وكأنهم توقعوا الكارثة وحذروا منها، لكن تحذيراتهم لم تجد من يسمعها.

على أية حال، كل شعب يمكنه أن يعوّض لنفسه خلال جيل أو جيلين الخسائر التي تكبدها في الحرب بنسبة معينة.

الشعب اليهودي البالغ عدده (١٦) مليوناً، الذي فقد في الكارثة النازية حوالي ثلث أبنائه، لم يستطع تعويض هذا العدد حتى الآن. هتلر لم يعد موجوداً.

الشعب الألماني كان ٦٠ مليوناً، فقد في الحرب العالمية الثانية حوالي (٥) ملايين نسمة، وهُزم عسكرياً، لكنه يُعد اليوم حوالي (٧٥) مليون نسمة.

الشعب اليهودي الذي يُعدّ اليوم حوالي (١٣) مليون نسمة، هُزم سكانياً (ديمغرافياً). ليس فقط عدده ينقص، إنما لم يوجد بديل لستة الملايين الذين أبادهم هتلر. كما أن الحركات والمنظمات الطلائعية اليهودية وحركة الاستيطان والبناء في (أرض اسرائيل) التي سبق أن كانت نشطة وفعّالة لم يعد لها وجود الآن. لقد كانت الضربة الكميّة والنوعية أكبر من أن تطاق.

لقد حكمت الكارثة على الشعب اليهودي الاسرائيلي (اسرائيل) نسبة سكانية غير سليمة بين يهود غربيين ويهود شرقيين، وكذلك حجم صغير لا يمكن التغلب عليه، وهذا الصغر في الحجم هو نفسه يحكم على هذا التجمع اليهودي (اسرائيل) بأن

يظل يراوح مكانه الأمر الذي يعني تراجعاً الى الوراء وضعاً واحتضاراً.

بعد كل هذا، ما هي الاستنتاجات والعبر التي تجلب علينا كيهود، كشعب صغير يزداد صغراً، من الكارثة؟

«لا كارثــة جديــدة!». هكذا يردد اليهود في كل أنحاء العالم ومن مختلف الطبقات. إنني أسأل أيها السادة ماذا يعني عدم تكرار الكارثة؟ ليس كارثة جديدة؟ عدم السير مرة ثانية كقطيع الى المذبح؟

ماذا يعني القول «لا كارثة جديدة»؟ لا لكارثة جديدة؟ أين؟ في اوروبا؟ في أي مكان في أوروبا يواجه اليهود كارثة مذبحة؟ في بريطانيا؟ في فرنسا؟ في ايطاليا؟ في سويسرا؟ في رومانيا؟ في هنغاريا؟ في بلغاريا؟.

أيها السادة، بماذا أنتم تتحدثون؟ ربما تقصدون يهود الاتحاد السوفياتي الذين يزيد عددهم على (٢) مليون أو ربما ثلاثة؟ ولنفترض بأن كارثة حدثت لليهود في الاتحاد السوفياتي، ماذا تستطيعون أيها السادة ان تفعلوا لمنعها؟ هل ستطلقون صواريخ على أوديسا؟ هل ستقتلون السفير السوفياتي في واشنطن؟

إذن، ماذا يعني القول «لا لكارثة جديدة»؟ أم أنكم تقصدون كارثة ضد اليهود في الولايات المتحدة؟ لنفترض أن اليهود في الولايات المتحدة تعرضوا ليس لكارثة كاملة، بل لشبه كارثة، ماذا ستفعلون؟ ولمن ستشتكون؟ من القادر على الأمة الأمريكية غير الله؟

أو ربما تقصدون لا لكارثة جديدة في (دولة) اسرائيل؟ هل تسمع أذانكم ما تقوله افواهكم، أيها السادة؟ كارثة في اسرائيل؟ وها هي (الدولة) التي أُقيمت من أجل منع تعرض شعب اسرائيل لكارثة!

إن إثارة إمكانية حدوث كارثة في اسرائيل بالذات أو العيش في اسرائيل في ظل التهديد بكارثة وخوف دائم على وجود اسرائيل، هي بحد ذاتها مدعاة للسخرية من الفكرة الصهيونية.

ماذا يعني إذاً، القول«لا لكارثةجديدة»؟لنفترض أيضاً ان خطر كارثة هدد اسرائيل ـ كيف ستطبقون مبدأ«لا لكارثةجديدة» وكيف ستحبطون هذا التهديد؟ هل على شكل «عليّ وعلى أعدائي»؟

إن التركيز في استخلاص العبر من الكارثة يجب ان يكون قبل كل شيء في

إدراك امكانية تكرارها، ومن ثم في طبيعة الرد عليها. إن التركيز لا يكون على أية حال على صعيد تثقيفي بمسألة فحص وضع الشعب اليهودي كشعب يسير دائماً على شفا هاوية يستفز دائماً وأبداً قوى أكبر منه، ومن ثم يقبل بحكم كونه أقلية في كل مكان يوجد فيه، وأخيراً عندما وصل، هكذا ظاهرياً، الى مرحلة تذوق طعم الراحة في «دولته» ـ يواصل السير على حافة الهاوية المصيرية، يواصل استفزازه وتحديه للمحيط الذي يعيش فيه، وكأن الحياة لا طعم لها بدون موت وحروب وكوارث.

إن التركيز على الكارثة ومحاولات إحيائها من جديد بغية إدامة عظمتها في فكر ووعي الجيل القادم بطرق مختلفة بما في ذلك، إجراء محاكمات استعراضية «تربوية» وترتيب رحلات الى معسكر الابادة أوشفايتس، لكل ذلك اكثر من وجه.

إن اسرائيل تهدف من وراء كل هذا القول للعالم «بأننا ضحايا لأفظع جريمة ارتكبها بنو البشر ضد إخوانهم من بني البشر» ولهذا لن يجرؤ أحد على تعليمنا درساً أو موعظة كيف يجب أن نتصرف تجاه بني الانسان من غيرنا. لكن هذا الهدف الاسرائيلي يمكن أن يحوّل الحمل الى ذئب، وان يجعل من الضحية مجرماً.

ألا يجب أن نحذّر من هذا التوجه الخطير الذي يُوجد سلفاً المبرر لكل جريمة ضد الانسانية التي تنفذها أو قد تنفذها أو تخطط لتنفيذها حكومة اسرائيل، او تخطط لتنفيذها جماعات في اسرائيل ضد أبناء شعب آخر؟

إذاً، ما هو الدرس الأول الذي يجب أن يستخلصه من الكارثة شعب ذُبح ودُمّر، شعب صغير فقد حوالي ثلث أبنائه، شعب توجد كل طوائفه في الشتات في جميع أنحاء العالم في عملية انصهار في إطار الشعوب التي يعيش معها، إذا لم يكن مراهنات جديدة على حياته في الحروب، إنما التقدم نحو حل النزاعات الدولية والاقليمية ـ وبخاصة اولئك الذين قد يجرون (دولة) اسرائيل، التي لم تذق طعم الراحة والاستقرار بعد، الى حربها السادسة وهي الأخطر من بين كل حروبها؟

هل تتقدم اسرائيل نحو حلول كهذه أم أنها ترفضها عن طريق تخندقها في مواقعها السياسية التي من شأنها فقط تهديدها وتعريضها لحروب جديدة وتآكل سكاني وأخلاقي؟

بديـل دائم: إن منـظّري (الدولة) اليهـودية ومؤسسيها وأصحاب ألفكرة الصهيونية الذين شاهدوا جماهير اليهود «يهاجرون» الى (أرض اسرائيل) من كل تجمعات اليهود في المهجر، لم يخطر ببالهم حدوث عملية عكسية «نزوح» من (أرض اسرائيل) الى الخارج.

صحيح أن كل عملية في الطبيعة تكون مصحوبة بعملية معاكسة لها. لا توجد هجرة الى الداخل بدون هجرة الى الخارج. لذا فالسؤال هو: «كم وكم»؟ ـ ما هو حجم الهجرة الى الداخل، وحجمها الى الخارج.

لسنا مُضطرين هنا لتقديم إحصائيات دقيقة لمعرفة حجم الهجرة الداخلية والخارجية. إنما نستطيع القول أن الاسباب ومخاوف الافراد والجماعات في اسرائيل التي تدفعهم الى الهجرة المعاكسة (النزوح) من اسرائيل لا زالت قائمة وهي لم تضعف بل تزداد باضطراد.

إن (دولة) اسرائيـل لم تحرق عصا الترحال اليهودية، ولم تمزّق الحقيبة السفرية الموضوعة في خزانة كل يهودي. فالعصا لا زالت في الزاوية. والحقيبة في الخزانة. وهنالك أوقات، واوضاع تجعل عين اليهودي تتجه اليهما ولو للتأكد من وجودهما.

توجد بدائل (لدولة) اسرائيل. توجد بدائل للشرق الاوسط. لا توجد بدائل ولا يمكن أن تكون هنالك بدائل لكل ما كانت (الدولة) اليهودية ستمنحه أو قد تمنحه لليهـود، غير أنه يوجد في سوق البدائل اليهودية حسابات، توجد أسهم مرتفعة وأسهم منخفضة، توجد طلبات مختلفة وتوجد عروض مختلفة مثلما يوجد يهود مختلفون.

هنالك حسابات الربح والخسارة، حسابات التوقع وخيبة الأمل، واستعداد للتنـازل عن «حياة جيدة» من أجل فكرة ساحرة ومستقبل واعد هنا، وحسابات اختيار مبدأ «كُل وأشرب اليوم هناك، لانه لا يوجد مستقبل مضمون هنا».

يوسف حاييم برنر، قال: «لا توجد أرض أخرى!» لقد صدق إذا كان المقصود بقـوله لا توجد أرض (كأرض اسرائيل) بما فيها من جيد وسيء، وبما فيها من

حسنات وعيوب، ولكنه لم يصدق اذا قصد بقوله هذا، ان اليهود لا يستطيعون الاستمرار في الحياة في بلاد أخرى. هناك عشرة ملايين يهودي يعيشون في بلاد أخرى. ومن ضمنهم أو بالقرب منهم مئات الالاف هاجروا من اسرائيل للخارج.

توجد أرض أخرى. فالتاريخ اليهودي ذو الالفي سنة، هو تاريخ أرض أخرى، تاريخ بلاد أخرى، تاريخ بدائل. إن أربعين سنة لوجود (دولة) يهودية، أو مائة سنة لوجود استيطان يهودي فى (أرض اسرائيل)، ليس بمقدورها شطب هذا التاريخ، والحكم بأنه لا توجد أرض أخرى، وحتماً هذه السنوات لا يحق لها أن تحكم بأنه لا يوجد ملجأ أمين لليهود (كدولة) اسرائيل.

كلا . فالبديل موجود في اكثر من مكان.

لقد صرخ يوسف حاييم برنر «لا توجد أرض أخرى» لكي يقنع نفسه، لكي يضعف شكوكه ويقلل من مخاوفه. كان ذلك من حقه. غير أن قوله هذا مغلوط من أساسه. توجد أرض أخرى وتوجهات يهودية أخرى ليست إسرائيلية.

إن مسألة الخاصيّة اليهودية في (دولة) اسرائيل، كما في بلاد أخرى، كشرط رئيس للمســاهمة في دور ما في الحضارة الانسانية لا بد أن تكون موضع شك وخلاف. إن انصهار اليهود مع الشعوب الأخرى هي عملية تاريخية، طبيعية، مثلما أن انزواء يهود متدينين في «غيتو» بمحض ارادتهم هي ظاهرة تاريخية، طبيعية، مثلما أن تجمّع يهود قوميين في (دولة) اسرائيل هي عملية تاريخية، طبيعية.

إن كل واحدة من صور البقاء والوجود هذه قائمة بحد ذاتها. كل واحدة مشروعة بقوتها الذاتية، وكل واحدة تواجه اختبار المستقبل بدون احتكار خاصّي يتعلق بنجاحها. إن كل يهودي يعيش في مجتمع حرّ هو حرّ في اختيار طريقه ومكانه، وحرّ في محاولة إقناع غيره للسير في طريقه. ولكن مع ذلك لم تختر الغالبية العظمى من اليهود الحياة القومية، ولا الحياة الدينية المتعصبة، حياة «الجيتو»، بل اختارت الطريق التي تؤدي في النهاية الى الانصهار في المجتمع المحيط.

أقلاء، هم اليهود الذين اختاروا طريق البقاء القومي التي لم تواجه حتى الآن اختبارها النهائي. وأقل منهم أيضاً إختاروا حياة التعصب الديني.

عندما أقول أنه توجد أرض أخرى، أقصد بذلك الولايات المتحدة بشكل رئيس، وفعلاً، في الولايات المتحدة نشأ، أو على وشك النشوء تماماً شتات إسرائيلي، أي من اليهود الاسرائيليين المهاجرين من اسرائيل.

إن قوة جاذبيـة الشتـات اليهـودي الامريكي بالنسبة لليهودي الاسرائيلي ستزداد حتماً وباضطراد كلما كُبر هذا الشتات الاسرائيلي هناك من حيث الكم والنوع.

إن القـوة الدافعـة التي تجعل اليهودي الاسرائيلي يهجر مكان إقامته في اسرائيل بمحض ارادته ستزداد هي أيضاً كلما تعمق الادراك والشعور لديه بأن عدد السكان اليهود في اسرائيل بدأ يتناقص ويضعف، وكلما شعر بإنخفاض نوعية الحياة في (دولة) اسرائيل (التي يعتبر عنصر الأمن أهم عناصرها). إن المعطيات السكانية تشير بكل وضوح الى تناقص نسبي، إذا لم يكن مطلقاً للسكان اليهود في اسرائيل وان حجم السكان اليهود في اسرائيل لم يعد يكبر نتيجة لهجرة قادمة ذلك لان اسرائيـل لم تعـد القـوة الجـاذبة (باستثناء عدد قليل من المتعصبين المتـدينـين)، وذلك سواء لان الشعب اليهودي في تناقص مستمر في العالم، وان التجمعـات اليهـوديـة في الخـارج التي كانت تمد اسرائيل بالمهاجرين قد ذابت وانصهرت مع المجتمعات التي تعيش فيها، أو أنها لم يعد لديها أعداد من الراغبين في الهجرة الى اسرائيل. إن مستوى نوعية الحياة في اسرائيل ليس في ارتفاع إنما يسير نحو الانخفاض. كما أن اسرائيل هي التجمع اليهودي الغربي ذو الثقافة المتوسطة والمتدنية في العالم.

اسرائيـل، هي التجمـع اليهـودي الوحيد في العالم الذي يلعب المتدينون المتعصبون فيه دوراً بارزاً ورسمياً ويسيطرون على مجرى الحياة فيه.

إن منظّري (دولة) اسرائيل ومؤسيسها، روّاد الصهيونية، لم يتوقعوا ولا حتى في الاحلام شكل وطبيعة السكان الذين ستتكون منهم (دولة) اسرائيل المنشودة. إنهم لم يتوقعوا هذا الوزن الثقيل للطبقة المتدينة المتعصبة، أي أنهم توقعوا أن يكون المجتمع في (الدولة) اليهودية حراً ومتحرراً من نير الدين. كما أنهم لم يتوقعوا النسبـة العـدديـة التي نشأت بين اليهود القادمين من بلاد المدنية والحضارة،

اليهودية ـ المسيحية الديناميكية وبين اليهود القادمين من بلاد الحضارة الاسلامية (الثابتة الجامدة) (الطبقات الثرية والاكثر ثقافة من يهود شمال أفريقيا، الذين كانوا من لحظة خروجهم لديهم هدف بديل، هاجروا الى فرنسا أو الى دول البحر، وكل اولئك اليهود الذين بقوا في المغرب والجزائر وتونس، من المشكوك فيه أن نراهم مرشحين للهجرة الى اسرائيل).

لا شك بأنه كان للنسبة بين هذين المعسكرين الحضاريين تأثير حاسم على تعزيز عناصر الدين المتعصب، والتعصب القومي في المجتمع الاسرائيلي.

ويبدو أن الغالبية العظمى من اليهود الذين هاجروا من البلاد الاسلامية يميلون الى كراهية العرب، كما أن لديهم تصرفات غير منطقية، ويطورون مشاعر إحباط قبليّة، وذلك نابع من صعوبات الاستيعاب وربما كان للمستوعبين ذنب كبير بهذا الوضع.

من جهة أخرى يبدو أن التربية المسيطرة والديناميكية أكثر لدى يهود الحضارة اليهودية ـ المسيحية محكوم عليها بالتراجع الحتمي.

إن المشكلة السكانية الفريدة في نوعها في (دولة) اسرائيل يمكننا تشبيهها بخمس دُمى مرتبطة ببعضها البعض ومتداخلة على غرار تلك الدمية الروسية التقليدية «ببوشكا»:

مشكلة النسبة السكانية بين اليهود الغربيين والشرقيين متداخلة مع مشكلة النسبة السكانية بين اليهود المتحررين واليهود المتعصبين الاصوليين، متداخلة مع مشكلة النسبة السكانية بين اليهود والعرب داخل (دولة) اسرائيل، متداخلة مع مشكلة النسبة السكانية بين اليهود والعرب داخل (أرض اسرائيل)، متداخلة مع النسبة السكانية بين اليهود والعرب في الشرق الاوسط!

وخلاصة القول، إنه لغز محيّر، كيف ولماذا نجد ان الاصوليين المتعصبين في اسرائيل أقوى بكثير من المتحررين في مجال الصراع من أجل رفع مستوى المجتمع الاسرائيلي.

على أية حال، إن للسيطرة التدريجية المستمرة والمتلاحقة للدين المتحجر سواء على المستوى الرسمي كما تبرز في الاستيطان وغوش ايمونيم التي فُرضت على (الدولة) كلها، أو على المستوى الاجتماعي ـ التربوي كما تبرز على الصعيد

الشخصي والخدمات وطابع الحياة السياسي والتربوي الاسرائيلي، تأثير حاسم فقط في اتجاه تقوية القوة الدافعة للهجرة الخارجية، أي الى خارج اسرائيل، الى الدول التي تحررت منذ زمن بعيد من التعصب الديني ومما يترتب عليه.

إن من شأن الهجرة الخارجية (المعاكسة) من اسرائيل تعزيز وتقوية الشتات الاسرائيلي خارج اسرائيل، الأمر الذي يقوّي بدوره القوة الجاذبة للهجرة الخارجية.

إن الهجـرة الخـارجيـة (المعاكسة) تضعف وتقلل السكان اليهود في اسرائيل - وبالاضافة الى نقص عدد المهاجرين القادمين،الى اسرائيل - تنقل العبء على اولئك الباقين في اسرائيل وتعمق لديهم الخوف من انخفاض عددهم بالنسبة للمحيط الذي يعيشون فيه، وتقوّي دافع الهجرة الخارجية ذاته.

إن أية قوة أو قرار سواء رسمي أو صهيوني، أو ديني، لن يكون بمقدورهما تغيير واقع ومسيرة الهجرة المعاكسة من اسرائيل. هذا هو الواقع.

إن التغيير في مسار هذا التوجه يمكن أن يحدث فقط نتيجة للاحساس بأن «البقاء في اسرائيل أفضل» وبأن «الوجود في اسرائيل اكثر أمناً».

غير أن التهديد بالحرب، أو ترقب اندلاع الحرب، أو التنكر للسلام، وأي سلام، أو متى سيحل السلام، كل هذه الأمور هي عدو خطير لهذا الاحساس.

إذا استمرت عملية تقوية الجماعات الاصولية والتيار المتعصب القائمة حالياً من جهة، وهجرة أبناء الطبقة غير المتعصبة من اسرائيل من جهة ثانية، سيكون من السهـل علينا أن نتخيّل قدوم سوّاح أمريكيين مزودين بكمرات تصوير لكي يصوّروا ليس المحمية البشرية في غيتو (مئة شعاريم) في القدس الآخذ في الاتساع، بل تصوير المحميّة البشرية الحرّة في شمال تل ابيب الآخذة في التناقص والصغر.

إن قوة الجاذبية (لدولة) اسرائيل لم تعد مضمونة. إنها في صراع وتنافس مستمر مع القوة الجاذبية لبدائل أخرى، غير ذات سيادة، لكنها قد تكون منسجمة مع نمط الحياة اليهودية التقليدية التي اعتاد عليها الشعب اليهودي على مرّ الاجيال.

وفي مجال الرد على السؤال: أي القوتين أقوى في أيامنا هذه - القوة الجاذبة لاسرائيل أم الدافعة للخروج من اسرائيل - لا أخشى الاجابة فوراً: القوة الدافعة للخارج.

ولكي نوقف هذه المسيرة لا يكفينا قرار لجنة هامة. فاسرائيل كلها بما فيها من تربية سياسية، أمنية، روحية، اجتماعية، إنسانية، يجب أن تتغيّر.

وأخـيراً في ظل هذا الوضـع، وفي ضوء انتهاء عملية الهجرة الى اسرائيل (الهجرة الداخلية) في اعقاب «إنتهاء» التجمعات اليهودية التي تعاني من ضائقة، وذوي الافكـار القـومية ـ الدينية المتعصبة، فانني أقول: (دولة) اسرائيل وُلدت ساقطة، ميتة. وفي أحسن الحالات، كانت فرصة ضائعة. وعلى أية حال، اسرائيل، هي «دولة زائلة». يا للخسـارة. وآسفـاه، على الجهـود التي بُذلت، وعلى العرق والتضحيـات التي قُدمت، وعلى الأخلاص والحب، وعلى الحياة التي اكتملت أو أقتطعت وهي في مهدها التي كرّست طيلة خمسة أجيال من أجل مشروع إنساني هو أروع ما في المشاريع الانسانية التي شهدها القرن العشرون.

كم هي مُهينة ، خيبة الأمل. وكم هو مؤلم ، البديل!

د ـ : « **عشرة أفعال** » :

لقد تحدثنا حتى الآن عن الخيارات والقرارات والسياسات المخطوءة لقادة اسرائيل. كما تحدثنا عن الاوضاع والمسيرات التي شهدها تاريخ الشعب اليهودي والتي اتضح أنها جميعها كانت قدرّية وممزوجة مع بعضها البعض لتعطي نتيجة واحدة حتمية هي: نهاية (دولة) اسرائيل، هكذا بكل بساطة. ذلك لان (دولة) اسرائيل الاصيلة، تلك التي رسمها في مخيّلتهم منظّروها، أو تلك التي ارتسمت في بداية تكوينها، لم تعد قائمة منذ زمن.

لقد أصبحت (دولة) اسرائيل، اسرائيل أخرى، بشكل آخر مشوّه وغير قابل للاصلاح. وهذه الأخرى تواجه الآن الفناء، وليس لها منقذ، وبدون بصيص أمل واحد لتحويل المصير المحتوم، وبدون وجود عنصر واحد على الأقل يلوح في الافق قد يُبّشر بامكانية حدوث تغيير نحو الأفضل.

هذه هي تصورات وأحكام قاسية، إن لم تكن أقسى ما في الوجود. هل هي مدحوضة؟ هل هي قابلة للدحض؟ هل هي في حُكم الاحكام والتصورات الموضوعية أم غير الموضوعية؟ هل هي منطقيّة أم هستيرية؟ هل هي تقدير وضع «حقيقي» أم «كاذب» ـ وبأي مدى؟

شيء ما، أعتقد بأنه من الضروري تركه الآن للقارىء. إن شعوري في نهاية كتابة هذا الكتاب هو أنني كمسافر واع في قطارنا الرسمي الذي يهمس في آذان الركاب المثقفين في هذا القطار بأنهم جميعهم يسيرون نحو جسر مهدوم.

أو كطبيب يتوسل اليه مريض بالسرطان ويجعله يُقسم أن يُفصح له عن مرضه «الحقيقي»، ومن ثم يفكر ويقرر ـ كما هو متبع في البلدان الراقية التي تحترم نفسها ـ أن يكشف له عن الحقيقة.

إن ركّاب القطار الذين يعرفون الى أين يتجه قد يسألون أنفسهم أو أحدهما الآخر: إذاً، ماذا يجب علينا أن نفعل؟

ومريض السرطان الذي يعرف مرضه، قد يسأل نفسه أو اصدقاءه: إذاً، ماذا عليّ أن أفعل، وما هو البديل؟

لكي أوضح اكثر السؤال، سأقارنه بوضع اليهود في أوروبا في أيام الكارثة أو قبلها: ما العمل؟ أن نبقى كل واحد في مكانه، نتأمل ونصلّي؟ أم نهرب؟ إلى أين

وفي أية مرحلة؟ هل نترك الاعزاء والأصدقاء من أجل زيادة فُرص البقاء؟

محاربة أم التعايش مع الوضع؟ الثورة أم التكيّف مع الوضع؟ أن نسجن أنفسنا في الفيتو أم نخرج الى الغابة؟ التمرد أم الاختفاء؟ التعاون مع الشيطان لدفع هذا القضاء بأي ثمن؟

لا يوجد لدي جواب. إنني لا أعرف ماذا يجب علي أن أفعل. إنني مرتبك ومنزعج، وخائف. إنني أعرف أن التشاؤم، هو بشكل عام نصيحة سيئة ولكنني مع ذلك أعرف أنه توجد أوضاع تشاؤمية لا يمكنُ إصلاحها.

إنني أعرف أنه توجد أمامي، وأمام من يفكرون مثلي، عدة بدائل سلوكية. وحتى الآن لا استطيع أيها اختار. وغير مؤهل للاختيار. غير أن قلبي يحدثني بأنه ليس بعيداً اليوم الذي سأضطر فيه للاختيار. ربما أكون مخطئاً. أرجو أن أكون مخطئاً. ولكن، ماذا لو لم أكن مخطئاً.

فيما يلي البدائل ، ستة منها بالايدي، واربعة بالارجل:

١ - عدم فعل شيء. أن لا نأمل ، أن لا نيأس، ولكن أن لا ننتحر. أن نعرف انه لا توجد نقطة توازن يمكن أن نضع فيها رافعة لتغيير الوضع، ولكن يجب أن لا نغرق في تشاؤم أسود. أن نتقبل الأمور كما هي. الانسان ليس إلهاً. إنه ليس مسؤولاً نهائياً عن الاشياء. ليس من واجب الانسان إنهاء كل شيء. المطلوب من الانسان ان يعيش يوماً بيوم وان يقوم بدوره في هذه الحياة بشكل طبيعي وعادي جداً طالما استطاع ذلك وحتى اللحظة الأخيرة.

وأخيراً، هل يوجد مخلوق قادر على التكيّف مثل الانسان؟ يعمل ويحب ويقرأ ويسمع الاخبار، يفرح ويغضب ويذهب الى السينما، ويذهب الى الخدمة الاحتياطية.

لا نستطيع التدخل في تصرفات الانسان. ليعمل كل واحد منّا ما هو مُكلّف به حسب الروتين، وليكن كل واحد «على ما يرام» حتى لو كان الوضع «على غير ما يرام». عندما تندلع الحرب، تندلع. ربما يتدخل الامريكيون قبل النهاية؟ وربما لا. ومن لا يعرف ماذا سيحدث؟ ليكن ما يكون. جيداً كان أم سيئاً. المهم أن نكون مع الجميع. حتى النهاية، لا شك بأن هذا هو البديل المفضّل، الدائم، السهل والطبيعي. هذا هو بديل التقصير. بل الفشل.

٢ ـ عدم فعل شيء. لكن يجب أن نشعر أنه لا يمكن التصرف والسلوك كما في الماضي. أن نسلّم بالقضاء والقدر ولكن يجب أن نغيّر نمط حياتنا باتجاه التمتع (نأكل ونشرب لاننا غداً سنموت). أو باتجاه ديني أصولي متعصب (التوبة والفرار الى العالم الخيالي البعيد عن الواقع الذي لا التزام فيه).

٣ ـ عدم فعل شيء. لكن أن نشعر أنه لا يمكن التصرف كما في الماضي. ان نسلّم بالقدر، ولكن يجب أن نفصل نمط حياتنا عن المحيط بقدر الامكان. أن نتجّمع في مجال الآحادية، أو في مجال وسط ضيّق. ان نعيش في منفى داخلي. إنسان لاجىء في وطنه. أن نعمل من أجل البقاء. والاستعانة بصهيونية مكشوفة أو مخفية.

٤ ـ أن نفعل شيئاً ما. ان نتكلم، أن نقنع الآخرين ، أن لا نسلّم بالقدر المحتوم ولا بأي شكل من الاشكال. رغم كل المنطق، رغم كل الحقائق، رغم انغلاق الاغلبية والزعامة نحاول الاصلاح، وايجاد طرق جديدة من تحت الارض، ان نتظاهر ضد الحرب، أن نؤمن حتى اللحظة الأخيرة بأن التغيير للأفضل يجب أن يحدث، لا شك بأنه سيأتي هذا التغيير ذلك لأنه لا يمكن أن يأتي أسوأ من هذا الوضع الحالي الذي تعيشه اسرائيل، المهم عدم البقاء مكتوفي الايدي.

٥ ـ أن نفعل شيئاً ما . ولكن ليس شيئاً روتينياً. أن ننهض، ان ننتفض، ان ننظم عصياناً مدنياً محدوداً أو شاملاً. أن نكون مستعدين سلفاً للعمل في اطار نشاطات سرية أو أن يُزج بنا في معسكرات اعتقال جماعية، عسكرية كانت أم مدنية.

٦ ـ أن نفعل شيئاً ما، ولكن ليس روتينياً. أن نعترف بأنه لا يجوز أن نترك الأمور تسير من يوم الى يوم، ولا يجوز ان نتكيّف مع الوضع الذي نعيشه، لدرجة نجد أنفسنا جميعاً، هكذا فجأة، محاصرين ومقيّدين لا حول لنا ولا قوة. أن نكون مستعدين نفسانياً وعملياً وتنظيمياً قبل فوات الأوان لمواجهة ازمة اقتصادية، سياسية، اجتماعية، عسكرية.

٧ ـ أن نهاجر الى الخارج. فوراً. أن نقفز من القطار السريع الى قطار آخر ـ ليس مهماً إلى أين. المهم أن لا نكون متضامنين مع التوجهات السياسية،

العسكرية، الاجتماعية، التربوية، الدينية، السائدة والتي تتعزز سنة بعد سنة. المهم أن لا نكون فريسة لضياع مضمون وفوري.

أن لا نألف الاجرام شيئاً فشيئاً. أن نكسر دائرة التكيّف البحرية عن طريق الخروج منها قبل فوات الأوان. إن الذين يتكيفون مع هذا الوضع نهايتهم سيئة ومرّة. لانه لا يمكن أن يكون هنالك أسوأ منه.

إن الذين يؤمنون بامكانية حدوث تغيير للافضل إنما يعيشون في الاحلام والاوهام وفي أفضل الحالات - إنهم يهذون.

إنه في أفضل الحالات، أي لو كانت هنالك في اسرائيل حكومة سلام، أو إذا أُرغمت حكومة اسرائيل من قبل الدول العظمى على السير إلى مؤتمر دولي لكي يعمل على إحلال السلام مقابل الارض - وحتى لو صودق على هذا السلام في إستفتاء شعبي - سيتدهور المجتمع الاسرائيلي لدرجة حرب أهلية لن تغيّر شيئاً من الواقع أية جهة تنتصر في هذه الحرب أو تخسر. وستخرب البلاد ولن تكون هنالك قوة لولادتها من جديد.

يجب أن ندرك ونفهم أن من ينشد: «بلاداً فيها نحيا/ وليكن مهما يكون...» إنما يغسل الادمغة تمهيداً للنهاية، إنه يقدّس الموت على الحياة، يقامر مغامرة مخيفة، مجرم وجان بحق غيره وبحق نفسه.

٨ - أن نهاجر الى الخارج. لكن الآن ، لا. فيما بعد.

٩ - أن نهاجر الى الخارج. لكن الآن، لا. في هذه الاثناء يجب إقناع آخرين للانضمام. لكي يكون اسهل في الطريق الى هناك. وهناك.

١٠- أن نهاجر الى الخارج. لكن ليس الآن. أن ننتظر حلول الازمة الكبرى، وموجة الهجرة الكبرى، ربما بشكل منظّم. ليس من المستبعد أنه عندما تتهيأ الظروف، ينهض أحد الزعماء الاسرائيليين ويدعو الى هجرة جماعية، والى استيطان جماعي، جماعات وفرادى، كل إنسان كما يحلو له، في أحد مواقع الشتات في الخارج، حتى لو حصل على مساعدة خارجية، يهودية ودولية، من أجل ذلك.

أمام العشرة بدائل هذه، أو جزء منها، أو صيغها، يقف الاسرائيلي القلق، المنزعج، الخائف في قلبه إن لم يكن ينطق ذلك بلسانه. أما البدائل السلوكية للاسرائيلي غير القلق، هذا الذي يسير على خط سكة القطار نحو الجسر المهدوم غير قابلة للتفصيل. كلها عنف. كلها مؤدية الى الحرب، كلها تنتهي الى جسر مهدوم. ربما أكون مخطئاً. أرجو أن أكون مخطئاً.

ولكن ماذا لو لم أكن مخطئاً ؟

• الكتب الصادرة عن دار الجليل •

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
١ ـ	عمود النار، الاسطورة التي قامت عليها اسرائيل		غازي السعدي
٢ ـ	الاستيطان، التطبيق العملي للصهيونية طبعة جديدة (مزيدة ومنقحة)	عبدالرحمن ابو عرفه	
٣ ـ	حرب الجليل، الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية، تموز ١٩٨١	بدر عبدالحق وغازي السعدي	
٤ ـ	الكتاب السنوي ١٩٨١، توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة	هيئة الرصد والتحرير غازي السعدي، نواف الزرو، غسان كمال	
٥ ـ	الكتاب السنوي ١٩٨٢، توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة	هيئة الرصد والتحرير غازي السعدي، نواف الزرو، غسان كمال	
٦ ـ	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (١) شهادات ميدانية لضباط وجنود العدو	بدر عبدالحق وغازي السعدي	
٧ ـ	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٢)	مايكل جانسن	محمود برهوم
٨ ـ	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٣) وثيقة جرم وإدانـة	غازي السعدي	
٩ ـ	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٤) أهداف ... لم تتحقّق	غازي السعدي	
١٠ ـ	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٥) معتقل أنصار ـ وصراع الارادات	سليم الجنيدي	
١١ ـ	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٦) الحـرب المضـــللة	زئيف شيف وايهود يعاري	غازي السعدي
١٢ ـ	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٧) فظائع الحرب اللبنانية		زكي درويش
١٣ ـ	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٨) لبـــنان هزيمة المنتصرين وانتصار القضية	اللجنة ضد الحرب في لبنان	
١٤ ـ	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبـنان (٩) الأسرى اليهود وصفقات المبادلة	غازي السعدي	
١٥ ـ	رسائل من قلب الحصار من أبو عمار الى الجميع.		
١٦ ـ	يوميات من سجون الاحتلال/زنزانة رقم (٧)	فاضل يونس	
١٧ ـ	المثلث الايراني: العلاقات السرية الاسرائيلية ـ الأمريكية الايرانية في عهد الشـاه	الصحفي شموئيل سيجف	غازي السعدي

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
١٨ ـ	هل يوجد حل للقضية الفلسطينية؟ مواقف اسرائيلية	الوف هرابين	غازي السعدي
١٩ ـ	عملية الدبويا كما يرويها منفذوها	المحامي درويش ناصر	
٢٠ ـ	مراكز القوى في اسرائيل ١٩٦٣ ـ ١٩٨٣ ونموذج صنع القرار السياسي في اسرائيل	دكتور نظام بركات	
٢١ ـ	مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧ـ١٩٨٥	منير الهور وطارق الموسى	
٢٢ ـ	غوش ايمونيم/الوجه الحقيقي للصهيونية	داني روبنشتاين	غازي السعدي
٢٣ ـ	عش العصفور/قصة للاطفال	منير الهور	
٢٤ ـ	رؤى مستقبلية عربية في الثمانينات	د. أحمد صدقي الدجاني	
٢٥ ـ	ايام دامية في المسجد الاقصى المبارك	الدكتور أحمد العلمي	
٢٦ ـ	حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير	يوسف قراعين	
٢٧ ـ	الأحد الأسود تصوّر امريكي صهيوني للعمل الفدائي الفلسطيني		حسن اسماعيل مشعل
٢٨ ـ	خارطة فلسطين/ وهي خارطة تمثّل سهول وهضاب وجبال ووديان ومدن وقرى فلسطين (ملوّنة)		
٢٩ ـ	بروتوكولات حكماء صهيون/المجلد الاول	عجاج نويهض	
٣٠ ـ	بروتوكولات حكماء صهيون/المجلد الثاني	عجاج نويهض	
٣١ ـ	الاردن وفلسطين/ وجهة نظر عربية	د. سعيد التل	
٣٢ ـ	الاقتصاد الاسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام	الدكتور فؤاد حمدي بسيسو	
٣٣ ـ	الاستعمار وفلسطين	رفيق شاكر النتشه	
٣٤ ـ	الحرب من اجل السلام	عيزر وايزمن	غازي السعدي
٣٥ ـ	الموســاد، جهاز المخابرات الاسرائيلي السري	دنيس اينبرغ، ايلي لاندو، اوري دان	
٣٦ ـ	التوازن العسكري في الشرق الاوسط	مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل أبيب	نبيه الجزائري
٣٧ ـ	بطاقات فنية (لوحات فنية تعبر عن الانتماء الفلسطيني)	د. كامل قعبر	
٣٨ ـ	بطاقات فنية (مجموعة) بطاقات على شكل دفتر الشيكات	د. كامل قعبر	
٣٩ ـ	الكتاب الأسود عن يوم الارض ٣٠ آذار ١٩٧٦		
٤٠ ـ	في سـربية الصحراء	سميح القاسم	
٤١ ـ	الخيار النووي الاسرائيلي	شاي فيلدمان	غازي السعدي
٤٢ـ	انتهاك حقوق الانسان في الاراضي المحتلة شهادات مشفوعة بالقسم		سليم راغب ابو غوش

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
٤٣ ـ	نقاط فوق الحروف مناقشة لردود الفعل تجاه مبادرتي الأمير فهد وبريجنيف	خالد الحسن	
٤٤ ـ	قراءة سياسية في مبادرة ريغان	خالد الحسن	
٤٥ ـ	فلسطينيـــات	خالد الحسن	
٤٦	الاتفاق الاردني الفلسطيني للتحرك المشترك	خالـــد الحســـن	
٤٧ ـ	من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (١) جرائم الارغون وليحي ١٩٣٧ ـ ١٩٤٨	يعقوب الياب	غازي السعدي
٤٨ ـ	من ملفات الارهاب الصهيوني في اسرائيل (٢) مجازر وممارسات ١٩٣٦ ـ ١٩٨٣		غازي السعدي
٤٩ ـ	من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (٣) دور الهاغاناه في انشاء اسرائيل	د. حمدان بدر	
٥٠ ـ	ملصق يوم الارض	سليمان منصور	
٥١ـ	ملصق جمل المحامل	سليمان منصور	
٥٢ـ	ملصق قبة الصخرة/ صورة تبرز معالمنا التاريخية والدينية في القدس		
٥٣ـ	فلسطين تأريخا ونضالا	نجيب الأحمد	
٥٤ـ	فلسطينيات في سجن النساء الاسرائيلي طيور نفي ترتسا	المحامي وليد الفاهوم	
٥٥ ـ	المؤسسة العسكرية الصهيونية في دائرة الضوء اسرائيل عسكر وسلاح (١)	بشير البرغوثي	
٥٦ ـ	اتفاقيات السلم المصرية - الاسرائيلية في نظر القانون الدولي	محمد الرفاعي	
٥٧ ـ	الجـــذور/ وثيقة الأوقاف الاسلامية	فتحي فوراني	
٥٨ ـ	فلسطين..الأرض والوطن(١) قرية الدوايمة	موسى عبدالسلام هديب	
٥٩ ـ	خط الدفاع في الضفة الغربية وجهة نظر اسرائيلية	اريه شليف	غازي السعدي
٦٠ ـ	تشريقة بني مازن	د. عبداللطيف عقل	
٦١ ـ	القمع والتنكيل في سجن الفارعة	لجنة الحقوقيين الدولية القانون من اجل الانسان	
٦٢ ـ	صورة العربي في الادب اليهودي (١)	الدكتورة ريزا دومب	عارف عطاري
٦٣ ـ	الشخصية العربية(٢) في الأدب العبري الحديث ١٩٤٨ ـ ١٩٨٥	غانم مزعل	
٦٤ ـ	فلسطين أرض وتاريخ	د. محمد النحال	
٦٥ ـ	القدس ماضيها، حاضرها، مستقبلها	فايز فهد جابر	

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
٦٦ ـ	القضية الفلسطينية في القانون الدولي.. والوضع الراهن	د. جابر الراوي	
٦٧ ـ	شوكة في عيونكم	مئير كهانا	غازي السعدي
٦٨	حرب الاستنزاف	د. محمد حمزة	
٦٩ ـ	القرار/ ألفان واثنا عشر يوما في سجون الاحتلال	رشاد أحمد الصغيّر	
٧٠ ـ	المطامع الاسرائيلية في مياه فلسطين والدول العربية المجاورة	بشير شريف البرغوثي	
٧١ ـ	أزمة الاستخبارات الاسرائيلية	تسفي لنير	قسم الدراسات
٧٢ ـ	اسرائيل عام ٢٠٠٠ (تصورات اسرائيلية)		
٧٣ ـ	دعوى نزع الملكية الاستيطان اليهودي والعربي في الفترة ١٩٤٨ / ١٩٧٨		بشير البرغوثي
٧٤ ـ	ندوة مشاكل التعليم الجامعي في الوطن المحتل والروح الجامعية		
٧٥ ـ	سميح القاسم/ ـ قصائد ـ شخص غير مرغوب فيه		
٧٦ ـ	القضية الفلسطينية	اكرم زعيتر	
٧٧ ـ	فلسطين الأم وابنها البار/عبدالقادر الحسيني	عيسى خليل محسن	
٧٨ ـ	عرب التركمان/ ابناء مرج ابن عامر	علياء الخطيب	
٧٩ ـ	المرأة الفلسطينية والاحتلال الاسرائيلي	ميسون العطاونة الوحيدي	
٨٠ ـ	نادية برادلي/ الفدائية المغربية الشقراء		غسان كمال
٨١ ـ	الاعلام الاسرائيلي	غازي السعدي ومنير الهور	
٨٢ ـ	تقرير الارض المحتلة المقدم الى الدورة (١٨) للمجلس الوطني الفلسطيني	قسم الدراسات والابحاث	
٨٣ ـ	الوجه الحقيقي للموساد	د. وجيه الحاج سالم وأنور خلف	
٨٤ ـ	العمق الاستراتيجي في الحروب الحديثة		بدر عقيلي
٨٥ ـ	شخصيات صهيونية (١)	مذكرات الجنرال رفائيل ايتان	غازي السعدي
٨٦ ـ	شخصيات صهيونية(٢) وتهجير يهود العراق	شلومو هيلل	غازي السعدي
٨٧ ـ	شخصيات صهيونية(٣) ثيودور هيرتسل عراب الحركة الصهيونية	قسم الدراسات	
٨٨ ـ	شخصيات صهيونية(٤) شارون بلدوزر الارهاب الصهيوني		غازي السعدي
٨٩ ـ	شخصيات صهيونية(٥) آباء الحركة الصهيونية		عبدالكريم النقيب

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
٩٠ ـ	شخصيات صهيونية(٦) موشيه ديان .. أنا وكامب ديفيد		غازي السعدي
٩١ ـ	شخصيات صهيونية(٧) بن غوريون والعرب		غازي السعدي
٩٢ ـ	شخصيات صهيونية (٨) رسائل بن غوريون		الأميرة دينا عبدالحميد
٩٣ ـ	شخصيات صهيونية (٩) حياتـــي .. غولدا مائير		دار الجليل
٩٤ ـ	شخصيات صهيونية (١٠) حركة التصحيح الصهيونية من عهد جابوتنسكي إلى عهد شامير	ليني برينر	دار الجليل
٩٥ ـ	من رواد النضال الفلسطيني ١٩٢٩ ـ ١٩٤٨ الكتاب الأول	زياد عودة	
٩٦ ـ	من رواد النضال الفلسطيني ١٩٢٩ ـ ١٩٤٨ الكتاب الثاني	زياد عودة	
٩٧ ـ	الحركة العمالية العربية في فلسطين	سليم الجنيدي	
٩٨ ـ	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (١) سلاح الجو الاسرائيلي	زئيف شيف	دار الجليل
٩٩ ـ	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٢) سلاح الاستخبارات الاسرائيلي	عوديد غرانوت	دار الجليل
١٠٠ـ	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٣) سلاح الهندسة	عمي شامير	دار الجليل
١٠١ـ	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٤) سلاح المشـــاة	نتان روعي	دار الجليل
١٠٢ـ	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٥) سلاح المظليين	ايلان كفير	دار الجليل
١٠٣ـ	دراسات في تعليم الكبار	د. عدنان أبو عمشة	
١٠٤ـ	وجه قبيح في المرآة	البروفيسور ادير كوهن	غازي السعدي
١٠٥ـ	تاريخ ما أهمله التاريخ	عبدالهادي جرار	
١٠٦ـ	الاعلام الفلسطيني	د. حسين أبو شنب	
١٠٧ـ	النزاع العربي ـ الاسرائيلي بين فكي كماشة الدول العظمى	موشه زاك	دار الجليل
١٠٨ـ	تحت السياط	فاضل يونس	
١٠٩ـ	"الغضـــب"	أكرم النجار	
١١٠ـ	جلسات في رغدان	د. يوسف هيكل	

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
١١١-	منجل في النجمة السداسية (التجسس السوفياتي في اسرائيل)	ايسر هرائيل	بدر عقيلي
١١٢-	اشكالية الديمقراطية والبديل الاسلامي في الوطن العربي	خالد الحسن	
١١٣-	تعليم الفلسطينيين ماضيا وحاضرا ومستقبلا	د. عبدالقادر يوسف	
١١٤-	صرخة في وجه العالم (ألبوم الانتفاضة)	دار الجليل	
١١٥-	الاستخبارات والامن القومي	المقدم احتياط تسفي عوفر والرائد آفي كوبر	دار الجليل
١١٦-	الاحزاب والحكم في اسرائيل	غازي السعدي	
١١٧-	ربيع الحياة	د. يوسف هيكل	
١١٨-	قبس من تراث المدينةوالقريةالفلسطينية	صباح السيد عزازي	
١١٩-	اشتعالات حمدان/مجموعة قصصية	أكرم النجار	
١٢٠-	الحافلة رقم ٣٠٠ و(فضيحة الشين بيت)		أحمد بركات
١٢١-	آه يا بلدي!/روايـــة	أكرم النجار	
١٢٢-	معجم المصطلحات الصهيونية	افرايم ومناحم تلمي	احمد بركات العجرمي
١٢٣-	من القمع الى السلطة الثورية	قدري أبو بكر	
١٢٤-	أيـــــام الصـــبــا صورة من الحياة وصفحات من التاريخ	د. يوسف هيكل	
١٢٥-	معجم الأمثال الشعبية الفلسطينية	فؤاد ابراهيم عباس	
١٢٦-	صناعة قرارات الأمن الوطني في اسرائيل	عمر شاهين	بدر عقيلي
١٢٧-	قـمع شـــعب شهادات ميدانية مشفوعة بالقسم .		بشير شريف البرغوثي
١٢٨-	جليلة..وهج في جذور الانتفاضة/رواية	أكرم النجار	
١٢٩-	أســـلـحـة وإرهـــاب وجهات نظر اسرائيلية في ثلاثة أبحاث		دار الجليل
١٣٠-	حدود (أرض اسرائيل)	موشيه برافر	بدر عقيلي
١٣١-	هذه قضيتك يا ولدي	سليم عبدالعال القزق	
١٣٢-	حرب سيناء ١٩٥٦/تصورات اسرائيلية		بدر عقيلي
١٣٣-	المثلث الايراني/الكتاب الثاني/ دراما العلاقات الايرانية/الاسرائيلية/الامريكية	شموئيل سيجف	دار الجليل
١٣٤-	الفاشية الاسرائيلية	المحامي درويش ناصر	
١٣٥-	النظرية العسكرية الاسرائيلية/دفاع وهجوم/	اريئيل لفيتا	دار الجليل
١٣٦-	الأمن القومي العربي ونظرية تطبيقه في مواجهة الامن الاسرائيلي	العميد/محمد يوسف العملة	

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
ـ١٣٧	سياسة اسرائيل الأمنية	المحرر زئيف كلاين	بدر عقيلي
ـ١٣٨	دقيقتان فوق تل ابيب	محمد أزوقة	
ـ١٣٩	الهجرة اليهودية حقاق وأرقام	د. عمران أبو صبيح	
ـ١٤٠	انتفاضة	زئيف شيف وايهود يعاري	دار الجليل
ـ١٤١	جواسيس المخابرات الاسرائيلية تاريخ ... وجغرافيا	يوسي ميلمان ودان رافيف	دار الجليل
ـ١٤٢	«دولة» اسرائيل ـ زائلة	يعقوب شريت	دار الجليل

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية ٦٨١/١٠/١٩٩٠
رقم الاجازة المتسلسل ٧٠٥/١٠/١٩٩٠

طبع في شركة الشرق الاوسط للطباعة - تلفون ٨٩٤٩٤٠/٨٩٤٩٤١ - ص.ب ١٥٢٨٦ - ماركا الشمالية / عمان / الأردن

هذا الكتاب

اقرار، أقرب ما يكون مشفوعاً بالقسم، بحتمية زوال «دولة اسرائيل»، دونه يعقوب شاريت، بملء حريته، في كتاب، ابتعد فيه عن الاطار العملي الموضوعي، ليحلق في فضاء الفكر والفلسفة، معبراً عن المأزق الفكري ـ الفلسفي، للممارسة الصهيونية.

وهو اعتراف بأن «الفلسفة الامنية». التي بنيت عليها الغطرسة العسكرية، بعيداً عن الرؤية العاقلة المتزنة. هي خطيئة ارتكبها بن غوريون، عشية اقامة «الدولة»، والتي كانت الحروب العربية ـ الاسرائيلية، نتاجاً لها، وبذلك يضع يده على سر القانون الذي وضعه آباء الحركة الصهيونية، القائل بضرورة وحتمية انفجار الحروب بين اسرائيل «وجيرانها» العرب.

والمؤلف، الذي يؤيد اقامة الدولة الفلسطينية، يصل الى هذه القناعة، عبر سلسلة طويلة من حالات اليأس والرؤية السوداوية، فهو لا يسعى الى التغيير، ولا يشارك في الاحداث، ومن هنا نستطيع أن نفهم مخاطبته لمسؤوليه «انتم تفعلون ما تفعلون باسمي ولست شريكا لكم».

ويغدو النقد المؤدي الى القنوط والاحباط، مجرد حالة آنية، قد تنتفي بزوال الأسباب، ذلك أن الانتفاضة، قد جعلت كثيراً من الكتاب وأهل الفكر، يعبرون عن أوجاع الدولة، بشكل عاطفي ـ ثقافي ـ انفعالي، وكان أجدى لهؤلاء، لو أنهم سخروا جهودهم، وشحذوا عقولهم لوقف الكارثة.

ويظل كل ذلك، مجرد محطات، بين يدي الكتاب، ذلك أن مفكراً فيلسوفاً، مثل يعقوب شاريت، يضع يده على كثير من المواجع الاسرائيلية، المنذرة بالخطر، وهذا أمر عظيم، رغم ادراكنا العميق، أن المؤلف يئن تحت مطرقة سلوكيات ساسته وشعبه، ولا يذرف دموعاً على الضحايا..

المؤلف يعقوب شاريت، كاتب ومفكر، ابن موشيه شاريت (شرتوك) أحد الأباء الروحيين والمنفذين ايضاً للمشروع الصهيوني، ووزير خارجية بن غوريون، ورئيس الوزراء الاسرائيلي الثاني.

اصدار
دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية

عمان ـ ص.ب ٨٩٧٢ تلفون ٦٦٧٦٢٧ ـ ٦٧٥٦٢٧
تلكس ٢٣٠٣١ ـ فاكسميلي ٦٨٣٦٦٨